جودت السعد

أوهام التاريخ اليهودي

الأهلية

Bibliotheca Alexandrina
0018825

أوهام التاريخ اليهودي

5059
5059

جودت السعد

أوهام التاريخ اليهودي

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم التصنيف : 951.009924
رقم التسجيل : 32116
General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الأهلية

الأهليـــة للنشـــر والتـــوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمـان / وسط البلد
خلف مطعم القدس ؛ ص . ب ٧٧٧٢
هـاتف ٤٦٣٨٦٨٨ - فاكـس ٤٦٥٧٤٤٥

منشورات الأهلية لعـام ١٩٩٨
جودت السعد / اوهام التاريخ اليهودي
الطبعة العربية الأولى
حقوق النشر محفوظة للناشر ©

تصميم الغـلاف [illegible] ®
التنضيـد : أزمنـــة

طبـــع في لبنـــان
على مطابع شركة الطبع والنشر اللبنانية

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه أو نقله بأي شكل من الأشكال ، أو تصويره ، دون إذن خطي مسبق من الناشر .

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without the prior permission of the publisher.

الإهداء

هلا

بكل البنادق المشرعة ، الرافضة للهزيمة واليأس . ولكل المقاتلين ، فكراً ونهجاً وأسلوباً وممارسة .

لكل الذين يطأون بأقدامهم حالات النكوص والتردد .

للعقل الكبير والقلب الذي يتسع مساحة الوطن العربي .

إلى كل عربي يزداد شموخاً رغم النزيف الدائم وسقياً لتلك الأرض «الأم» وخلودها .

المقدّمة

كثيرة هي الوسائل التي استعملتها الحركة الصهيونية للوصول إلى أهدافها، لكن من أهم هذه الوسائل ، توظيف التاريخ لخدمتها وصولاً إلى أغراض سياسية محددة . فالتاريخ بالنسبة لها هو التوراة ، والديانة اليهودية ابنة هذا التاريخ . والديانة اليهودية والتاريخ التوراتي هما عكازتا الحركة الصهيونية اللتان لولاهما لظلت تزحف على بطنها ووركها دون أن تستطيع الوقوف والمشي .

التاريخ - بالنسبة للديانة اليهودية - « موظف أو متطوع » لمصلحة اليهود وأطروحاتهم ومقولاتهم ، ورغم وجود ثغرات تاريخية قاتلة تمس الشخوص - بشكل خاص - والأحداث عموماً إلاّ أن هذا التاريخ ظل محمياً بجدار إيماني سميك أخذ السمات القدسية ، مع مرور الزمن ، ليس لليهود حسب بل لأتباع الديانتين المسيحية والإسلامية أيضاً . ومع غياب البديل العقلي والموضوعي فرض العامل النقلي نفسه وغدا المؤرخون مجرد ناقلين لأحداث يشوبها الكثير من الظنون والشكوك والمبالغات ويفرضونها كمادة دراسية وتربوية على مراحل الدراسة كافة من الإبتدائية وحتى مراحل البحث والتنقيب .

فإذا كان الإنسان قد اكتسب سماته الخلاقة والمتميزة والمتفردة بكونه مخلوقاً ذا تاريخ ، والتاريخ ميزة الكائن العاقل ، ندرك مدى خطورة تشويه العقل بتشويه التاريخ وإلغاء ملكة النقد الإيجابية فيه ، لقتل الحقيقية أو إجهاضها أو استعمالها وسيلة لتمرير الباطل وتزويقه .

وما دام التاريخ والعقل « صنوان » لا بد أن تسيطر الحقيقة بعوامل الفكر أو بقوتها الذاتية ، ومعها تتشذب الأحداث الكبيرة وينجلي التراث ويسقط كل طفيلي أو سطحي أو

طارىء ، وتغدو المسيرة الحضارية فسيفساء جميلة في بنيان الحقيقة التاريخية .

التاريخ ليس مجرد سرد أو نقل لوقائع وأحداث رسمها حكام وملوك حسب أهوائهم أو قصص وأساطير ميتافيزيقية ، بل هو علم موضوعي عموده الفقري علم الآثار الحديث، علم موضوعي وإنْ لم يكن بالإمكان إعادة « تجربته » لكن يمكننا إعادة النظر فيه مع المستجدات المادية والمكتشفات الآثارية التي لم تعد مجرد أحجار وطلاسم بعد أن تم فك رموزها وتحليل كتاباتها وأشكالها إضافة إلى تدخل علم الكيمياء في تحديد أعمارها.

لقد أدركت الحركة الصهيونية والمؤرخون اليهود خطورة علم الآثار على المنهج التوراتي الأسطوري والنظري ، فجرت محاولات للالتفاف حول هذا العلم وتطويعه لدعم وجهة النظر اليهودية من خلال :

أولاً : السيطرة على مراكز الأبحاث والدراسات التي تتولى هذا الجانب في الغرب وبشكل خاص في الولايات المتحدة الأمريكية وتجنيد مجموعات من الباحثين والآثاريين والمؤرخين واستصدار مئات المطبوعات (كتب ودوريات) لتنفيذ هذا المخطط . وبحكم الصلة الروحية بين اليهود ومسيحيي الغرب كان الطابع العام لهذا المنهج لصالح الصهيونية والتاريخ التوراتي باستثناءات قليلة . وعن طريق هؤلاء الباحثين تسريت المعلومات التوراتية - على علاتها - إلى المؤرخين العرب ، عموماً ، وبالنقل الحرفي أحياناً .

ثانياً : أسس الكيان الصهيوني دائرة الآثار الإسرائيلية بعد مرور أقل من شهرين على إعلان الدولة الصهيونية رسمياً (حيث كان الإعلان هذا بتاريخ ١٤ أيار ١٩٤٨ بينما صدر مرسوم تشكيل دائرة الآثار الإسرائيلية أوائل تموز ١٩٤٨) والهدف من ذلك السيطرة على المناطق الآثارية ووضع اليد عليها والتنقيب فيها وبالتالي فرض رقابة على نتائج هذه التنقيبات .

الأحداث « التاريخية التوراتية » كما تؤكدها كثير من المؤشرات : إما أنها نتائج

لمقدمات أو مقدمات يستنتج منها نتائج ، وهي إما مقدمات باطلة وبالتالي تكون نتائجها خاطئة أو هي نتائج خاطئة بحكم مقدماتها الباطلة .

ومن القضايا الهامة التي تشير إلى مغالطات المؤرخين وتبنيهم لوجهة نظر التوراة وأحياناً المغالاة فيها موضوع الهجرات من الجزيرة العربية وبالذات ما تسمى « موجة العبريين » ، فمعظم الذين كتبوا في هذا الموضوع أشاروا إلى وجود موجة لأناس يسمون « العبريين » دون دليل (اللهم إلاّ الدليل التوراتي وغير الكامل في هذه النقطة) . فمن أين جاءت . لو افترضنا وجودها . هل جاءت من جزيرة العرب أيضاً وكيف كان خط سيرها، وأين آثارهم ؟! لقد خرجت منذ الألف الرابع ق.م موجات من الجزيرة العربية : الأكديون والعموريون ، وأثارهم لا زالت شاخصة حيثما حلوا وأقاموا . ومن الأكديين جاء البابليون والأشوريون ومن العموريين الكنعانيون (الفينيقيون) . ثم تداخل العموريون والأكديون في تشكيل الدولة البابلية التي انحدر منها الملك العظيم حمورابي ثم خرج من الجزيرة العربية حوالي ١٥٠٠ ق.م الآراميون وبعدها الموجة العربية الحديثة .. فأين يأتي زمن ومكان هجرة العبريين ؟!

ليس من دليل مهما كان عمقه وأهميته على وجود العبريين . باستثناء الدليل الوحيد الذي لا يركن إلى صدقه وهو الدليل التوراتي ، وهذا لا يشير أيضاً إلى هجرة كبيرة بل إلى هجرة أسرة . إذن لماذا يصر مؤرخونا الأفاضل على اعتبار العبريين موجة خرجت من الجزيرة العربية ؟!

والأنكى من ذلك تعامل المؤرخين عامة . ومنهم العرب . مع قضية اللغة العبرية كنهها ، صوتها ، صورتها ، قلمها وبدايتها ومخطوطاتها القديمة .. ولعدم وجود أي دليل على وجود اللغة العبرية سلكوا الطريق السهل ورأوا مع من رأى أن العبرية هي الكنعانية ومع أن التوراة نفسها لم تجرؤ في كل مراحلها على وصف العبرية بالكنعانية إلاّ أن هؤلاء المؤرخين أصروا على ذلك دون دليل أو منطق أو حجة تنسجم مع الأطروحات والأحداث التاريخية . فالتوراة قالت أن الموسويين تكلموا لغة كنعان ، ولو لم يكن التمايز موجوداً لما

ذكر النص بصيغته «سفت كنعن » . والموسويون (لو افترضنا ـ كما تقول التوراة ـ وجود صلة قربى مع من يسمون إسرائيليين) ، واعتماداً على نصوص التوراة فإنهم مكثوا ٤٣٠ سنة في مصر وهذه المدة كفيلة بأن تكون لغتهم مصرية ، ولما جاءوا إلى كنعان تحدثوا الكنعانية بحكم الوسط العام في المنطقة الجديدة (أرض كنعان) . وإذا أجاز بعض المؤرخين لأنفسهم أن يصفوا العبرية بأنها الكنعانية فمن المنطقي أن يسلموا أيضاً أن اللغة الإنجليزية التي يتحدث بها قسم من أهل الهند هي لغة هندية .

هناك لغتان لليهود ، في العصر الحديث ، إضافة للعبرية ، هما : اليديش واللادينو تلقيان الضوء على كيفية الوصول إلى بناء اللغة العبرية ، فاليديش لغة تكونت من مفردات عبرية (وهذه مزيج من الكنعانية والأكدية والآرامية والعربية) والمانية وسلافية وانجليزية، بينما اللادينو فهي لغة استعملها يهود إسبانيا ومعظم مفرداتها من اللغة الإسبانية . واللغتان تكتبان من اليمين إلى اليسار .

أما العبرية فهي ليست (كما سنرى لاحقاً) سوى لهجة آرامية أدخل إليها مفردات أكدية وكنعانية (فينيقية) وعربية حديثة ويونانية وأخيراً مجموعات كبيرة من مفردات اللغات الأوروبية المنقولة بلفظها ومعانيها . وهذه اللغة لم تصبح محكية ومكتوبة إلاّ في فترة متأخرة نسبياً تعود إلى فترة المكابيين (القرن الثاني ق.م). وحتى هذه اللحظة لم يعثر المنقبون الآثاريون بمن فيهم المنقبون (الإسرائيليون) على أي نص عبري قبل هذا العصر ـ أي القرن الثاني قبل الميلاد.

قد تكون جبهة التاريخ والمعرفة أشد الجبهات وأخطرها في الصراع العربي الصهيوني لتماسها مع الصراع الحضاري وبالتالي الوجودي . وعليه توجب الفرز الحقيقي لمعطيات التاريخ وتبيان الغث من السمين خاصة أن الحقيقي وغير الحقيقي من هذه المعطيات أخذت أدواراً على مسرح الأحداث بفعل الأثر التوراتي.

المعروف جيداً لعلماء الأجناس البشرية : أن الديانة اليهودية شأنها شأن المسيحية والإسلام تضم أجناساً مختلفة ؛ ويعلم المؤرخون ومنهم (الإسرائيليون) أن

٩٠٪ من يهود العالم اليوم هم من أصل خزري تهودوا في العصر الوسيط ، إضافة إلى كتل أخرى جاءت من أقوام مختلفة منهم العربي - يهود اليمن - الذين تهودوا زمن الملك العربي ذي نؤاس ومنهم يهود الحبشة - الفلاشا - ويهود الصين.. الخ . فالحاح اليهود على نقاء الدم اليهودي مقولة لم تعد تعني شيئاً ، مع أنها تمارس فعلياً على صعيد السياسة الصهيونية . وإلاّ ما الذي يجمع بين (ثيودور هيرتزل) أزرق العينين وأبيض البشرة وذو الشعر الناعم مع (إسرائيل زنغويل) أسود اللون وصاحب الشعر الأجعد على رأس الحركة الصهيونية ؟

رغم الدور « التاريخي » للتوراة والأهمية الدينية التي يلعبها « الكتاب المقدس » فإنه يتضمن الكثير من التناقضات والسلبيات التي لا حصر لها ؛ لكن المؤرخين يجمعون على حدثين كبيرين « في التاريخ اليهودي » لم تتطرق التوراة إليهما بالتفصيل المعهود رغم أهميتهما : الأول : أن التوراة لم تذكر شيئاً عن حياة (بني إسرائيل) في مصر بعد وفاة يوسف رغم الإشارة إلى مكوثهم ٤٣٠ سنة هناك فهل تعتبر التوراة أو كتبتُها أن أبناء يوسف أو أبناء أخوته الأحد عشر (الأسباط) المباشرين غير مؤهلين للمسح والبركة والنبوة فغيبها الكتبة ٤٣٠ سنة ليبعثوها من جديد على يد موسى ؟ الثاني : من المعروف توراتياً أن عشرة أسباط من أصل إثنا عشر سبطاً أيدوا حاكم شكيم (نابلس) بينما أيد سبطان حاكم يهودا بعد موت سليمان وقد سقطت شكيم على يد سرجون الثاني ٧٢٢ ق.م وسبي سكانها إلى بلاد أشور .. بينما سبي سكان يهوذا على يد نبوخذ نصر ٥٨٦ ق.م فلماذا تجاهلت التوراة السبي الأشوري كلياً وألغت وجودهم تماماً بينما يتركز الإهتمام على سبي نبوخذ نصر ؟!.

خلال إطلاعي على نتائج التنقيبات في المناطق التي تقول التوراة أن « اليهود» سكنوها (في مصر ، العراق ، فلسطين) لم أجد ما يؤكد أي مقولة توراتية ، بل إن كل أثر جديد يكتشف يعمق الهوّة بين « تاريخهم » والتاريخ ، ويؤشر دوراً سياسياً فقط لأناس ارتضوا أن يكونوا رأس حربة للجيش المصري في التصدي للثورات التي عمت بلاد الشام كلها ضد التسلط الفرعوني . ولما كانت الدوائر تدور على الفراعنة لصالح الأشوريين أو

البابليين كان يرهن هؤلاء أنفسهم لخدمتهم.. وحين جاء الفرس على أنقاض الدولة البابلية كان هذا النفر أول من وظف نفسه لخدمة الحاكم الجديد إلى درجة اعتبرت التوراة قورش الفارسي هو المسيح المنتظر .ولما قضى اليونان على الدولة الفارسية أصبح هؤلاء فيلقاً متقدماً في الجيش اليوناني بل إن المكابيين الذين يفتخر بهم اليهود على أساس أنهم أنشأوا دولة يهودية في القرن الثاني قبل الميلاد لم يكونوا سوى ممثلين لليونان ثم للرومان في فلسطين .

دائرة الآثار والتراث العراقية والتي تضم أروقتها على كنوز وقيم حضارية وأثارية تعود إلى معظم المراحل التاريخية ، والتي تتولى التنقيب والإشراف على كل الساحة العراقية ، بما تعنيه الساحة العراقية من بعدٍ حضاري مؤكد (سومري ، أكدي ، بابلي ، أشوري ، آرامي) وهي حضارة شاخصة ومؤكدة بالدليل المادي الملموس . هذه الدائرة التي لا يسعني إلاّ تقديم شكري الجزيل لها على ما أتاحته لي من اطلاع على آثارها ومخازنها ومستودعاتها ونتائج أبحاثها وتنقيباتها . ورغم أن ما تحويه هذه الدائرة يرجع بعيداً إلى ما قبل التاريخ بعشرات الآلاف من السنين مروراً بكل الأدوار التاريخية فإنني لم أعثر على وثائق ذات أهمية لها علاقة بالتاريخ اليهودي . فالعراق كله خلو من أي « تراث » له السمة اليهودية وباستثناء بعض القبور وبعض الكنس « التراثية » وبعض النسخ من التوراة مكتوبة على الجلد لا يزيد عمرها على مائتي سنة وبعض الفخاريات السحرية باللغة العبرية والتي ربما تعود إلى القرن السادس للميلاد لم نجد شيئاً آخر يذكر . وبهذه المناسبة لا بد أن أذكر بالعرفان كل الذين قدّموا لي العون في هذه الدائرة العلمية الجليلة وبشكل خاص أمينات وموظفات المكتبة المركزية لهذه الدائرة ومكتبة المسماريات .

أما التنقيبات في فلسطين سواء أكان قبل عام ١٩٤٨ أو بعده ومن خلال الإطلاع على ما كان ينشر في المطبوعات المتخصصة أو كتب المنقبين أو ما تعلنه دائرة الآثار الإسرائيلية ، فإن ما تم الوصول إليه يؤكد هامشية هذا النفر من الناس تاريخياً - كما سنرى في الكتاب - باستثناء مخطوطات البحر الميت والتي جاءت لتؤكد الأفكار التي يطرحها الكتاب ومنها (١) أن الديانة اليهودية والتوراة هما نتاج القرون التي تلت السبي

البابلي (٢) اللغة العبرية لغة حديثة نسبياً ، لم يبدأ الحديث والكتابة بها قبل القرن الثاني قبل الميلاد ، وقد بدىء بتطويرها في القرن الرابع ق.م ولم تصبح لغة كاملة إلاّ بعد القرن السادس الميلادي .

وفي مصر .. ورغم الكم الهائل من الآثار المهمة فيها ، لم يعثر على أي نص أو أثر له إشارة إلى وجود اليهود عبر التاريخ باستثناءين : الأول : النص المذكور باللغة الأرامية مكتوب على ورق البردي في مكان يسمى (الفنتاين) أسوان حديثاً ويشير النص إلى وجود معسكر لأناس قدموا من يهوذا في فلسطين هرباً من وجه نبوخذ نصر، وهذه إشارة واضحة إلى طبيعة علاقات هؤلاء بالفراعنة . أما الثاني فهو مخطوطات الجنيزا التي عثر عليها أثناء ترميم كنيس عزرا في القاهرة عام ١٨٩٦ م وتنحصر هذه المخطوطات في القرن الثامن إلى الثاني عشر للميلاد .

الضرورة تقتضي ليكون حكمنا موضوعياً في تتبع مجريات التاريخ النأي والابتعاد عن التأثير النقلي الذي يلعب الدور الأساس في حالة الانحراف والرؤيا غير الصحيحة بحكم الإحكام الميتافيزيقية المسبقة كأطر يتحرك من خلالها فكر الإتباع .

جودت السعد

توطئة

دراسة سلسلة الأفكار التوراتية بموضوعية ، كما أرى ، تقتضي بالضرورة ممارسة شيء من السلوك النقدي تجاه مجمل المعطيات الواردة حتى لا نظل مقيدين بالمنطلقات الذاتية المحضة تجاهها ، وإزاء هذا المنهج قد نكون مضطرين إلى العودة للبداية التطورية ضمن هذا المنطق ، فالدواعي الذرائعية والإيمانية في الديانة اليهودية اعتورها الكثير من التداخلات ، أو ربما تكون حصيلة تجارب الشعوب وتأثيراتها المتبادلة .

والديانة اليهودية ـ التي ظهرت بعد السبي البابلي ـ تطورت في جو مفعم بالإيمانات الأسطورية والميتافيزيقية التي كان يؤمن بها سكان وادي الرافدين وسكان وادي النيل وسكان بلاد الشام ، « فأساطير الأصل » الباحثة عن ماهية الكون والآلهة والإنسان تعج بها الآداب السومرية والأكدية والفرعونية ، وهي ليست بعيدة عما ورد في سفر التكوين ، ويزداد التبلور الأسطوري من خلال « أساطير التنظيم » التي تعتمد على « القرارات الإلهية » في تسيير دفة الأمور لتكون هذه القرارات قاطعة وغير قابلة « للطعون » ، و « يهوه » في الديانة اليهودية له السمات الفوقية المطلقة ، فالظواهر الطبيعية كلها ببطشها وجبروتها ليست إلاّ إنعاكاسات لعظمة يهوه ، وبالتالي أدّت الميثولوجيات إلى خلق أسطورة جديدة هي « إرادة الله »[1] .

« إرادة الله » التي تعني هنا إرادة يهوه استولدت حالة التفاعل الجدلي (الديالكتيكي) بين يهوه وشعبه المختار ؛ فهو وحده الإله الخاص الذي قادهم

(١) نوركيلد جاكوبسن، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ص ٢٧١

في القفر وليس معه إله أجنبي .[1] وتجسد هذا الإله « النموذجي » وتشخص في حالات بشرية مادية إلى درجة « عبادة العشق » المنعكسة والمتمثلة بغرام هذا الإله بهذا النمط من البشر[2] . . وهذا الإله لا بد له من التطور موقفياً وأخلاقياً وفكرياً ليواكب التطورات الاجتماعية والسياسية وبالتالي إيجاد الأرضية لفكرة «ملكوت الله » ، ومن حالة ملكوت الله المطلقة وصولاً إلى « أرض الميعاد» المشخصة . ففي هذه الأسطورة يرتبط جلال الله وحقارة الإنسان في موقف درامي ينسرد على مر الأحقاب والأزمان متحركاً باتجاه مستقل ، ناءٍ وقصي ، حيث يلتقي في اللانهاية هذان المتوازيان .

الفكر اليهودي لا يرى ظواهر الطبيعة مليئة بالمعاني ، بل المليء بالمعاني هو التاريخ ، إذ غدا التاريخ كشفاً عن إرادة الله الدينامية ، ولم يكن الإنسان مجرد خادم لدى الإله كما كان في أرض الرافدين ، وليس في منزلة الركود الكوني المفروض عليه ، كما في مصر . لقد كان الإنسان ـ في الفكر اليهودي ـ خادم الله ومفسّر كلمته ، وقد حباه الله شرف مسؤولية تحقيق إرادته . وهكذا حكم على البشر بالخيبة لقصور الأسباب وعجزهم ، فنجد الإنسان في العهد القديم وقد نال حرية جديدة وعبئاً من المسؤولية جديداً ، ونجد فيه أيضاً فقداناً جديداً للانسجام سواء مع عالم العقل أم عالم الإدراك . وهذا ما يفسر لنا معاناة أبطال العهد القديم وتناقضاتهم حيث يتزاوج في شخصياتهم القبح والجمال ، الكبرياء والخسة ، النجاح والخيبة ، فهناك شخصية شاؤول المأساوية وشخصية داود الإشكالية ، وهناك أفراد ضربت عليهم عزلة رهيبة وهم يواجهون إلههم المتميز ، فابراهيم يمشي ثقيل الخطى مع ابنه قاصداً ذبحه ، ويعقوب في معاناته . كذلك موسى وغيره .

كان الإنسان في مصر وأرض الرافدين خاضعاً لسيطرة الطبيعة ، لكن هذه الطبيعة بإيقاعها الأكيد تعينه وتعاضده ، وإذا كان يحس في لحظات شقائه بأنه

(١) سفر التثنية ٣٢ : ١٠-١٢
(٢) سفر الخروج ٩ : ٦

يتخبط في شبكة من القوى التي لا يدرك كنهها ، فإن لتحكم الطبيعة به إجمالاً صفة التهدئة والتلطف ، فتيارات الفصول الكونية الأبدية تحمله على متنها حملاً رقيقاً . وقد عبّر الإنسان عن علاقته العميقة الحميمة بالطبيعة برمز الإله ـ الأم . أما الفكر التوراتي فقد تجاهل هذا الرمز ولم يعترف إلاّ بالأب . ومع ذلك فإن الأفكار التوراتية تعتمد على التماس مع التاريخ البابلي ، وهذا الاعتماد ليس بالضرورة يؤدي إلى التوافق ، فموضوع مثل أسطورة الخلق هو رسم لشخصية جماعة بنت أساطيرها وغدت جزءاً من تراثها الأدبي كانعكاس لوضعها الخاص . وبذلك تسهل معرفة الأصول والفروع النابتة على هامش الحقيقة ، وهذا ما يتبين في الأساطير الواردة في الكتاب المقدّس . (١)

لقد أدت المكتشفات الآثارية إلى فهم تاريخ الديانة اليهودية وتطورها ، وغدا مؤكداً أن الكثير من تراث وآداب وعبادات الديانات القديمة تتضمنها الديانة اليهودية ، ويمكن تمييز حالتين في هذه الديانة : مكتوبة وغير مكتوبة . الأولى لها علاقة بعلم الفلولوجيا وعالم اللغة ، والثانية تمر عبر الحقل الآثاري . (٢)

تشير المراجع الميثولوجية للعهد القديم إلى أن كتبة التوراة استعملوا الأساطير المحلية في كتاباتهم ، وهي بالتالي تعطي مؤشراً على طرق تفكيرهم ؛ فاقتباس الأساطير نتيجة حتمية للخلفية الأدبية . وقد تم تعديل وتكييف هذه الأساطير ليكون بالإمكان استيعابها ، بل إن بعضاً من هذه الأساطير قلبت معانيها تماماً فغدا التنين رمزاً إلى مصر على سبيل المثال . وقد كان لهؤلاء الكتّاب قدرة كافية وإمكانية كاملة على استيعاب أساطير التجلي ، التي تقود إلى نضالات دينية . (٣) ويبدو أن كتبة التوراة ، ولعمق تفاعلهم مع آداب وادي الرافدين والآداب المصرية ، اقتبسوا واستعملوا الأسطورة ، لكنهم كانوا

---

(1)Jastrow Morris , Hebrew and Babylonian Traditons P. 21 .
(2) W.F. Albright , Archaeology And The Religion of Israel P 37
(3) G.H. Davies , P.E.Q July - Dec 1956 P. 83 - 89

عاجزين عن خلق أسطورة خاصة . يشير Eissfeldt إلى قابلية الفهم الميثولوجي عند اتباع الديانة اليهودية حيث يقول : *الميثولوجيا الخاصة غير موجودة في العهد القديم ولم نطلع إلاّ على المقتبسة من الغير، وبدون شك أن ذلك مرتبط بالإيمان بيهوه دون إنكار الآلهة الأخرى* ، ويشترك A.Weiser في نفس الرأي فيقول : *الهدف من وجود الأسطورة غير معروف في التوراه ، فالنزعة التوحيدية والانسجام مع التاريخ تنتصب كدين طبيعي تستند إلى الخلفية الأسطورية* . وبناء عليه لا نستغرب قراءة Stählin : *الأسطورة مقولة وثنية* . *وهي مهمة بائسة إن لم تكن مستحيلة ، وحتي إذا كانت التوراة قادرة على خلق ميثولوجيتها فالظروف لم تكن لتؤهلها على التطور* .

لكن كيف يمكن فهم وتسويغ المصطلحات الاشراكية (الإلحادية) في مجال الإيمان بالله ، فآلهة متعددة عبدت في العهد القديم ، ألا يشكل ذلك جوهر الفكر التوراتي الاشراكي[1] ؟

هناك أفكار وآراء حول الفكرة الأسطورية التوراتية المسماة العهد (المعقود بين يهوه وشعبه المختار) الذي قطعه يهوه على نفسه بأخذ جانب «شعبه المختار » . وقد درس هذه الفكرة بعمق R. von Rad حيث أرجعها إلى تقاليد تاريخية معروفة وممارسة قبل الفترة الزمنية التي قد يكون عاشها موسى والموسويون؛ فأسفار العهد القديم تشير أن الإله (يهوه) أو السيد قدم من سيناء إلى فلسطين (القضاه ٥ : ٤ ـ ٥) تنفيذاً للعهد ، أو هي تطبيق عملي لفكرة العهد. لكن التاريخ يؤكد وجود عناصر أساسية لعهود سابقة في فلسطين . بل إن G.Mendenhall أشار إلى العهد الحثي الذي أعطاه الملوك إلى رعاياهم ، وبذلك يكون العهد التوراتي له أصوله أيضاً ليس عند الحثيين فقط بل نجدها من خلال العلاقات في Alalkh حيث دللت الآثار على وجود عهدين سابقين على عهد التوراة) : الأول بين إر ـ إم Ir - Im من Tunip وبين نيكمبا Niqmepa من

---

(1) Ibid

والثاني بين أبان Aban وبين ؤريم ـ ليـم Irim - lim . وإزاء وجود هذه Alalakh المواثيق القديمة ألا يحتمل أن يكون العهد التوراتي مقتبساً أيضاً [١] ؟ . بل إن joseph Offord اعتبر أن العهد القديم وليد الكتابات المسمارية التي تعود إلى ما قبل ولادة إبراهيم .[٢]

فمنظومات القوانين التي تتضمنها لوائح شعوب عدة ، ومنها شريعة حمورابي ، وهي أقدم من موسى بحوالي ألف سنة [٣] تشير إلى أن كتبة العهد القديم جمعوا شريعتهم ونظموها من خلال حضارة الآخرين السابقة ، وهكذا فإن دراسة أديان شعوب المنطقة تعطي مؤشراً على أن هؤلاء الكتاب قد ضمنوها في أسفار التوراه . وهذا ما يسمى بالأصل التاريخي لكل دين .

اعتماداً على (ارميا ١٨) [٤] هناك ثلاثة ينابيع للمصادر الإلهية : كلمة النبي ، ونصيحة الحكيم ، ووصية الكاهن . الأول يتعامل مع القضايا الأخلاقية والاجتماعية والثاني هو المرشد الفعلي في الحياة ، والثالث يحقق الطقوس الدينية الرسمية الضرورية . ومواعظ عاموس ، كتاب الأمثال ، كتاب اللاويين توضيح نموذجي على هذا التعاقب . والينبوع الأول وثيق الصلة بفكرة الوحي . ومن المؤكد أن دراسة عدة أحقاب تاريخية ستلقي الأضواء . على ما يسمى البُشرى النبوية . فمعلوماتنا المبكرة عن الأنبياء تشير بالإجمال إلى أنهم كانوا يعيشون وضعاً دينياً مشتركاً أو اجتماعياً مع الآخرين . هذه السمة الإيمانية كانت عامة ومشابهة لتجمعات الآلهة عند أمم المنطقة وبالذات عند الفينيقيين ، إضافة إلى أن الديانة اليهودية ـ كما هو الحال عند الفينقيين ـ اعتمدت على سلوكيات الدروشة ، التي تشبه الهوس كأساس لاستثارة الوحي الديني ، وربما تكون « نوبة » توظف كعامل سيكولوجي هام [٥].

---

(1) Raphael Giveon P. E Q July - Dec 1961 . P. 143 - 145
(2) Joseph Offord , P. E.Q January 1919 P. 39
(3) William Frederic Bade , University of California Cronical Vol 13 No 1 P.6
(4) Ibid
(5) Ibid

كانت حالات الهوس الديني السيكولوجي تحترم كحالة من النوبات الروحية في وقت لم يكن من شخص يثير التساؤل حول النبوة الأصيلة ، ربما بسبب استعداد الناس لتقبل الإيحاء المستمر . وبسبب نوبات الدروشة في الزمن الروحي تفقد الثقافات قدرتها على إشباع المتطلبات الروحية ويصبح للرؤى والأحلام معان إلهية إلهامية ، وغالباً ما تبدأ بها نشوة النبوة ، والتجربة تشير أن بدايات الدين لم تشترط هدم المغروس في النفس كلياً . ومن المعتقد أن التجربة الشخصية لعبت دوراً في نقل الأوامر الإلهية ، لكنها لم تصل إلى معرفة كنه الذات الإلهية أو الوصول إلى نقطة تتلامس مع إدراك ماهية الله المنظم للكون نتيجة تشوش فاعلية الاستدلال المنطقي ، وبذلك يتم الولوج إلى الدائرة الخرافية المغرقة وغير المبررة .

ثمة حقيقة لا بد من التسليم بها ، وهي جديرة بالملاحظة ، ونتاج طبيعي لتطور حالة الوعي عند كُتّاب العهد القديم . وهي التنازل عن التمييز بين الإنساني والإلهي ، والتي يلعب الإلهي فيها المركز الروحي ، لكن يظل الكتاب المتأخرون للتوراة غير قادرين على سبر الهوة المتناقضة في المفاهيم والعقائد وحتى الشعائر الدينية التي يستدل فيها عدم واقعية « التطور » الفكري لليهودية . وليس التاريخ اليهودي سوى تلفيق أصبح مكشوفاً مع الحركة الآثارية النشطة التي تعم منطقة الشرق الأدنى ، بل العالم ، وإزاء ذلك يمكن القول أن المنحى الفكري الوحيد الذي أجاده كُتّاب العهد القديم هو طمس الحقائق التاريخية الموضوعية ، والخروج بتاريخ يلعب الذاتي فيه دوراً أساسياً في سياق الأحداث أو ترتيبها وحتى في اختراعها وكما في الروايات الحديثة حيث يجري تطويع الشخوص والأحداث وأحياناً المنطق في إطار الحبكة الروائية ؛ فإن كتّاب العهد القديم قد سلكوا نفس السبيل . (فعزرا) على سبيل المثال لعب دوراً مهماً جداً في كتابة سفري عاموس وإرميا ، وعاموس وارميا شخصيتان اسطوريتان وظفهما عزرا لرسم هيكلية الديانة اليهودية ، وهذان السفران قد يكونان نواة الديانة اليهودية المتطورة أو جوهرها وربما يكونان أول أسفار التوراه التي كتبت

في فترة السبي البابلي . وعزرا - إضافة لأنبياء السبي - كان يطمح إلى تحقيق هدف سياسي ، فكان لا بد له من ربط اطروحاته الدينية بالتاريخ الأمر الذي اقتضى كتابة الأسفار التي لها الطابع التاريخي : التكوين ، الخروج ، اللاويين ، العدد ، التثنية ، يشوع ، القضاه ، صموئيل ، الملوك . فعبادة (يهوه) التي أول من عرفها القبائل العربية الشمالية[1] كانت تتمركز في جبل سيناء ، ويتميز يهوه - بحكم الطبيعة - بالقسوة والجبروت ، وقد عرفت هذه العبادة قبل مجيء الموسويين بآلاف السنين ، فلماذا اختار كتّاب العهد القديم هذا الإله دون غيره ليكون إلهاً لأتباع الديانة اليهودية فقط دون الجنس البشري كافة ؟ قد يكون الخيار محكوماً بسببين : الأول سيكولوجي تؤطره ظروف السبي الداعية إلى حالة تمرد ميتافيزيقي ، فكان يهوه ممثلاً هذا الاتجاه . والسبب الآخر تاريخي لربط الحلقات ببعضها . . (فيهوه) هو إله سيناء ، وسيناء تقع بين مصر وفلسطين . لكن مع ذلك لم يدرك كُتّاب التوراة إلاّ لاحقاً أن إلهاً يقصر اهتمامه على مجموعة من البشر أو منطقة محددة من العالم ينبش قبره بيده ويكون صانع فنائه ، لذا حصل تغيير جوهري على بنية هذا الإله ليتواءم مع التطور إبان فترة تنظيم الأطر العقلية لهذه الديانة .

والتوراة هي المصدر الوحيد في معرفة أخلاق شخوص مثل ابراهيم ، يعقوب ، موسى ، صموئيل ، داود ، وغيرهم . ففي (التكوين ١١ ، ١٢) ظهر إبراهيم بشخصية مختلفة ، فقد كذب وكاد يورط شرف زوجته بايحاء أو أمر مباشر من الإله يهوه . فالمخادعة أدت إلى فوائد حققها من الفرعون . وهذا يشّير أن أتباع يهوه يتمتعون بحصانة « إيمانية مقدّسة » تنأى بهم عن أي الزام خلقي . وهو نفس الموقف اللاعقلاني المنسوب إلى يهوه ، حيث قدم المساعدة إلى ابراهيم في مواجهة ابيمالك (التكوين ٢٠) فكان موقفاً لاأخلاقياً بسقطة دفاعية انتهازية . وبذلك أوقع الراوي العدل في الكذب لتجنّب الضرر ، وهذا موقف ظالم لكنه مبرر مع « الأغيار » . كما ورد في فكر عزرا والمنسوب

(1) William Frederic Bade , University of California Cronical Vol 13 No 1

إلى عاموس تصوير يهوه بوحشية مطلقة ، فكانت المقاييس العقلية هنا مشروطة بقرارات بها خلل أخلاقي أثناء التعامل مع الإله ، تجسّد في قانون العبودية وتعدد الأزواج والأخلاق الجنسية البدائية . إنّ الانحراف الكبير في الأخلاق التوراتية توضحه قصة الخداع التي مارسها يعقوب مع أبيه الأعمى ، حيث استطاع ـ أي يعقوب ـ سرقة المسح (المباركة) التي كانت لأخيه عيسو ، ساعده في ذلك أيضاً الإله يهوه . وعلى نفس المبدأ استعار الموسويون حاجيات المصريين وهربوا بها . وذلك الإله الذي طلب من ابراهيم التضحية بابنه ، لأنه كان يظن أن عملاً كهذا ضروري لحماية نفسه من الطاعون أو الجفاف والمجاعة أو الوحوش البرية المفترسة التي كان يرسلها إليه يهوه نفسه إليه كعقاب ، أو انتقام من أعمال تافهة أو نتيجة تلطخ طهارته الجسدية ، هو إله عديم الكفاية العقلية . وعلى ضوء هذه الحقيقة الاصطفائية نستطيع فهم «عدالة» يهوه في وقت تنسب إليه الأعمال الشريرة ، وغير العادلة . وهي صورة مكشوفة تعبّر عن مكنون مخترع هذا الإله ، إنه هو ، وليس الله ، فأخلاقه وسلوكه يلزمها الربط المنطقي وهي أخلاق وسلوك نبتت في تربة السبي .

رسم عزرا على لسان عاموس الحدود بين الشرعي وغير الشرعي لكن ظل العدل غير مدرك ، وللمفاضلة العقلية فإن الجدارة الداخلية بدأت الحلول محل المكاسب الخارجية ، لذا كانت القسوة والحديّة في مواجهة الأخطاء الخطيرة وظهر يهوه لا إنساني في عدله والعبادة بالنسبة له « عماء للعيون » ومحاولة لرشوة العدالة . ومع ديمومة هذه السمات في يهوه إلاّ أنه في مرحلة لاحقة من تطور فكر عزرا أعطي مهمات أوسع اتسمت بالأممية ، وذلك كنتيجة حتمية لبدء حركة انتشار الدين اليهودي في منطقة السبي وما حولها .

النقطة الحاسمة « لأنبياء » السبي أنهم عقلنوا وهذّبوا السلوك الهمجي لمن أطلق عليهم أنبياء قبل السبي ليكتمل بذلك المنهج ، ولسبر الهوة التاريخية صارخة الوضوح في التاريخ اليهودي .

لقد حصلت تغييرات أساسية ، مع مرور الزمن ، في بنية اسفار التوراة كما

اتسعت وتشعّبت التفسيرات التحليلية ، فاكتملت الصورة بكل تفاصيلها . وفي البدء كان التغيير قليل الأهمية ، وأحياناً لم يكن بالإمكان معرفة كنه التغييرات ، ومع ذلك لوحظ التطور الذي طرأ على أسماء الآلهة (الألوهيم)[١] ؛ فقد تغير اسم (الوهيم) في أسفار التوراة ، فأحياناً يكون فيها (الله) وأحياناً (الوهيم) ، كما استعملت أسماء أخرى مثل ايل ، ايل - عليون ، سداي ، ايل - شداي ، إله ، بعل . . الخ[٢] . وكان هذا تقليداً لتطور إسم الآله عند الأمم الأخرى ، فقد كان البابليون قد طوروا إلههم ايلو Ilu أي ايل ، كذلك تقرأ في الآرامية اسم ايليم والذي أصبح في الديانة اليهودية ايلوهيم . وظاهرة التطور هذه شملت المصريين والأكديين بل إن جميع الأمم غيّرت في بنية الهتها .

إن فكرة الله القائمة على فكرة الإله إيل هو نتاج جهد الأنبياء ، لقد كان ايل منبع الحكمة في التوراة ، في محاولة لتبرئة العهد القديم من معتقدات الأمم الأخرى ، فعلى سبيل المثال امتدح كتبةُ سفر أيوب والجامعة والمزامير الإله ايل باعتباره إلهاً أممياً : مما يَسّر على أمم كثيرة الاشتراك في عبادة الإسم العظيم الوهيم[٣] ، مع أن الإله إيل هو أحد الآلهة المعبودة في بلاد وادي الرافدين وبلاد الشام قبل ولادة ابراهيم الخليل .

لقد ثبت لدى مصادر نقدية متعددة أن التوراه ، ربما أكثر من أي كتاب آخر ، هو نتاج جهد مشترك . إنه خلاصة عدة ثقافات ، وحصيلة مستمرة لثقافات متطورة .[٤] فالأساطير المذكورة في العهد القديم غير متجانسة مما يدل على تنوع مصادرها واختلاف مبدعيها وتمايز بيئاتها الجغرافية والاجتماعية ، وإذا كانت تعتبر قديماً وليدة التاريخ اليهودي ، فإن علم الآثار الحديث بدأ يكشف النقاب عن أسرار هذه الأساطير التي تمثّل صورة التفكير

---

(1) M. D. Cassuto , The Doycumentary Hypthesis And The Composition of The pentateuch P. 16.
(2) Ibid
(3) Ibid
(4) Richard Eliott Friedman , NearEast Studies Vol 23 P. 20

لدى شعوب وادي الرافدين ومصر وبلاد الشام ، وتدلل المكتشفات الآثارية على ضعف ووهن وانهيار الحجج التاريخية التي تبناها كتّاب العهد القديم ، الأمر الذي جعل الكثيرين يعيدون النظر في إعادة كتابة التاريخ يكون لعلم الآثار دور أكثر أهمية في رسم الخطوط الموضوعية لهذه الكتابة .

ومما لا شك فيه أن كثيراً من المقولات والمفاهيم أصبحت بتأثير التوراة «مُسَلّمات» لفترة زمنية طويلة ، رغم وضوح الخطأ ، سواء أكان هذا الخطأ تاريخياً أو منطقياً أو جغرافياً . وظل كثير من الباحثين يدورون حولها أو يعالجونها بخجل إذا لم يجندوا أنفسهم لتبريرها أو الارتكاز عليها في بناء نظرياتهم ووجهات نظرهم. ومن هذه الأخطاء :

أولاً : مقولة الجنس السامي الواردة في التوراة (سفر التكوين ١٠) والتي أشاعها المستشرق الألماني شولتزر Schloezer أثناء أبحاثه في تاريخ الأمم عام ١٧٨١ ، نسبة إلى سام بن نوح . هذه التسمية لم تغير رغم تناقض دلالاتها ومضامينها ، ورغم اعتراض بعض الباحثين. فالعلاّمة الألماني نولدكه Noeldke قال في كتابه « اللغات السامية» : تدرج التوراه شعوباً في قائمة الساميين كالعيلاميين والليديين رغم اختلافهم وتقصي شعوباً كالكنعانيين رغم توافقهم . ومما يلفت النظر أن اللغة الكنعانية القديمة اعتبرت لدي كثير من الباحثين اللغة العبرية سيراً على ما طرحه المؤرخون والباحثون التوراتيون . وقد أرجع العالم بروكلمان Brochelman سبب إقصاء الكنعانيين إلى عداء كتّاب التوراه للكنعانيين [1] .

ثانياً : يتفق الباحثون التوراتيون على أن القرن التاسع عشر قبل الميلاد هو العصر الذي عاش فيه ابراهيم ، بينما لم تحمل أرض كنعان اسم فلسطين إلاّ بعد مجيء شعب الفلسطينيين إليها في القرن الحادي

---

(١) إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ص ٣ .

عشر ق.م . ومع ذلك تقول التوراة (التكوين ٢١ : ٣٤) : «وتغرب ابراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة» . كما يسمى أبيمالك ملك الفلسطينيين (تكوين ٢٦ : ١) ، فكيف تأتي التوراة على ذكر غربة ابراهيم في أرض الفلسطينيين بل وتذكر اسم أحد ملوك الفلسطينيين مع أنه قد سبق وجودهم بحوالي ٨٠٠ سنة ؟!

ثالثاً : لم يرد باللوائح العراقية والمصرية إطلاقاً إسم مملكة إسرائيل ، وهذا دليل صارخ على عدم وجودها - كمملكة - . كما لم تطلق الحوليات الأشورية والبابلية والمكتشفات المصرية صفة ملك على حكام السامرة .

رابعاً : ورد في سفر التكوين (١٢ : ١٦ ، ٢٤ : ١٠ ، ٣٠ : ٤٣ ، ٣٢ : ٧) ان ابراهيم ويعقوب اقتنيا وركبا الجمال ، فإذا كان وجودهما في القرن التاسع عشر ق.م فإن ذلك يدلل على وجود مفارقة تاريخية ، لأن الجمال لم تدجن إلاّ في القرن الثاني عشر ق.م ، أي أن تدجين الجمال تم بعد ابراهيم بحوالي ٧٠٠ سنة ، فكيف اقتناها وركبها إذا لم تكن قد دجنت بعد[1] ؟

خامساً : جاء في سفر أيوب (١ : ١-٣) أن عوص منطقة تقع جنوب فلسطين ، ويشير السفر إلى أنها تقع قرب بلاد الكلدانيين[2] ثم يقول أنها تقع شرقاً . . فكيف هي في بلاد الكلدانيين (العراق) وكيف تقع شرقاً وفلسطين غرب وادي الرافدين ؟!

سادساً : استنتج العلماء تاريخ الطوفان التوراتي من خلال لائحة الأمم الواردة في التوراة وحددوا هذا الحدث عام ٢٥٠١[3] ق.م . بينما الدراسات الجغرافية والآثارية تؤكد وجود طوفان كبير حدث

---

(1) O. Eissfeldt , The Cambridge Ancient History Vol 2 1965 P. 6
(2) G.A. Frank Knight , Nile and Jordan P. 281
(3)Merill . F. Unger , Archaeoliogy And The Old Testament 1954 P 102

جنوب العراق يعود إلى ٤٠٠٠ ق.م ومذكور أيضاً في المصادر السومرية .

سابعاً : جاء في سفر التكوين (١١ : ٣١) أن ابراهيم خرج من أور الكلدانيين . وأور مدينة سومرية ترقى إلى الألف الثالث ق.م ولم يرد اسمها أور ـ الكلدانيين إلاّ بعد ظهور الكلدانيين في القرن السابع ق.م وهذا يعني أن سفر التكوين كتب بعد القرن السابع ق.م .

لا شك أن التناقضات الواردة في الكتاب المقدّس والطفيلية الفكرية للديانة اليهودية ، والتجميع العشوائي للعقائد وحشوها كتراث توراتي تتضمن في ذاتها بذرة موات اليهودية . ومع ذلك لم تتعرض هذه الديانة إلى الخطر ، بل إنها وفي ظروف كثيرة لعبت أدواراً مهمة في رسم أقدار مناطق مختلفة من العالم . . فهل تتمتع فعلاً بديناميكية فاعلة تؤهلها على الصمود أم هناك أسباب أخرى ؟

قد لا نكون مبالغين إذا قلنا أن الغير ـ اتباع الديانات الأخرى غير اليهودية ـ شكلوا الغلاف الخارجي الصلب الذي حمى الديانة اليهودية ، فدخول المفاهيم اليهودية في صلب البنى الإيمانية لتلك الديانات أصبح الخط الأمامي لجبهة القتال اليهودية . . فإذا نقد ناقد مسيحي على سبيل المثال منهجاً أو سلوكاً أو فكراً يهودياً فإنه سيجد الاف المسيحيين يقفون في وجهه ، وكذا الحال بالنسبة للمسلمين . وهكذا أصبح المسيحيون والمسلمون المدافعين بحماس عن اليهودية سواء مباشرة أو غير مباشرة .

الفصل الأول

الموجات البشرية والهجرات

يسمي كثير من الباحثين والمؤرخين الموجات التي اجتاحت بلاد وادي الرافدين وسورية على فترات زمنية بالموجات « السامية » سيراً على ما طرحه الباحث الألماني شولتزر عام ١٧٨١ مستنداً إلى لوائح الأمم التوراتية ، وهذه الموجات هي محور دراستنا مقابل موجات لن نتعرض لها - الآن - ومنها الموجات الهندو - أوروبية .

ارتأى البعض إطلاق إسم الهجرات الجزرية على تلك الموجات على اعتبار أن موطنها الأول هو الجزيرة العربية ، وقد أيد عدد من الباحثين الغربيين موطنهم - الأول . . هذا واعتبروا منطقة نجد هي الدافع لتلك الهجرات ، ومن هؤلاء الباحثين A. Sprenger , Ebrhard Schrader , De. Goeje , Hurbert Carl Brockelmann , L W. king , John Meyers, S.A. Kook Grimme ,

أما (فلبي) فقد اعتبر الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للهجرات ، فاليمن - برأي فلبي - هي مهد العرب ، منها انطلقت الموجات البشرية إلى سائر الأنحاء .

وسواء كانت نجد أو اليمن هي نقطة انطلاق الهجرات فإنهما جزءان من جزيرة العرب التي تفرض الطبيعة عليها نمطاً محدداً من العيش بين بحار وصحراء تحيط بها ، الأمر الذي يفرض على سكانها عيشاً وحياة تخلو من التعقيد الاجتماعي أو التمايز ، بل إن انصهار الفوارق يبدو سهلاً في أجواء هذه الجزيرة ، ويؤكد ذلك السمات المشتركة بين الهجرات على مدى عدة آلاف من السنين بين الهجرة الأولى والأخيرة . ومن السمات المشتركة :

أولاً : دليل اللغة : تتميز لغة هذه القبائل أنها من جذر واحد . فالأكديه (ومنها البابلية والأشورية) والعمورية (الكنعانية - الفينيقية) والأرامية والعربية الحديثة تعتبر لهجات للغة واحدة ، والاختلاف بينها فرضته ظروف الهجرات وتباعد القبائل واختلاطها بأجناس مختلفة من البشر . وأهم نواحي التشابه : وجود فعل ثلاثي كمصدر أساسي ، ووجود زمنين للفعل - الماضي والمضارع - والتشابه في الضمائر والأسماء الدالة على القرابة والأعداد وأعضاء الجسم الرئيسية .

ثانياً : الدليل الديني : تتقارب المفاهيم بين هذه القبائل وتتطابق في أحيان كثيرة . . فالعبادات في وادي الرافدين تشابه العبادات في كنعان وشمال سوريا ، بل إن الآلهة نفسها عبدت في هذه المناطق، فالإله بعل ، ايل ، تموز عبدها الأكديون والعموريون والبابليون والأشوريون والكنعانيون والآراميون .

ثالثاً : أكّدت الأبحاث الأنثروبولوجية على وجود سمات جسمية مشتركة للقبائل المهاجرة من جزيرة العرب بينما الاختلاف واضحاً بينها وبين الحثيين أو السومريين، مما يؤكد على وحدة العرق عند هذه القبائل .

إضافة إلى ذلك فإن هذه الموجات كانت متداخلة ، فالأكديون هم (الأشوريون والبابليون لاحقاً) لكن العموريين شكلوا ما يسمى بأسرة بابل التي برز منها حمورابي . والعموريون هم حالة واحدة مع الكنعانيين . وليس من تمايز بين الكنعانيين والآراميين . . ومن الآراميين فرع شكل الدولة الكلدانية في بابل في القرن السابع ق . م، وهناك قربى قوية بين العربية الحديثة والآرامية .

إذن ولأسباب موضوعية سنطلق على الموجات التي خرجت من جزيرة العرب اسم الموجات العربية القديمة، وسنستعمل هذا المصطلح كلما اقتضى الأمر .

الأكديون :

خرجت مجموعات من القبائل العربية القديمة من جزيرة العرب نحو الشمال الشرقي بحدود الألف الرابع قبل الميلاد ، وتوزعت بين السكان السومريين في بلاد الرافدين . وبذلك بدأ تاريخ الأكديين الذين عرفوا في التاريخ تالياً باسم البابليين والأشوريين . وقد أسس ملكهم (سرجون الأكدي) دولة قوية حكمت الشرق الأدنى ، وقد استمر دور الأكديين حتى القرن الثامن عشر ق . م بدخول العموريين (الأموريين) إلى البلاد قادمين من الجنوب والجنوب الغربي ، أي من الجزيرة العربية عن طريق سورية فانتشرت في بلاد وادي الرافدين .

سكن الأكديون جنباً إلى جنب مع السومريين وأنشأوا مدينتهم التي تحمل اسم « مات شوميريم » أي بلاد السومريين . مع أن بعض الباحثين من يذهب إلى أن السومريين قوم أجانب نزحوا إلى العراق من الشرق أو الشمال الشرقي في منتصف الألف الرابع ق . م .[١]

اتسمت عصور فجر السلالات (٦٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق . م) بقيام دويلات المدن . وقد انتهى هذا العصر بقضاء سرجون الأكدي (٢٣٥٠ ق . م) على ذلك النظام وتكوين مملكة واحدة .

يقسم العهد الأشوري إلى ثلاث مراحل : العهد الأشوري القديم والوسيط والحديث . وكان ملوك العهد الأشوري القديم ، وكما يذكر ثبت الملوك ، سبعة عشر ملكاً كانوا يعيشون في الخيام ثم دانوا للحكم الأكدي . أما

(١) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات ، القسم الأول ص ٩٠

العهد الأشوري الوسيط فيبدأ من نهاية مملكة بابل الأولى (١٥٩٤ ق . م) وينتهي بداية القرن التاسع ق . م، وقد انتعشت الدولة الأشورية الوسطى زمن أشور أوبلط (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق . م) وشلمنصر الأول (١٢٧٤ - ١٢٤٥ ق . م) وتوكولتي ننورتا (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق . م) وتجلات بلاسر الأول (١١١٥ - ١٠٧٧ ق . م). أما العهد الأشوري الحديث فقد انتهى بسقوط نينوى ٦١٢ ق . م . ويقسم هذا العهد إلى دورين : الأول ومن أشهر ملوكه ادد نيراري الثاني (٩١٢ - ٨٩١ ق . م) توكولتي ننورتا الثاني ، اشور ناصر بال الثاني (٨٨٤ - ٨٥٨ ق . م) وشلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق . م) و إدد نيراري الثالث (٨١١ - ٧٨١ ق . م). الدور الثاني ؛ ومن أشهر ملوكه تجلات بلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق . م) وسرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق . م) ، وسنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١ ق . م)، اسرحدون (٦٨١ - ٦٦٩ ق . م) ، أشور بانيبال (٦٦٩ - ٦٢٩ ق . م).

ولما ظهر في بلاد بابل الأمير الكلداني (نبو بولصر) أسس فيها سلالة جديدة مستقلة عام ٦٢٦ ق . م . عرفت بالسلالة البابلية الأخيرة أو المملكة الكلدانية . ثم استطاع تقويض حكم نينوى بعد تحالفه مع الميذيين . ومن أهم ملوك الدولة الكلدانية أو العهد البابلي الأخير إضافة إلى نبو بولصر ، الملك نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٩٢ ق . م) .

العصر البابلي القديم أو الأكديون (البابليون) يتميز بعدة سلالات منها سلالة ايسن ، وتعرف بقايا مدينة ايسن اليوم بتل ايشان البحريات ، والتي تبعد حوالي عشرين كيلو متراً جنوب عفك شرق مدينة الديوانية . وكذلك سلالة لارسة ، وتعرف اليوم باسم سنكره ، وتقع على بعد سبعين كيلومتواً شمال غرب الناصرية . وقد تميزت هاتان السلالتان بتطابقهما اللغوي والاجتماعي والعرقي مع البابليين الأمر الذي جعل الباحثين يطلقون عليهم العصر البابلي القديم رغم أنهم لم يسكنوا بابل . وقد أمتد هذا العهد من ٢٠١٧ - ١٧٩٤ ق . م .

سلالة بابل الأولى (١٨٩٤ - ١٥٩٤ ق . م) وتعرف أيضاً بالسلالة

الأمورية (العمورية) وحكمها أحد عشر ملكاً حوالي ثلاثة قرون . وقد بلغت حضارة العراق في هذه الفترة أوج عظمتها وازدهارها وعمت اللغة البابلية تكلماً وكتابة بلاد الشرق الأدنى قاطبة ، وارتقت العلوم والمعارف واتسعت التجارة وكانت البلاد تحكمها إدارة مركزية وقانون موحد سنه حمورابي (الملك السادس في هذه السلالة) .

وبعد موت نبوخذ نصر (العهد البابلي الأخير) اعتلى السلطة ملوك ضعاف فاحتل كورش الفارسي بابل سنة ٥٣٩ ق . م .

وكان الفرس الأخمينيون تابعين بداية أمرهم إلى الملوك الميذيين حكام شمالي ايران وقد ثار زعيمهم المدعو كورش الأخميني على سيده الماذي (استياكس) وجهز حملة فتح بلاد الميذيين ، ثم توجه إلى بابل ، مستغلاً ضعف ملوكها واحتلها سنة ٥٣٩ ق . م . واستمر كورش بفتوحاته حتى وصل إلى بلاد الشام . وبعد وفاته تسلّم الحكم ابنه قمبيز فأكمل الفتح حتى البحر المتوسط ثم ضم مصر أيضاً . ثم تبعه ملوك أشهرهم : دارا الأول (درياوش) (٥٢١ـ٤٨٦ ق . م) ثم غدت المنطقة مسرحاً لحروب متواصلة بين الفرس والإغريق حتى ظهور الاسكندر المقدوني الذي قضى على الدولة الإخمينية .

تسلّم الإسكندر المقدوني الحكم من أبيه فيليب (٣٣٤ـ٣٢١ ق . م) وزحف إلى سواحل آسيا الصغرى عام ٣٣٤ ق . م فاندحر الملك الفارسي دارا الثالث في موقعة (ايسوس) ثم فتح سواحل فينيقيا وفلسطين ونزل إلى مصر عام ٣٣٢ ق . م ثم عرج إلى بلاد وادي الرافدين عن طريق دير الزور وأعالي دجلة ثم الحدود نحو (كوكميلا) قرب اربيل ودارت معركة بين اليونان والفرس بقيادة دارا حيث لاذ الفرس بالفرار وتقدّم الاسكندر حتى احتل بابل عام ٣٣١ ق . م ثم زحف شرقاً واحتل عاصمة الإخمينيين . وفي عام ٣٢١ ق . م مرض الاسكندر ومات قرب بابل . ثم تنازع قواده على خلافته وأدى ذلك إلى تقسيم هذه الامبراطورية الشاسعة وصارت بلاد الرافدين وإيران من حصة سلوقس الذي استولى على بلاد الشام أيضاً . بينما حكم مصر البطالمة .

حكم السلوقيون العراق من ٣١٢-١٣٩ ق.م واستمر حكمهم لبلاد الشام حتى سنة ٦٤ ق.م . وقد حكم ثمانية عشر ملكاً أكثرهم يحمل اسم انطيوخوس أو سلوقس . ثم ظهر الفرثيون في إيران وتمكنوا من احتلال العراق وطرد انطيوخس السابع عام ١٣٩ ق.م فانحصر حكم السلوقيين في بلاد الشام فقط . وكانت روما تطمع ببلاد الشرق ، فبعد أن استولت جيوشها على مصر تقدّمت نحو سورية وفتحتها زمن انطيوخس التاسع عام ٩٥ ق.م ثم تعاقب حكام سلوقيون ضعاف في الشمال حتى انتهى حكمهم سنة ٦٤ ق.م . وقد شهدت معظم الفترة التي حكمها الفرثيون حروباً مع الرومان مما تسبب في إضعافهم ؛ فاستطاع (اردشير) الفارسي الساساني القضاء على ارطبان الخامس الملك الفرثي وشكل السلالة الفارسية الساسانية .

ومن أشهر الملوك الساسانيين اردشير بن بابك بن ساسان (٢٢٩-٢٤١ م)، سابور الأول ٢٤١-٢٧٢م ، سابور الثاني ٣١٠-٣٧٩م ، كسرى الأول (أنو شروان) ٥٣١-٥٧٩م ، كسرى الثاني (ابرويز) ٥٩٠-٦٢٨م ، يزدجرد الثالث ٦٣١-٦٥١م حيث قضى العرب على ملكه .

الأموريون (العموريون)

بعد الهجرة الأولى بنحو ألف سنة حصلت هجرة أخرى من الجزيرة العربية ودفعت بالأموريين (العموريين) ، فانتشروا في سهول سورية الشمالية ، وشملت هذه الهجرة الشعب المعروف باسم الكنعانيين والذين سماهم اليونان الفينيقيين .

يعتبر العموريون أول الجماعات العربية القديمة التي سكنت في البلاد السورية وأقامت فيها ، وقد أطلق عليهم جيرانهم في الشرق (السومريون) اسم الأموريين والكلمة تعني بالسومرية الغربيين - أي الساكنين غرباً - وقد اتخذ الأموريون مدينة (ماري) في شمال سورية والواقعة جنوب مصب الخابور عاصمة لهم .

ظهرت أول إشارة موثقة إلى الأموريين منذ عصر سرجون الأكدي ٢٣٥٠ ق.م . ولم يقتصر الأموريون على تأسيس دولة في منطقة الفرات الأوسط واجتياح سوريا وإنما اجتاحوا بلاد ما بين النهرين أيضاً وحكموها وأسسوا عدة سلالات من أشور في الشمال حتى لارسة في الجنوب بين ٢١٠٠ - ١٨٠٠ ق.م وأهم هذه السلالات كانت سلالة بابل الأولى التي انتسب إليها حمورابي نحو ١٧٠٠ ق.م . وحمورابي نفسه الذي احتل (ماري) وضمها إلى امبراطوريته البابلية .[1]

وقد أدى القضاء على سلطة الأموريين إلى إنهاء دور مدينة (ماري) ودخولها عالم النسيان إلى أن تم التنقيب في الموقع المسمى (تل

(١) فيليب حتي تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ترجمة جورج حداد ص ٧٢

الحريري)[1] واتضح أنه ماري القديمة وكانت الاكتشافات التي عثر عليها من أهم منجزات أعمال التنقيب في العصور الحديثة فقد تضمنت أكثر من ٢٠ر٠٠٠ لوح مسماري ، وكانت اللغة في غالبيتها أكدية غير أن المفردات لا تترك مجالاً للشك بأن الذين كتبوا تلك الألواح تكلموا اللهجة الأمورية . وتمثل الألواح محفوظات زمري ـ ليم (١٧٣٠ ـ ١٧٠٠ ق . م) وهو آخر ملوك ماري والذي قضى حمورابي على دولته . وحضارة الأموريين كما تعكسها اللغة التي كتبوها كانت مزيجاً من الأمورية والبابلية . وقد ورد في الواح ماري أسماء عدة مدن منها : حَلَبو (حلب) وجُبله (جبيل) وقطنه (وهي اليوم المشرفه شمال شرق حمص) وحرانو (حران) كإمارات أمورية .

كان المسرح الرئيس للأموريين في شمال سوريا ، وبعد منتصف الألف الثاني ق . م بقرن تحول مركز الثقل إلى سوريا الوسطى ، حيث ظل الأموريون يلعبون الدور المهم ، وفي هذه المرحلة أخذت مصر في توسعها واحتلت قسماً كبيراً من سوريا أثناء حكم تحتمس وكانت هناك دولة عظيمة ومنافسة لمصر شمالاً هي دولة الحثيين وبين هاتين الدولتين انحصرت الدولة أو الدول الأمورية في سوريا الوسطى .

نتيجة انكفاء اخناتون (امنحوتب الرابع) فرعون مصر على ثورته الدينية وتراخي حكمه في بلاد الشام برزت بعض الإمارات الأمورية التي سرعان ما قضى عليها الفراعنة الذين أعقبوا أخناتون .

وقد اتخذت السلالة العمورية التي حكمت بابل هذه المدينة عاصمة لها ولذلك سموا بالبابليين ، ونتيجة هذه العلاقة ذات الاتجاهين انتقلت من بابل إلى سوريا عناصر الفن البابلي والكتابة الأكدية [2] .

والكنعانيون هم أحد الأجنحة الأمورية ، والتي شكّلت هجرة كبرى واحدة . واللهجة الكنعانية والأمورية هي لهجة واحدة ذات شعبتين ، الكنعانية

(1) Andre Parrot , Syria Vol 18 P. 329 - 354
(2) Sumer Vol III P. 93

الشرقية (الأمورية) والكنعانية الغربية (الفينيقية) . أما ديانتهم فكديانة الأقوام البدوية (العربية القديمة) تدور حول عبادة الظواهر الطبيعية وتشخيصها بهيئة آلهة ذات صفات بشرية ، كما أنهم اتخذوا بعض الآلهة الشهيرة من حضارة وادي الرافدين مثل الآلهة عشتار البابلية ، وكان الههم الخاص أمورو وزوجته (عشرتا) أو (أشيراتا) آلهة الحب والشهوة . ومع الإله أمورو آلهة أخرى جاءتنا أسماؤها من الآلهة الكنعانية ـ حيث حافظ الكنعانيون على الديانة الأمورية وعلى آلهتها ـ مثل حدد أو هدد إله المطر والزوابع ونفس هذا الإله عبد في بلاد الشام تحت اسم (بعل) ومن آلهة الأموريين أيضاً إله جاء اسمه عند الفينيقيين باسم (رشف) وسماه الأراميون (ريشوف) وهو إله له علاقة بالنار . وعبدوا أيضاً إلهاً مهماً دخلت عبادته وادي الرافدين هو الإله « داجون » وهو من الآلهة المتعلقة بالخصب والطعام . ويعزى إلى الأموريين أنهم هم الذين أدخلوا إلى سوريا الجنوبية عبادة نوعٍ من الأنصاب كانت بهيئة أعمدة من الحجر تنصب في مواضع معينة كالكهوف مَع مذبح من الحجر .

فالكنعانيون والأموريون موجة واحدة والاختلاف العرقي بينهم معدوم رغم أن أعداداً ـ غير مؤثرة ـ من العناصر السومرية والحورية والحثية اندمجت مع الكنعانيين الشرقيين (الأموريين) بينما اندمجت بعض العناصر اليبوسية والحثية بالأموريين الغربيين (الكنعانيين) . إضافة ـ إلى ذلك إن تأثير حضارة وادي الرافدين أثرت على الأموريين في شمال سوريا أكثر مما أثرت على الأموريين (الكنعانيين) جنوب سوريا . بينما الحضارة المصرية أثرت على الأموريين (الكنعانيين) في جنوب سوريا أكثر من تأثيرها على شمال سوريا .

أطلق إسم كنعان أول الأمر على الساحل وغربي فلسطين ثم عمّ الإسم على فلسطين وقسم كبير من سوريا (خارطة رقم ١) وقد أطلق اليونانيون عليهم اسم الفينيقيين . وتدل أسماء كثير من المواضع في فلسطين ولبنان على قدم استيطان الكنعانيين في هذا الجزء من البلاد ، حيث تشير أسماء كثيرة من المدن إلى أصلها الكنعاني ، ومن الأمثلة على ذلك مدينة أريحا التي يعني اسمها

الكنعاني « يريحو » مدينة القمر . ومدينة بيسان (بيت شان) أي بيت الإله شان ، وقد أبانت التحريات الآثارية أن هذه المدن الكنعانية قد أسست في حدود منتصف الألف الثالث ق . م ، وهناك أسماء مدن كنعانية يرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد مثل : عكا وصور وصيدا وجبيل .

إن الظروف التي حالت دون تنامي قوة الأموريين في شمال سوريا وجود قوتين كبيرتين (مصر ووادي الرافدين) هي نفسها التي حالت دون قيام دولة كنعانية قوية ، وظلّت دويلات المدن منتشرة في كنعان ، حيث كان مركز الدولة مدينة معينة ، ذات قلاع وحصون لصد أي عدوان . ومع ذلك ظلت هذه المدن عرضة للهجوم الخارجي ومما سهل ذلك أن هذه الدول كانت متنازعة فيما بينها ، وكانت المستوطنات الكنعانية أول أمرها منتشرة على طول الساحل من جبل الأقرع إلى جبل الكرمل جنوباً ، ثم اضطرت بعد ذلك إلى التمركز في سفوح لبنان مثل طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وفي الجنوب غزة وعسقلان وجازر [١] ومجدو وأورشليم [٢] فكانت كل مدينة تشكّل دولة بنفسها .

ومن الأموريين - بفرعيهم الشرقي والغربي - برزت مجموعات أخذت اسم الهكسوس : وهم الجماعات التي أطلق عليهم الفراعنة اسم « الملوك الرعاة » ، وقد حكم هؤلاء مصر مدة تجاوزت القرن والنصف حتى تم إخراجهم على يد أحمس ومعه بدأت سياسة مصرية جديدة تجاه بلاد الشام ، ونظراً لتعدد الآراء بالهكسوس وعلاقتهم مع من يسميهم الباحثون إسرائيليين فقد أفردنا لهم عنواناً خاصاً .

---

(١) وتعرف باسم آل الجزر جنوب شرقي الرملة

(٢) اسم المدينة من أصل كنعاني من (يرو - شالم) أو (يرو - شلم) وشالم أو شلم اسم إله كنعاني يعني السلام ، وله علاقة باسم الإله الأشوري (شلمانو) والذي يدخل في أسماء أعلام مهمة مثل (شلمنصر)و (شلمانو اشاريدو)

الآراميون

خرجت جماعة أخرى من بلاد العرب بين ١٥٠٠ ـ ١٢٠٠ ق . م عرفت باسم الآراميين ، وقد عرفوا بهذا الإسم أيام تجلات بلاسر الأول (١١٠٠ ق . م)[١] ، وتفيد المدونات الأشورية والبابلية أن قسماً كبيراً من بلاد الرافدين وسوريا الشمالية والوسطى قد اجتاحته قبائل قادمة من الجزيرة العربية في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق . م وأن هذه المناطق بدأت تتخذ صفة (أرامية) باستثناء جيوب حثية قليلة .

أهم مواطىء الأقدام التي أسسها الآراميون كانت في بلاد بين النهرين الشمالية وفي شمالي سوريا ووسطها وأخذوا يضغطون على الأموريين والجماعات الحورية والحثية في وادي العاصي وحلوا محلهم . وقد ورد اسم الأراميين في رسائل تل العمارنة ولا سيما في عهد أخناتون فمنهم جماعة جاء اسمها بصيغة « اخلموا » (أخلامو) ومعنى هذا الإسم الرفاق أو الأصحاب ولعل الأموريين هم الذين أطلقوا هذا الاسم على القبائل الأرامية . وقد اتصل بهم الأشوريون في العصر الأشوري الوسيط ، فيروي لنا أحد الملوك وهو (ادد ـ نراري) الأول (١٣٠٠ ق . م) أن والده غزا جموع الأخلامو في شمال ما بين النهرين (وقد ورد اسم بلاد الأراميين « مات ارمي » في مخطوطات أشورية أخرى من العصر الوسيط) ومن الأراميين فرع تغلغل إلى وادي الفرات الأسفل وعرف باسم كلدو (ومنهم الكلدانيون الذين أسسوا الامبراطورية البابلية الأخيرة) ولكن أهم الدويلات الأرامية دويلة « أرام ـ نهرايم » أي أرام النهرين

(1) G . H. Kraeling , Aram And Israel 1918

والمقصود بهذين النهرين الفرات ورافده الخابور وورد ذكرها في المصادر المسمارية باسم « نهارين » وقد اختفت حينما قضى الأشوريون على جميع الدويلات في هذا الإقليم . وقد اشتهرت دولة «آرام ـ دمشق » بسعتها وأهميتها وقد ذكرت في حوليات الفرعون رعمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٧) . كما ذكرت برسائل العمارنة بصيغة « دمشقا » بضم الدال .

بدأ الملك الأشوري توكولتي ننورتا الثاني (٨٨٩ ـ ٨٨٤ ق . م) في القرن التاسع ق . م التقدم باتجاه الأراميين ، فأزيلت الدول الأرامية تحت وطأة الضغوط الأشوريَة حتى سقطت آخر معاقلهم وهي دمشق عام ٧٣٢ ق . م . لكن انتهاء الدور السياسي الأرامي لم ينه التاريخ الأرامي ، بل هي البداية الثقافية الأرامية غرب آسيا ، وفي نهاية القرن الثامن ق . م أصبحت الآرامية لغة الشرق الأدني كما كانت الأكدية في العصور القديمة [1]. وكان الأراميون قد اقتبسوا الحروف الأبجدية من الفينيقيين ، وتعلموا من سكان مصر الكتابة بالحبر والقلم، فانتشرت كتاباتهم وتغلّبت على الكتابة المسمارية [2] .

إن تاريخ استيطان الأراميين والذي نشأ بفعل الهجرة إلى سوريا الشمالية في القرن الثاني عشر والحادي عشر ق . م قد شهد متغيرات كبيرة في توزيع القوى السياسية فحكم رعمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٧) ق . م يؤشر بداية انحطاط قوة المصريين في وقت بدأ الضعف التدريجي ينتاب الأشوريين بعد تجلات بلاسر الأول (١١١٣ ـ ١٠٧٤ ق . م) بينما الدولة الحثية في الشمال (آسيا الصغرى) قد وصلت إلى النهاية الأمر الذي أعطى الأراميين ميزات سياسية واجتماعية فاستطاعوا بناء بعض الممالك ومنها آرام ـ دمشق وآرام نهاريم وسمأل (زنجرلي) وحلب وكركميش وأرام صوبه (زوبه) وعاصمتها عنجر (كالكيس) في البقاع وأرام معكه شمال فلسطين . وكذلك دولة (الرها) المهمة . ويعتبر أراميو الرها أول من قبل المسيحية على يد ملكهم (ابكار

(1) David Diringer , Writing Vol 25 1962 P. 134
(2) Sumer Vol III P 320

الأسود) العربي المعاصر للمسيح . ويظهر أن أراميي الرها بعد تنصرهم صاروا يسمون أنفسهم (سرياناً) أي سوريين لتمييزهم عن الأراميين الذين ظلوا على دينهم الوثني .

سوريا والسوريون ، هو في الأصل ، مصطلح يوناني « لآرام » لذا يستعمل تعبير « اللغة السورية » للدلالة على الكلام الأرامي ، لكن الباحث الألماني Winckler يعتبر مصطلح « سوريا » مشتق من كلمة Suri البابلية والتي تعني الغرب حيث يسكن الأراميون[1] .

ومن الشعوب التي كانت على تماس مع الكنعانيين ، شعب جاء في القرن الحادي عشر ق . م ويسمى (الفلسطينيون) وهم من الأقوام الإيجية التي فرت من وجه الهجرات اليونانية التي أزاحتهم من موطنهم ، ولما أخفقوا بالنزول على الساحل المصري بعد انهزامهم في معركة بحرية زمن رعمسيس الثالث ١١٩١ ق . م نزلوا على ساحل كنعان الجنوبي حيث دعي باسمهم وكان يمتد عبر شريط من غزة إلى جنوب يافا ومن المدن المشهورة التي استولوا عليها : عسقلان ، اشدود ، عقرون ، جت ، وكان الكرمل الحد الفاصل بينهم وبين الفينيقيين شمالاً . وتظهر الأحداث التاريخية اللاحقة على استقرار الفلسطينيين أنهم شكلوا حالة عداء مستمر مع الحكم الفرعوني وملوك المدن الموالين لفرعون الأمر الذي يفسر ما تورده التوراة من حروب معهم . وبعد مرور عدة قرون ذاب هذا الشعب ـ الصغير نسبياً ـ في بوتقة الكنعانيين مخلفاً بعض الآثار واللقب والإسم .

حوالي القرن الخامس ق . م أدت هجرة جديدة من بلاد العرب إلى استقرار بنو ثابت (النبطيين) شمال شرقي شبه جزيرة سيناء حيث كانت عاصمتهم البتراء . وكان آخر اندفاع من الجزيرة العربية الموجة التي تمت في القرن السابع الميلادي تحت راية الإسلام .

---

(1) Scott C. Layton , Biblical Archaeoliogist Vol 51 Number 3 1988

ومما لا شك فيه وجود بعض المستوطنات والمدن لأقليات عرقية سكنت بلاد الشام وخاصة جنوبي سوريا (فلسطين) ومن هذه الأقليات بعض الحثيين واليبوسيين وقد ذابوا جميعاً مع الكنعانيين بمرور الزمن .

والسؤال الذي يظل يلح دائماً كلما قرأ الشخص التوراة . . وأين «العبريون» وآثارهم ومخطوطاتهم ومدنهم ؟!! وإذا كان لهم وجود فعلي فلماذا لم تذكرهم الحوليات والآثار المصرية والأشورية والبابلية ؟!!

العبرانيون !!

رغم عدم وجود أي دليل آثاري أو مادي أو تاريخي على وجود العبريين - وجل ما هناك ذكرهم في التوراة - فإن الكثير من الباحثين يتعاملون مع مفهوم «العبريين » كحقيقة لها وجودها ضمن الموجات التي هاجرت من جزيرة العرب . ويقسمون ذلك إلى ثلاثة موجات باستنتاجات نظرية :

أولاً : استنادا إلى وصف التوراة لإبراهيم بالعبري ، وإطلاق اسم «العبريين » في (صموئيل الأول ٤ :٣) على جموع الموسوميين ، فقد اعتبر القرن التاسع عشر أو الثامن عشر هو زمن الهجرة الأولى .

ثانياً : تعرف الهجرة الثانية - عند الباحثين التوراتيين - بهجرة الأراميين في القران الرابع عشر ق . م وهي الفترة المساماه آثارياً بفترة العمارنة ، والسبب الرئيس لادعاء هذه (الهجرة) ورود اسم العبيرو في بعض رسائل العمارنة . رغم أن هؤلاء الناس ليس لهم علاقة بالموسويين أو باليهود تالياً ، وهم عرب أموريون .

ثالثاً : يعتبر ما يسمى « الخروج الموسوي » من مصر الهجرة الثالثة ، وقد حدث الخروج هذا في القرن الثالث عشر ق . م .

إذا كان لابراهيم وجود فعلي ، وبناء على بعض المعطيات الاثارية في الفترة المتفق على أنه عاش فيها واستناداً إلى المعلومات الواردة من التوراة أيضاً! فقد ولد ابراهيم في أور حيث كان يعبد الإله نانار Nannar إله القمر ، وفي بورسيبا (برس النمرود) والتي تقع على بعد حوالي عشرة أميال من بابل ،

عبد ابراهيم نيبو إله المعرفة والأدب .[1]

ولو نظرنا إلى رسم تخطيطي لحركة ابراهيم كما ترسمه التوراة لكانت استحالة كاملة اعتبارها حجرة قبائلية . فزحف قبيلة كبيرة على أور يعني احتلالها أو الصدام العنيف مع حكامها ، وأور إحدى أهم المدن السومرية التي لا يمكن أن تسقط دون تأشير ذلك تاريخياً . . والأنكى من ذلك أن يصل إلى (ماري) عاصمة الأموريين في فترة عنفوانها وشبابها . ثم يجتاز شمال سوريا حتى يصل (حاران) ثم يتجه جنوباً ماراً بتدمر والمناطق التي يسيطر عليها الهكسوس . . ثم إلى كنعان وبعدها إلى مصر . . ثم يعود مرة ثانية إلى كنعان (أنظر خارطة ٢) . كما أن أحداثاً كثيرة توردها التوراة تؤكد عدم وجود هجرة قبائلية للعبريين بل هي تشرد أسرة على أحسن تقدير ، فابراهيم الذي لم يجد مكاناً لدفن زوجته لولا شفقة السكان في حبرون (الخليل) دلالة واضحة على هامشيته في المنطقة . وتؤكد التوراة على لسان يعقوب ـ حفيد ابراهيم ـ انه نفر قليل (تكوين ٣٧ : ١) وعندما التحق يعقوب بابنه يوسف في مصر كان مجمل العدد سبعين نفساً ، (خروج ١ : ٥)

وما ينطبق على الهجرة الأولى يشمل أيضاً الهجرتين الثانية والثالثة ، لذا ومحاولة لتتبع الحقائق فقد أفردنا عناوين لعلاقة هؤلاء بالهكسوس وبالعابيرو . . ثم الخروج الموسوي .

الهكسوس

هل « الإسرائيليون » من الهكسوس ؟

سمى قدماء المصريين مجموعات من القبائل الأمورية التي غزت مصر (١٧٨٨ ـ ١٥٧٣ ق . م) باسم الهكسوس والذي يعني : « الأمراء البدو أو أمراء

---

(1) Merrill F. Unger , Archaeology And The Old Testament 1954 P 103

الصحراء » وسماهم الكاهن المصري (منيتو) الذي عاش وكتب تاريخه المشهور في حدود ٢٨٠ ق . م : بالملوك الرعاه وبالفينقيين وبالعرب أيضاً . (١) ومن المؤكد أن هذا الكاتب كان على اطلاع ومعرفة بالتاريخ والقبائل التي استوطنت مصر وسوريا والعراق . . ومع ذلك لم يذكر ، مثلاً الحثيين ، أو الحوريين كأطراف في مثل هذا الغزو رغم أن مصر كانت على تماس مع مثل هذه الشعوب . وكذلك الاكتشافات الآثارية من عهد الهكسوس في مصر وفلسطين وسوريا تشير بشكل قطعي إلى عدم وجود عنصر غير عربي شارك في غزو مصر ، بل إن المؤشرات تدلل بوضوح أن الكنعانيين الشرقيين ـ الأموريين ـ والكنعانيين الغربيين ـ الكنعانيين سكان فلسطين ـ هم أنفسهم الهكسوس ، فقاعدة الانطلاق إلى مصر إذن كان من سوريا وفلسطين . (٢)

شملت ثقافة الهكسوس في بلاد الشام القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق . م وتركوا فيها آثار حصونهم ، كما وجدت في الموقع القديم المسمى (قطنا) والذي كان عاصمتهم ـ في بلاد الشام ـ وكذلك في (قاديشا) وأريحا آثار تعود للهكسوس وتميز حكمهم في هذه المنطقة بالنظام الاقطاعي العسكري . وفي هذه الفترة كانت المملكة الوسطى المصرية تسير نحو التدهور بسبب النزاع الداخلي بين النبلاء والأمراء ، فانتهز الهكسوس فرصة الضعف هذا وغزوا مصر السفلى ولا سيما الدلتا وثبتوا سلطانهم فيها ، حيث ابتنوا عاصمة جديدة هناك واستمروا يحكمون مصر زهاء القرنين ، وغدا ملوكهم فراعنة ، وهم الذين أدخلوا إلى مصر استعمال الخيول للركوب والعربات الحربية التي تجرها الخيول . كما أدخل الهكسوس إلى مصر أيضاً السيف المقوس المصنوع من الحديد والقوس المركب الذي كان يستعمله الأكديون ، كما أن جزءاً مهماً من معرفتنا بالرياضيات المصرية مستمد من نصوص عهد الهكسوس في مصر .

عثر على آنية فخارية في مصر ترجع إلى نهاية العصر البرونزي القديم

---

(١) طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات الجزء الثاني ص ٦٤ .

(2) J. G. Duncan , Diggin up Biblical History Vol 1 1931 P. 59

(٢٠٠٠ ق.م) تعود إلى الهكسوس وقد ظهر الهكسوس في مصر قبل هذا التاريخ بحوالي ٢٠٠ سنة وهذا يدلل أن وجودهم في فلسطين أبعد من هذا التاريخ[١] أو بعبارة أخرى هم أموريون ـ كنعانيون . ومن المؤكد أن الأموريين ـ الكنعانيين كانوا يسكنون فلسطين في ٢٥٠٠ ق.م أو قبل ذلك .[٢]

إن ظهور الهكسوس في مصر قد أدى إلى تحول كبير في الشخصية المصرية . فلعل شيئاً من الضعف في قوة الحكومة قد أطلق العنان لفردية الأمراء المحليين المتهالكين على منافعهم الشخصية ، إلاّ أن الغزو العنيف القاهر الذي قام به الهكسوس والذين وطدوا حكمهم داخل مصر وحكموا البلاد بقوة كبتت الروح المصرية ، فلأول مرة أصيبت مصر بنكسة في فلسفتها القائلة : نحن مركز الدنيا وقمتها ، ونحن أحرار في الانطلاق الروحي ، ولأول مرة أحس ذلك الشعب بتهديد خارجي ، ولأول مرة اضطر ذلك الشعب الالتفاف حول قيمه وقيادته لمجابهة ذلك التهديد . وقد توحدت مصر فعلاً لمقاومة « الرعاة » الذين تجرأوا على حكم البلاد متجاهلين الإله « رع » . وتضخم هذا الشعور بعد طرد الهكسوس من أجل الأمن والسلامة أو الشعور المرضي بالخطر . وقد ذكر أن المصريين أبطلوا ـ في هذه الفترة ـ استعمال كلمة جند الملك واستعاضوا عنها بلفظة « جيشنا » . ومنذ عصر أحموس ـ الذي تولى طرد الهكسوس ـ ومن تلاه من فراعنة باستثناء امنحوتب الرابع (أخناتون) ظل هاجس التدخل لديهم في بلاد الشام شرقاً وفي أفريقيا جنوباً وغرباً نتاج للدواعي الأمنية ذاتها .

أدت ، بطبيعة الحال ، هذه السياسة إلى الاحتكاك العنيف مع الدول الكبرى التي ظلّت تحاول التمدد داخل مناطق النفوذ المصرية ـ أي بلاد الشام ـ وعلى ذلك كانت الحروب المستمرة مع الحثيين (آسيا الصغرى) الذين سيطروا في أزمان مختلفة على مناطق متعددة من سوريا وكذلك الحال مع الأشوريين والبابليينّ الذين احتلوا بلاد الشام فترات طويلة بل وهاجموا مصر ذاتها .

---

(1) Ibid
(2) Ibid

إزاء ذلك شهدت ساحة بلاد الشام متغيرات كثيرة وسياسات متنوعة ، فلا القوات المصرية بقادرة على البقاء الدائم فيها ولا الجيوش العراقية ولا الحثية لذا كان ما يطلق عليه اليوم اصطلاح مناطق النفوذ التابعة لجهة معينة . فمصر حكمت بلاد الشام عن طريق ملوك المدن التابعين للفرعون وكذلك فعل الأشوريون والبابليون . وكانت مهمة ملوك المدن إضافة إلى التبعية السياسية ، تأمين الحاجات الاقتصادية الضرورية وقمع الاضطرابات الداخلية وصد الهجمات الخارجية قدر الإمكان والمشاركة في الغزو إذ اقتضى الأمر ذلك . وقد أوضحت هذه السياسة الرسائل المعروفة برسائل العمارنة ، حيث اشتد ضغط « الخارجين على سلطة الفرعون » وممتلكاته ، ولما عجز ملوك المدن عن الوقوف بوجه هؤلاء طالبوا برسائلهم المساعدات من الفرعون . . وإذا كان اخناتون قد غض الطرف عن إرسال النجدات إلى الملوك ـ الأتباع ـ فإن الفراعنة الذين جاءوا بعده قد أرسلوا الجيوش للوقوف في وجه الثوار الذين سماهم ملوك المدن خابيرو (أو عابيرو أو آبيرو) .

سجلت الأواني الفخارية التي اكتشفت في مصر الكثير عن الهكسوس ، فالنماذج التي وجدت في المنطقة المسماه اليوم (تل اليهودية) والتي كانت قلعة أفاريس الهكسوسية تؤكد وجودهم من ٢٢٠٠ ـ ١٦٠٠ ق . م . والسواتر الترابية المكتشفة في تل اليهودية وهيليوبوليس تعود إلى الهكسوس ويشابهها سواتر قادش (تل النبي مندو اليوم) في شمال سوريا مما يزيد في التأكيد أنهم أموريون ـ كنعانيون .

ويؤكد الباحث G.F.Knight مراراً أن الهكسوس هم من الأموريين ، وليس من دليل يشير إلى غير ذلك ، حتى لو وجد بعض المقاتلين من الحثيين أو غير الحثيين من الأجناس غير العربية في صفوفهم فهذا لا يلغي القاعدة الأساس .

اعتماداً على النصوص التوراتية ـ والنصوص التوراتية فقط ـ استنتج الباحثون مجموعة نظريات حول علاقة « الإسرائيليين » بالهكسوس وكلها

نظريات ظنية تحتمل الطعن ، بل التناقض والخطأ هو السمات المميزة لمثل تلك النظريات . فالبعض يربط فترة وجود ابراهيم بعهد الهكسوس ، فلأنه وجد في هذه الفترة ولأنه دخل مصر ـ كما تشير التوراة ـ ثم استقرار يعقوب وأبناؤه في مصر كلها دلائل ـ لدى بعض الباحثين أن « الإسرائيليين » أي أبناء يعقوب هم من الهكسوس ، مع أن التوراة ذاتها تقول أن الذين دخلوا مصر برفقة يعقوب لا يتجاوزون السبعين شخصاً وأن يوسف وإن تبوأ مركزاً مرموقاً ـ دون دليل تاريخي ـ فهو ليس أكثر من عبد اشتراه أحد المسؤولين الفراعنة ، وهي حالات كثيراً ما تحدث تلك الأزمان .

باحثون آخرون يقولون إن « الإسرائيليين » أبناء عمومة الكنعانيين ، بدليل تمكنهم من العيش في كنعان وعدم وجود غضاضه بعبادة الهة كنعان والتحدث بلغتهم . ويقول آخرون أنهم مصريون وأن موسى مصري خرج مبشراً بعبادة أتون التي جاء بها أخناتون . وآخرون يقولون أنهم جنود مصريون جاءوا لإقرار الأمن والقضاء على العصاة والمتمردين على الفرعون ، وهذه أرجح نظرية حتى الآن .

يلخص (هيربرت ماي) May Herbert مجمل الأفكار أو النظريات هذه[1]، ربما كانت توجد علاقة بين « الإسرائيليين » والهكسوس من نوع ما ، بناء على ما ورد في سفر التكوين من قصص يعقوب ويوسف . فمن المحتمل إذن ـ كما يقول ماي ـ إن هجرة يعقوب تتطابق مع حركة الهكسوس ، وهناك أسئلة كثيرة تثار حول تطور فكرة التوحيد التي حملها موسى ، والاحتمال الأكثر ترجيحاً أنه اقتبس الفكرة بتأثير حاكم مصر (أخناتون) .

لقد عجز الباحثون التوراتيون عن الوصول إلى رأي قاطع في أي حدث يتبع التاريخ اليهودي ، فلا حقائق مادية ملموسة تدعم وجهة نظرهم ولا التوراة تعطي حقائق مؤكدة وثابتة ، وجل ما تطرحه أفكاراً تتضمن التناقض . ومن الأفكار والآراء المطروحة أن يعقوب ويوسف من العبريين وهؤلاء من

(1) H. G. May , Culture And Conscience 1936 P. 66 - 71

الهكسوس ، وقد تم استنتاج ذلك بناء على ما ورد بالتوراة وبالشكل التالي :

كان بناء هيكل سليمان بعد ٤٨٠ سنة من الخروج من مصر (الملوك الأول ٦ : ١)

ولما كان وجود الهيكل عام ٩٦٥ (ق . م) في السنة الرابعه لحكم سليمان (الملوك الأول : ٦ : ١)

وزمن هجرة ابراهيم من حاران حتى وصول يعقوب إلى مصر هي ٢١٥ سنة تستنتج من :

حتى ميلاد اسحق ٢٥ سنة (التكوين ١٢ : ٤ ، ٢١ : ٥)

حتى ميلاد يعقوب ٦٠ سنة (التكوين ٢٥ : ٢٦)

حتى استقرار يعقوب في مصر ١٣٠ (التكوين ٤٧ : ٩)

وبذلك يكون المجموع ٤٨٠ + ٩٦٥ + ٢١٥ + ٤٣٠ (فترة بقاء الإسرائيليين في مصر خروج ١٢ : ٤) = ٢٠٩٠ ق . م تاريخ خروج ابراهيم من حران ، يضاف إلى هذا التاريخ ٧٥ سنة وهو عمر ابراهيم ذلك الوقت (خروج ١٢ : ٤) تكون ٢١٦٥ ق . م هي سنة ميلاد ابراهيم .

ولما كان عمر يعقوب ١٣٠ سنة عند دخوله مصر (تكوين ٤٧ : ٩) وبناء على :

٣٩	٢ سنة مجاعة (تكوين ٤٥ : ٦-١١)
	٧ وفره (تكوين ٤١ : ٥٣)
	٣٠ عمر يوسف عندما وصل يعقوب إلى مصر (تكوين ٤١ : ٤٥)

فيكون عمر يعقوب ٩١ سنة عندما ولد له يوسف ، فإذا كانت ولادة يعقوب ٢٠٠٥ ق . م فيكون تاريخ ميلاد يوسف ٢٠٠٥[1] - ٩١ = ١٩١٤ ق . م

---

(١) يستنتج هذا التاريخ : مولد ابراهيم ٢١٦٥ ق . م . عندما كان عمره ٨٦ ولد اسماعيل أي في ٢٠٧٩ ق . م . كان عمر اسماعيل ١٣ سنة عند الختان أي سنة ٢٠٦٦ ق . م (تكوين ١٧ : ٢٥) وبعد سنة ولد اسحق أي سنة ٢٠٦٥ ق . م . ماتت ساره وعمرها ١٢٧ (تكوين ٢٣ : ١) وعندما ولدت اسحق كان عمرها ٩٠ سنة فيكون الفرق بين موتها وولادة اسحق ٣٧ سنة أي ٢٠٢٨ ق . م . وكان عمره ٤٠ سنة عندما تزوج (تكوين ٢٥ : ٢٠) أي ٢٠٢٥ ق . م فتكون ولادة يعقوب ٢٠٦٥-٦٠ = ٢٠٠٥ ق . م . فقد ولد يعقوب وعمر اسحق ٦٠ سنة (تكوين ٢٥ : ٢٦) .

ويكون تاريخ دخول يوسف إلى مصر ١٩١٤ - ١٧ (عمره قبل بيعه تكوين : ٣٧ : ٢) = ١٨٩٧ ق.م .

فكيف إذن يتطابق هذا التاريخ مع حكم الهكسوس الذين حكموا مصر ١٧٨٨ - ١٥٧٣ ق.م والفارق بينهما حوالي مائة سنة ؟! اللهم إلاّ إذا اعتبرنا وجود الهكسوس قبل استيلائهم على السلطة في حين أن التوراة تشير إلى مركز يوسف السياسي حيث ركب العربة الثانية بعد فرعون (تكوين ٤١ : ٤٣) .

المغالطة الأخرى التي تقع بها التوراة ـ وبالتالي الباحثون ـ عدم رسم خطوط واضحة في شخصية يوسف وهل هو فرعوني أم غير ذلك : فالتوراة سمت يوسف باسمه الفرعوني (صفنات بعنج) (تكوين ٤١ : ٤٥) وبذلك الحق بالأسرة الفرعونية ، وتزوج من أسنات ابنة فوطي فارع كاهن عون وبذلك يكون لهذا الشخص صلة بالدم الملكي . ومعنى اسنات الموهوبة للألهة (نيث) Neth أي أن من تطلق التوراة عليه اسم يوسف هو فرعوني الإسم والدين وليس له علاقة بأبناء ابراهيم . يؤكد ذلك أنه بعد موت يعقوب أمر يوسف بتحنيطه ـ وهي عادة مصرية ـ فحنطوه بأربعين يوماً وبكوا عليه سبعين يوماً (تكوين ٥ : ١ - ٤). كما تم تحنيط يوسف أيضاً (تكوين ٥ : ٢٦) حسب الشرائع الفرعونية . وإلى هنا تسدل التوراة الستار وتنهي الفصل الأول من الرواية ـ المسرحية ثم تعود إلى الفصل الثاني بما تسميه الخروج من مصر وبعد انقطاع دام ٤٣٠ سنة (خروج ١٢ : ٤) . فكيف كان حال الإسرائيليين » خلال ٤٣٠ سنة ؟! التوراة لا تذكر شيئاً . . وحسب ما هو معروف بالتوراة فتاريخهم مكتظ بالأنبياء والرسل ، بل لا توجد فترة زمنية تخلو من رسول أو نبي أو « ممسوح » ، فكيف ولماذا تعتم التوراة على أربعة قرون ونصف ـ تقريباً ـ لا تذكر شيئاً عن « بني إسرائيل » ؟! أليس غريباً عدم وجود أي حدث تسجله التوراة ، خلال هذه الفترة ، وهي التي دأبت على تسجيل الغث والسمين ؟!

ورد في المصادر الآثارية المصرية إسمان هما : يعقوب ـ ايل ، يعقوب ـ

بعل . [1]وقد ورد الإسمان بصيغة المركب مع الإله إيل أو الإله بعل ولم يردا بصيغة المفرد أبداً . وأن إسم يعقوب بصيغة المفرد ـ غير المركب مع الإله ـ لم يوجد إلاّ بالتوراة . . ورغم أن التوراة تذكر منطقة جوش قرب أفاريس كمكان سكن فيه يعقوب وأبناؤه ، فلم يعثر الآثاريون على أي دليل على ذلك .

ويفيد الباحث Alane Rowe أن اسم يعقوب ويوسف ـ وردا في معبد الكرنك في زمن تحتمس الثالث (١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق . م) كأسمي قريتين يعقوب ـ ايل ، يوسف ـ ايل [2] . ولم يردا مفردين يعقوب ويوسف إلاّ في التوراة .

ويشير بعض الباحثين إلى وجود ذكر لبني إسرائيل على نصب وجد في طيبة يعود إلى مرنفتاح [3] (١٢٣٠ ق . م) لكن الحقيقية أن النصب يذكر العبيرو[4] وليس الإسرائيليين أو العبريين ولأن بعض الباحثين اعتبر العبيرو هم العبريين . والكثيرون يعتبرون العبريين هم الإسرائيليون قرىء نص النصب على أنه بني إسرائيل في بعض الترجمات .

ونورد في هذا السياق مثلاً على طريقة الترجمة من النصوص القديمة وتوظيفها بما يخدم الطروحات التوراتية عند باحثين مشهورين ، فقد وجد (العلامة) وليم أولبرايت W.F. Albright نصاً في تل بيت مرسيم والتي تبعد حوالي ٤٥ كم شرق البحر الميت يذكر اسم يعقوب ـ كما يقول الباحث ـ Y (a) qeb وهذا يتطابق مع مخطوط من عصر الهكسوس ينص على جملة « إبن الإله رع » Son of Rá ، فكيف توصل باحثنا الجليل إلى هذا الاستنتاج ؟

لقد وجد أن حرف العين في كلمة يعقوب شبيهة بحرف العين في رع ثم ربطها مع كلمة Give التي تعني أعطى وطابقها مع)qeb(في يعقوب ليصبح المعنى أعطى الإله أو وهب ولتصبح الجملة الإله واهب الحياة وبذلك تتطابق

---

(1) Sh. Yeivin , A Decade Of Archaeology In Israel 1948 - 1958 P. 106
(2) Alan Rowe , P. E. Q July - Dec 1962 P. 134
(٣) فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص ١٩٣
(4) G. A.F. Knight Nile And Jordan 1920 P. 245

مع الجملة الفرعونية (الهكسوسية) إبن الإله رع . [1] وهكذا توصل هذا الباحث إلى مثل هذه الترجمة المزاجية . رغم أن كلمة يعقوب بالكنعاني تعني ببساطة أعقب أو تبع .

وجد الباحثون والمنقبون الآثاريون أثراً مهماً مكتوب على ورق البردي يعود إلى الأسرة التاسعة عشرة ومكتوب بالهيروغليفية القى أضواء على قصة يوسف مع زوجة سيده المشهورة بالتوراة ، وهذه الوثيقة تحمل عنوان « قصة الأخوين » [2] والتي مؤداها : « . . منذ أزمان كان أخوين ، الأكبر يسمى أنوبس Arubis والأصغر باتا Bata يعيش في بيت شقيقه الأكبر وزوجته ، يرعى الغنم من الصباح حتى المساء . وعندما جاء وقت الحراثة عملا معاً لعدة أيام حتى نفذ غداءهما ، فأرسل أنوبس أخاه الأصغر لإحضار المؤن من المدينة ، فوجد باتا زوجة أخيه تمشط شعرها ، فقال لها : هيئي لي بعض الطعام بسرعة كي أعود للحقل ، فقد أمرني أخي أن أعود سريعاً . أخذ كمية من الحنطة وهم بالخروج من المخزن عندها قالت له : يا لك من رجل تتعاظم قوتك يوماً بعد يوم ، تعال ننام سوية ساعة من الزمن ، وسأضمن سعادتك وأعطيك أجمل الثياب . غضب الشاب ودفعها قائلاً لها : ما هذا العمل الفظيع ، لا تعودي إليه ثانية وأعدك ألاّ أفشي هذا السر . ثم ألقى حمله عن ظهره وخرج .

خافت المرأة مما فعلته . . فوضعت بعض القش وألقت نفسها عليه ليبدو كأنه مهروس ، ولما عاد الزوج وجد زوجته ملقاة على القش كأنها خارجة من معركة فسألها : من كان معك ، أجابت لا أحد باستثناء أخوك عندما جاء ينشد الزاد ، وكنت وحيدة فطلب مضاجعتي ، فرفضت طلبه وقلت له : ألست أمك وأخوك الأكبر أليس كوالدك وقد دفعني وهددني ألا أقول لك ، فإذا تركته يعيش سأموت أنا » أما التوراة فتقول : « . . وبعد فترة أعجبت زوجة سيده يوطفار بيوسف ، وقالت . . تعال ضاجعني لكنه رفض . وعندما جاء زوجها إلى البيت

---

(1)Alan Rowe P.E.Q. July - Dec 1962

(2) Werner Keller , The Bible As History P. 100

قالت : العبد الذي أحضرته إلينا حاول اغتصابي » . (التكوين ٣٩ : ٧) .

يدلنا الأثر المكتوب الذي وجد في Elkab [1]. أن جنود أحموس احتلوا المدن التي كان يسيطر عليها الهكسوس ، ولما سقطت أفاريس عاصمتهم ، خرج المصريون لملاحقتهم إلى بلاد كنعان ، واحتلوا بلاد الفينيقيين ، وفي عهد تحتمس الأول وصل المصريون إلى وادي الرافدين ، واستمرت سيطرتهم على بلاد الشام لعدة قرون بعده . فقد انطلق تحتمس الأول من غزة ومجدوا إلى قادش ومن ثم إلى كركميش . وعلى إحدى بوابات معبد الكرنك نحتت أسماء الأمراء السوريين الذين أسرهم الملك رعمسيس الثالث وسجنهم في قلعة مجدو ومنهم من قاده الملك إلى طيبه . والقائمة في الغالب تحتوي ٢٧٠ إسماً في عشرة سطور لكن لم يبق منها إلاّ ١١٩ إسماً واضحاً وكذلك أسماء مدن يبدو أنها كانت مع الخابيرو ومن هذه المدن ـ المذكورة في رسائل العمارنة ـ غزه ، مجدو ، تعنك ، دمشق ، حماة ، بيروت ، شمرون ، بيلا ، ابلعام ، عكا ، الكرمل ، بيت شمس ، النقب ، المجدل ، جيرار ، جات ، جيزر ، بيت أنات ، والمعروف أن رعمسيس الثالث أكمل ما قام به رعمسيس الثاني ، وهو فرعون الخروج حسب معظم المصادر ، وبذلك تكون المدن المشار إليها جزءاً من مهمات الموسويين في أرض كنعان .

شن امنحوتب الثاني (١٤٦١ ـ ١٤٣٦ ق . م) حملة كبيرة على كنعان واستمر بزحفه شمالاً حتى احتل حلب والمدن القريبة منها ، ثم زحف إلى وادي الرافدين ، حيث تذكر لوائح الكرنك ٢٤ منطقة ومدينة أخضعها امنحوتب الثاني . أما ابنه تحتمس الرابع (١٤٣٦ ـ ١٤٢٧ ق . م) فقد أعاد الزحف على فينيقيا عن طريق فلسطين وأجبر زعماء سوريا على دفع الجزية السنوية ، وأثناء عودته إلى مصر أجبر الزعماء الفينقيين على تزويده بالخشب لبناء معبد للأله أمون في طيبة ، كما أقام مستعمرة للسجناء المعارضين قرب طية .

---

(1) G. A. F. Kinight , Nile And Jordan. P. 125

تحت حكم خليفته امنحوتب الثالث (١٤٢٧ - ١٣٩٢ ق . م) بلغت امبراطورية طيبة أوجها حيث بلغت من أقصى نقطة جنوب النوبة إلى أبعد نقطة جنوب وادب الرافدين ، ومالت سوريا وفلسطين إلى الهدوء . أما في عهد أمنحوتب الرابع (أخناتون) (١٣٩٢ - ١٣٧٦ ق . م) فقد أضمحلت مظاهر العظمة ، واتجه إلى ترتيب وتثبيت وجهة نظره الدينية . فالإله (أتون) « قرص الشمس » هو أساس الكون وهذا طرح خالفه فيه كهنة معبد (آمون) .

سنّ الفرعون هذا تشريعاً خاصاً وأعطى الأوامر بقصر المعابد على الإله أتون في أطراف ملكه الأربعة ، فقد وجد الباحثون آثاراً تعود إلى (أتون) في النوبة والفيوم والدلتا والقدس (أورشليم) . فقد اختيرت أورشليم لتكون فرعاً لعبادة أتون ، وفي إحدى رسائل العمارنة طلب ملك أورشليم مساعدة أخناتون لمواجهة العبيرو ليظل اسم الإله أتون « في القدس إلى الأبد » . كما وجود حجر كلسي في القدس يشير إلى عبادة أتون . (١)

شوشت التواريخ الواردة بالتوراة أيضاً تحديد زمن الخروج الموسوي . فإذا كان الخروج وحسب ما ورد بالتوراة قد تم قبل بناء الهيكل ٤٨٠ سنة (الملوك الأولى ٦ : ١) .

إذن ٩٦٥ - بداية حكم سليمان - + ٤٨٠ = ١٤٤٥ ق . م زمن الخروج .

وعندما وقف يوسف أمام فرعون كان عمره ٣٠ سنة (تكوين ٤١ : ٤٦) فتكون إقامته بمصر قد مضى عليها ١٣ سنة أي (٣٠ سنة عندما وقف أمام فرعون - ١٧ سنة عمره عندما جاء إلى مصر)

١٨٩٧ ق . م (٢) سنة دخول يوسف إلى مصر ناقص ١٣ سنة = ١٨٨٤ عندما تبوأ مركزاً مرموقاً في مصر ولوجود سنتين مجاعة وسبعة سنوات وفرة ٢ + ٧ = ٩ فإن قدوم يعقوب إلى مصر ١٨٨٤ - ٩ = ١٨٧٥ ق . م . ولأن يعقوب مكث ١٧ عاماً (تكوين ٤٧ : ٢٨) إذن ١٨٧٥ - ١٧ = ١٨٥٨ تاريخ

(1) G. A. F. Knight Nile And Jordan 1920 P. 142

(٢) انظر هامش ص ٤٩

وفاة يعقوب . ولأن يوسف عاش ١١٠ سنوات (تكوين ٥٠ : ٢٢) فيكون ١٩١٤ - ١١٠ = ١٨٠٤ ق.م . وعندما كلّم موسى فرعون لإخراج بني إسرائيل كان عمر هارون ٨٣ سنة (خروج ٧ : ٧) .

فبذلك يصبح ٨٣ + ١٤٤٥ = ١٥٢٨

١٨٠٤ - ١٥٢٨ = ٢٧٦ سنة من وفاة يوسف حتى الخروج وهذا يخالف ما جاء بالتوارة مكوثهم ٤٣٠ سنة .

أصبح خطل وبطلان الإدعاءات التي تقول بوجود العبريين كموجة هجرة أو الإدعاءات التي تنسبهم إلى الهكسوس باطلة بدليل الآثار والتوراة معاً .

تعتبر التوراة ما أسمته الخروج الموسوي من مصر أساس الديانة اليهودية، تاريخياً ، وبناء على تحليل الباحثين لما ورد في التوراة فإن الخروج الموسوي من مصر أرجع إلى القرن الثالث عشر ق.م .

كانت فلسطين معروفة للمصريين تحت اسماء (حارو) Haru ، (خال) Khal ، (باكانانا) Pa - Kanana ، ثم عرفت بأرض كنعان وكذلك بأرض الأموريين ، ولكنها لم تذكر إطلاقاً أنها تحمل إسم أرض إسرائيل ، بل إن ما تسميه التوراة (دولة إسرائيل) في السامرة لم ترد في أي مصدر بهذا الإسم . وهذا يشكك بما ورد في التوراة من قصص وأحداث .

وردت بالتوراة قصة أو قصص الخروج دون أي مصدر آخر وخاصة المصادر المصرية التي سجلت الحروب والأحداث في القرن الخامس عشر ق.م إلى القرن السابع ق.م أي أنها تذكر الأحداث المهمة للفراعنة قبل الخروج الموسوي بحوالي ٢٠٠ سنة وإلى ما بعد السبي البابلي دون الإشارة ولو تلميحاً إلى الخروج . ولأن مصدر الخروج الموسوي الوحيد هو التوراة كان المجال واسعاً لاستنتاجات الباحثين وهي استنتاجات ظنية بحكم مقدماتها غير المؤكدة ومن هذه الآراء :

أولاً : رأي يقول أن الموسويين هربوا من مصر في حياة رعمسيس الثاني وخلفه مرنفتاح وهذا رأي البرفسور بريستيد Breasted (١)

ثانياً : يعتقد البعض أن (الاضطهاد) تم في عصر تحتمس الثالث وبذلك يكون الخروج في عهد امنحوتب الثاني لكن ذلك يسبب إشكالاً يصعب تفسيره متمثلاً بأربعين سنة من التيه .

ثالثاً : رأي آخر يقول أن « الإسرائيليين » لم يغادروا مصر ومن وصفهم مرنفتاح في مسلته هم الخابيرو (العبيرو) وهذا يتوافق مع الذين يقولون أن العبريين هم العبيرو .

رابعاً : العالم (ايردمانز) Eerdmans له رأي مخالف حيث يعتبر أن إقامة « الآباء » (ابراهيم وأولاده وأحفاده) حدث بعد اجتياح مرنفتاح نهاية الأسرة التاسعة عشرة ويؤرخ الخروج على أنه تم في زمن رعمسيس الثاني عشر وبذلك يكون Eerdmans قد نجح في استخراج بعض الترابط الزمني لكن النظرية لا تتوافق مع العهد القديم ، فإذا تم الخروج في عهد رعمسيس الثاني عشر (١١١٥ـ ١٠٨٨) فذلك يتناقض مع أحداث سفر القضاه .

خامساً : مجموعة من الباحثين ارتأت أن قسماً من « الإسرائيليين » ظلوا في فلسطين ولم يسكنوا مصر وهؤلاء يمثلون جاد ، أشير ، دان ، نفتالي . وأن مرنفتاح هاجم هؤلاء وليس أولئك الذين كانوا في مصر .

لكن التوراة تشير في عشرات الآيات أن القبائل الأربع جزء من الذين سكنوا مصر وكانوا أيضاً إبان فترة « التيه » فقد ورد هذا التأكيد في : « الخروج ٣١ : ٦ ، العدد ١ : ١٢ـ٣٩ ، العدد ٢ : ٢٥ـ٣١ ، العدد ٧ : ٦٦ ، العدد ١٠ : ٢٥ ، العدد ١٣ : ١٢ ، التثنيه ٢٧ : ١٨ ، التثنيه ٣٣ : ٢٢ ، يوشع ١٩ :

---

(1) J. H . Breasted , Biblical World 1897 P. 62

٤٠ـ٤٨ يوشع ٢١ : ٥ ، العـدد ١ : ١٥ـ٤٣ ، العـدد ٢ : ٢٩ ، العـدد ٧ : ٧٨ ، العدد ١٠ : ٢٧ ، يوشع ٢٠ : ٨ ، العدد ٢٦ : ٤٤) .

لقد وصل الموسويون إلى أرض كنعان بصفة محتلين [1] وهاجموا المناطق والمدن الواردة في رسائل العمارنه كمعاقل للخابيرو (جيزر ، تعنك ، مجدو وغيرها) وهذا يؤكد عدم صلة الموسويين (أو العبريين) بالخابيرو أو العبيرو وما هم إلاّ فصيل في الجيش الفرعوني جاء لتأديب » الخارجين عن سلطة الفرعون .

ومن المسلم به أن التنقيبات الآثارية أضافت الكثير من الإرباكات المعقدة لقصة الخروج الموسوي فمومياء مرنفتاح التي وجدت مدفونة في قبر امنحوتب الثاني ، واستناداً إلى الشروحات الموجودة ، فإن عبور البحر الأحمر كان خطة عسكرية مصرية هدفها السيطرة على أرض كنعان من موجة « العصيان» . وهذا الأثر يحمل دعاء الشكر للإله أمون على نجاح تدمير اشكلون وجيزر (والتي تشير التوراة أن « الإسرائيليين » دمروها) . وقد زاد التأكيد حين تم العثور أثناء التنقيبات على مزولة ـ ساعة شمسية ـ وجدت في جيزر وتحمل اسم مرنفتاح . كما يضيف (سيتي الأول) في إحدى وثائقه التي وجدت في بيسان وتذكر فيها كيف أنه ـ أي الفرعون ـ قدّم العون إلى ملك بيسان للقضاء على المناوئين لفرعون . هذه الأحداث وغيرها تشير إلى سيطرة الفراعنة على بلاد الشام ومنها فلسطين قبل تاريخ الخروج وأثناءه وبعده ، ومن الدلائل التي تؤكد السيطرة الفرعونية المسلة التي وجدت في بيسان أيضاً وتحمل اسم رعمسيس الثاني ، كما أن رعمسيس الثالث فرض السيطرة على فلسطين وأقام نصباً في بيسان .

فالسيطرة الفرعونية على بلاد الشام كانت مطلقة تؤكدها الوثائق المصرية والبابلية والأشورية وآثار التنقيبات في فلسطين وبعض الوثائق الحثية ، وهذه السيطرة استمرت خلال أكثر من ١٢٠٠ سنة أي منذ طرد الهكسوس ومطاردتهم

---

(1) J. Duncan , Biblical History Vol 1 P. 165

إلى بلاد الشام وحتى السبي البابلي . لقد تم طرد الهكسوس سنة (١٥٧٣ ق . م) وحصل الخروج الموسوي ـ حسب رأي التوراة ـ القرن الثالث عشر ق . م . وفي أوج القوة العسكرية والجبروت الفرعوني .

وعاصر « الموسويون » أقوى الفراعنة (رعمسيس الثاني ، مرنفتاح ، سيتي الأول) والذين لهم بقايا حصون وقلاع ونصب تذكارية في قلب فلسطين فكيف تمكن الموسويون الفرار من وجه الفرعون في مصر ولم تطلهم يده في فلسطين وهي من جملة أملاكه [1] ؟!!

يقول أحد الباحثين الغربيين : هناك استحالة أن تتفق التنقيبات الآثارية مع أطروحات التوراة وخاصة قصة الخروج ، بل إن الدخول فيها محظور بالإطلاق . [2]

هل كان هناك اضطهاد فعلي موجه ضد من تسميهم التوراة « الإسرائيليين» فإذا كان ذلك حقيقة فكيف حمل المغادرون ، بل أثقلوا بالهدايا ـ المسروقات ـ وهل يمكن تفسير ذلك إلاّ إذا حظي الخروج بموافقة مصرية كاملة ؟ خاصة إذا عدنا إلى العلاقات العاطفية الحميمة بين المصريين والموسويين [3] والتي يشير إليها سفر (التثنية ٢٣ : ٧ ـ ٨) .

---

(1) R. A. S. Macalister , A Century Of Excavation In Palestine 1925 P. 159
(2) G. Ernest Wright , B. A.S.O.R Number 86 April 1942 P. 34 - 35
(3) A. B. Rowton P. E. Q January - April 1953 P. 50 - 53

الفصل الثاني

العبيرو ورسائل العمارنة

الوضع السياسي في فلسطين وبلاد الشام في هذه الفترة

بعد طرد الهكسوس من مصر (١٥٧٣ ق.م) بقيادة الفرعون (أحموس ١٥٨٠ ـ ١٥٥٩ ق.م) ، اجتاحت الجيوش المصرية فلسطين ولبنان وسوريا الشمالية . واستمرت هذه الجيوش تذرع بلاد الشام طولاً وعرضاً لعدة قرون . فقد واصل امنحوتب الأول ابن احموس (١٥٥٩ ـ ١٥٣٩ ق.م) وتحتمس الأول هذا النهج ، وقد وصل تحتمس الأول إلى وادي الرافدين عن طريق سوريا حيث انطلق من غزة ومجدو إلى قادش ثم كركميش . ثم دخلت كنعان تحت سيطرة رعمسيس الثالث .

شن أمنحوتب الثاني (١٤٦١ ـ ١٤٣٦ ق.م) حملة كبيرة على كنعان واستمر بزحفه شمالاً واحتل حلب والمدن القريبة منها وكذلك فعل تحتمس الثالث .

زحف تحتمس الرابع (١٤٣٦ ـ ١٤٢٧ ق.م) واستولى على فنيقيا وتبادل مع ملك بابل كارا ـ انداش Kara - indash الهدايا ، وتحت حكم خليفته امنحوتب الثالث (١٤٢٧ – ١٣٩٢ ق.م) بلغت امبراطورية طيبة أوجها . وقد وجد في تل زكريا وتل الصافي (جات) بقايا آثار من عهد امنحوتب الثالث ، كما وجد في تعنك ـ قرب جنين اليوم ـ آثار سليمة تعود إلى نفس الفترة ، كما وجد في تل المتسيلم Tell - el - Mutesellm (مجدو) تماثيل لألهة مصرية لها علاقة بعبادة أمون رع .

تحت حكم أمنحوتب الرابع ـ أخناتون ـ (١٣٩٢ ـ ١٣٧٦ ق.م) بدأ الضعف يتسرب إلى امبراطورية مصر ، ورغم وجود آثار في فلسطين تعود إلى

أخناتون ، فربما تكون المبادرة من أناس آخرين وليس منه مباشرة بدليل طلب المساعدة الذي قدمه ملك القدس (أور ـ شالم) من أخناتون « لترسيخ إسم الإله أتون إلى الأبد » . كما وجد الباحث Bliss أثناء التنقيب في لجيش (تل الدوير) آثاراً أرجعها إلى اخناتون في حين أعادها آخرون إلى (سيتي الثالث) . وقد اكتشف الدكتور D.A. Mackenzie آثاراً في بيت شمس تدل على وجود سلطة مصرية في هذه المنطقة ، وقد شملت لقى وأوان وتماثيل للأله ايزيس تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة . وقد عمت الاضطرابات فّي عصر اخناتون لتشمل جميع بلاد الشام .

بعد موت اخناتون تولى الملك Smenkhara الذي سار على عبادة أتون ، إلاّ أنه مات بعد سنتين فجاء توت عنخ آمون (١٣٧٦ ـ ١٣٧٤) وعاد إلى عبادة أمون رع ورجع إلى العاصمة طيبه وانتهت الأسرة الثامنة عشرة بمجيء هورمحب Heremheb (١٣٧٠ ـ ١٣٥٣ ق . م) ثم جاء بعده رعمسيس الأول (١٣٥٣ ـ ١٣٥١ ق . م) ثم سيتي الأول (١٣٥١ ـ ١٣٢٤ ق . م) والذي شن حملة واسعة على كنعان والمناطق السورية في محاولة لاجتثاث المتمردين ، حيث وصل إلى الأردن ومنها إلى حوران ولبنان ثم فتح قادش ووصلت سلطته إلى قبرص . لقد أخضع سيتي الأول كما يقول البروفسور W.Max Muler مجموعة أسماء مهمة في فلسطين . وفي السنة الرابعة من حكم سيتي الأول عاد ثانية إلى فلسطين حيث زحف هذه المرة من فنيقيا عبر الجبال إلى البقاع ، وهاجم قادش واصطدم مع الحثيين . وعندما مات سيتي الأول كانت مصر قوية كما كانت في عهد الأسرة الثامنة عشرة .

تولى رعمسيس الثاني (١٣٢٤ ـ ١٢٥٨ ق . م) بعد وفاة والده ، وفي السنة الرابعة لحكمه زحف على فلسطين وقد وجد Macalister تماثيل ولقى في جيزر تعود إلي رعمسيس الثاني . وقد اخترق رعمسيس الثاني الأردن مسجلاً الأحداث على حجر اكتشفه Sechumcher ويعرف باسم (Job stone)[١] ثم

(1) G. A. F. Knight Nile And Jordan P. 125

سجل انتصاراته على ثلاث مسلات على نهر الكلب قرب بيروت .

تولى مرنفتاح (١٢٥٨ ـ ١٢٣٨ ق . م) الحكم بعد وفاة أبيه رعمسيس الثاني وفي السنة الثالثة لحكمه شن حملة على كنعان « حيث وجود ثائرين يطالبون بإزالة نير المصريين » . وقد سجلت حملاته على مسلة اكتشفها (بتريبه) في طيبة عام ١٨٩٦ . وقد اعتبر حكم رعمسيس الثاني ومرنفتاح عهدي الإضطهاد والخروج عند كثير من الباحثين التوراتيين . فإذا كانت هذه سطوتهما . فكيف سلم الموسويون من بطشهما وهما بمتناول يدهما إلاّ إذا كانوا أتباعاً لهما ؟

ثم جاء إلى السلطة امنمسس Amenmeses (١٢٣٨ ـ ١٢٣٧ ولم يكن ذا تأثير لقصر المدة الزمنية التي حكمها . وجاء بعده سيتي الثاني (١٢٣٧ ـ ١٢٣٢ ق . م) ، وقد حقق في السنة الثانية لحكمه انتصارات في فلسطين . ثم استولى على السلطة ستنحت Setnekht (١٢٠٦ ـ ١٢٠٢ ق . م) ولما مات أورث ابنه رعمسيس الثالث (١٢٠٢ ـ ١١٧٠ ق . م) مملكة قوية ومتحدة ، وفي فترة حكمه نزلت أعداد كبيرة من الفلسطينيين الساحل الكنعاني بعد أن هزمهم في البحر . وبعد عهد رعمسيس الثالث برزت قوة هؤلاء الفلسطينيين وكانوا أعداء نموذجيين للمصريين وحلفائهم في أرض كنعان ، إلى درجة لم تسجل أحداث تاريخية تشير إلى غزوات مصرية باتجاه كنعان في ذلك الوقت بحكم وجودهم حاجزاً بين مصر وأرض كنعان .

هناك دلائل على وجود رعمسيس الثالث في فلسطين فقد وجد Macalister لقى تحمل اسم رعمسيس الثالث في لجيش ، كما وجد تمثال الإله (بتاح) Ptah من الذهب . وقد ذكر رعمسيس الثالث نفسه بعض المدن الفلسطينية حيث أشار إلى إدخال عبادة أمون ـ رع إليها . وبعد سنتين على حروبه الشمالية اضطر رعمسيس الثالث لمحاربة جيرانه الليبيين الذين هاجموا مصر . الأمر الذي يفسر سحب قواته من بلاد الشام والاعتماد على أتباعه لإخضاع العصاة وخاصة الفلسطينيين . ويبدو أن الموسويين هم الذين تولوا هذا الأمر .

وبعد وفاته تولى السلطة مجموعة من الفراعنة المصريين يسمون بالرعامسة - من رعمسيس الرابع وحتى الثاني عشر -

وصل حير - حيرو Her - Heru (١١٠٢ - ١٠٨٦ ق . م) إلى الحكم ، وسمى نفسه مُس امون أي ابن الإله أمون ، وهو من الأسرة الواحدة والعشرين ، وحسب التسلسل التاريخي التوراتي فقد عاصر داود وسليمان . ومعه بدأ الضعف يعم مصر . حتى استولى على السلطة الفرعون شيشنك (٩٤٤ - ٩٢٢ ق . م) وقد ورد اسمه بالتوراة (شيشق) وهو من أصل ليبي . ولما استقرت له الأمور في مصر هاجم أرض كنعان وسجل على باب الهيكل العظيم في الكرنك قتل وأسر ملوك ورؤساء ١٥٦ مدينة ومقاطعة من كنعان وقد صوروا مجرورين من أعناقهم بالحبال وعلى أكتافهم أسماء مدنهم .

يبدو من الوهلة الأولى عمق الاضطرابات واتساعها خلال هذه المرحلة ، الأمر الذي كان يستدعي من الفراعنة مواصلة الحروب في بلاد الشام ، فإذا شعر الناس أو المناوئون للفراعنة بضعف السلطة المركزية تمردوا . كما يُغري ذلك أعداءهم الحثيين في آسيا الصغرى فيبدأون بالتمدد تجاه شمالي سوريا . كما تدل بعض الرسائل - رسائل العمارنه - اتصال بعض أمراء الشام بالأشوريين أو بالبابليين .

رسائل العمارنة

هي عبارة عن رسائل تبودلت بين فرعون مصر امنحوتب الثالث وولده امنحوتب الرابع (اخناتون) وملوك غرب اسيا (ملوك المدن في بلاد الشام وملوك الكاشيين والميثانيين والأشوريين) وقد كتبت جميعها باللغة الأكدية - التي كانت لغة مخاطبة دبلوماسية عالمية تلك الفترة - عدا ثلاث رسائل كتبت باللغة الحورية . وقد نقشت على ألواح من الطين وبالخط المسماري . وسميت برسائل العمارنة نظراً لاكتشافها في موقع تل العمارنة (تخت أتون) عاصمة

أختاتون في مصر . وتلقي هذه الرسائل الأضواء على الأوضاع العامة في فلسطين وبلاد الشام ككل . وقد تم اكتشافها عام ١٨٨٧ م . وهي تغطي الفترة من ١٤٠٠ - ١٣٦٠ ق . م .

تبلغ عدد هذه الرسائل أكثر من ٣٠٠ رسالة منها ٨١ في المتحف البريطاني ١٦٠ في متحف برلين ، ٦٠ في متحف القاهرة .

ورد في معظم هذه الرسائل اسم العبيرو أو الخابيرو أو الأبيرو كمقاتلين أو « خارجين عن القانون وسلطة الفرعون والملك » .

من هم العبيرو؟

العبيرو (الخابيرو) لفظة غير أكدية ربما استقرت في الأكدية وغيرها من اللهجات العربية قادمة من السومرية وقد وردت بهذه القراءة في مخطوطات ماري ورسائل العمارنة وبعض المسلات التي أقامها المصريون . ويرادفها لفظة Sa - Gaz (سا - جاز) في المصادر الأشورية والبابلية(1) - وأحياناً الحثية وتعني قطاع الطرق والمرتزقة .

وقد أطلق اسم الخابيرو لأول مرة على المحاربين من نارام - سن سنة (٢١٧٠ ق . م) من ملوك السلالة الأكدية القديمة ويذكر الإسم ثانية في رسائل (ماري) في القرن الثامن عشر ق . م والواح نوزي في القرن الخامس عشر ق . م وهذا يدلل أن جذور حركات الخابيرو بدأت في العراق ولم تأت من مصر .

ظهر مصطلح خابيرو Ha - bi - ru في رسائل العمارنه بعد قراءة النصوص بالأكدية وبالخط المسماري كما ظهر مصطلح سا - جاز Sa - Gaz وهو يتطابق مع الخابيرو أو العبيرو أو الأبيرو ، وقد اهتز الباحثون التوراتيون طرباً وظنوا أنهم وضعوا يدهم على مادة تاريخية هامة تؤكد حقيقة توراتية وهي وجود «العبريين » . فالباحث (إدوارد كامبل) Edward F. Campbell يطابق كلمة

(1) The Assyrian Dictionary Chicago 1956 Vol 6

خابيرو Hebiru مع كلمة Hebrew فيخرج بالنتيجة المتسرعة والفجة أن الخابيرو هم العبريون ؟!

استعمل اسم العبيرو - في رسائل العمارنة - مع صيغة الفعل الأكدي الذي يعني يعمل to do أو « يشتغل » ، وفي الجملة يمكن أن تعني شيئاً يشبه العمل «عبروا » أو ببساطه ليصبحوا عابيرو (عبيرو) إلى أن يصبح المعنى « هرع وأخذ جانب العبيرو » . وبدلاً من مصطلح العبيرو السطحي الذي يعني خروجاً على القانون فإن المعنى الأدق والأكثر احتمالاً أن يكونوا « ثواراً » ، ذلك أنه « ليصبح عبيرو » « فليقاوم سلطة الملك » وهذا ما يفسر محاولة « تقليل أهمية العبيرو » في رسائل العمارنه . بينما « نشاط العبيرو » كبير جداً . فالمدن ثارت وأصبحت عبيرو. وقد أعطى (رب - عدي) أحد ملوك المدن في فلسطين هذا المصطلح معنى واسعاً ، داعياً كل الذين يثورون في وجه مصر بالخابيرو ووضعهم ضمن هذا الإطار . فالعبيرو ليسوا إذن عناصر أجنبية أتوا من الخارج - كما يرى البعض - بل هم من نبات الأرض والصحراء . إن ظاهرة الخابيرو تؤكد حالة السخط والكره الشديدين لاحتلال الفراعنة بلاد الشام ، ونتيجة الاضطهاد والقهر ، الواقع على عامة الناس من جهة ، واحتقار الحكام الذين نصبهم الفرعون للعامة من جهة ثانية أدت إلى حالات تمرد كبيرة ، هذه الحالات رسمها الحكام الذين ظلوا على ولائهم للفرعون من خلال نصوص رسائل العمارنة . (١)

ظهرت بعض الآراء والاستنتاجات عند عدد من الباحثين والآثاريين تتعلق بالعبيرو، فقد ظن أحدهم أن العبيرو هم جماعة من الأراميين ، ولأن هؤلاء كان يسميهم العموريون بالجماعات المتحدة والرفاق ، فقد أطلقوا على العبيرو اسم الجماعات المتحدة . لكن البرفسور (سايس) A. Henry Cayce رفض فكرة أن العبيرو هي ظاهرة اتحاد بين مناوئين للفرعون ، بينما يرى (بتريبه) W.M. Flinders Petrie أن كلمة خابيرو مشتقة من كلمة (حبرون)(٢) . لكن كوندر يرى

(1) Edward F. Campell , The Biblical Archaeologist Vol 23 No 1

(2)W. M. Flinders Petrie , History of Egypt P. 315

بأن كلمة خابيرو لا تعني الاتحاد ولا يمكن استخلاصها من الحبرونيين لعدم وجود حرف النون في الإسم(١) .

وجد الباحث Hugo Winokler وثيقة في Boghazkjöi في كابادونيا في تركيا تشير إلى وجود أعداد من الخابيرو تقوم بأعمال مناوئة لفرعون مصر وسلطته . ومما لا شك فيه فلقد استغل الحثيون والبابليون وجود العبيرو وقدموا لهم المساعدات لإضعاف سلطة الفرعون ، خاصة بعد عودة تحتمس الرابع من سدوم Sidom (٢) .

تساءل M. Virolleaud عن وجود فارق بين كتابة وقراءة Hapiri في رسائل العمارنه وكتابة وقراءة Aperu في الألواح المصرية (مسلة سيتي الأولى في بيسان) ، فمن الواضح أن الإجابة على هذا التساؤل سيجعل استنباط العبريين من اللفظة صعباً وسيكون أسس التشييد فوقها أصعب بكثير (٣) مما يظن .

مميزات رسائل العمارنة

تتميز الرسائل التي تهمنا وهي المرسلة من ملوك المدن إلى الفرعون بما يلي :

أولاً : تشير أهمها إلى حركة العبيرو والتي بدأت بالزحف من منطقة حلب وشمالي سوريا تجاه الجنوب ، حيث سيطر (عبد عشرتا) وهو ملك عموري غير مختلف فيه ، (فعشرتا) هي إحدى الآلهات الخاصة بالعموريين ، وقد أظهر ولاءه للفرعون في وقت تحالف فيه مع الحثيين ساعياً إلى تقويض سلطة الملك المصري ، بل إنه كان جاداً في إنشاء دولة عربية أمورية في سوريا تقف في وجه فراعنة مصر والحثيين .

---

(1) Claude Regnier Conder , The First Bible 1902 P. 169
(2) A.T Olmstead , History of Palestine And Syria 1931 P. 159
(3) Emill G. Kraeing , B. A. S. O;R Number 77 February 1940

ثانياً : رغم أن (عبد عشرتا) كان ملكاً سيطرت قواته على معظم سوريا الشمالية والوسطى إلاّ أن رسائل غريمه (رب - عدي) حاكم جبيل (بيبلوس) إلى فرعون كانت تصفه دائماً بالعبيرو ، الأمر الذي يؤكد أن الصفة السلبية للّفظ أعطي من قبل الحكام التابعين لفرعون .

ثالثاً : ظهرت خلال هذه الفترة خلافات عميقة بين ملوك المدن أنفسهم ، فوشى أحدهم بالآخر عند الفرعون واتهمه بتهمة العبيرو .

رابعاً : تبدو في مرحلة بدأ التمرد يظهر عند بعض الملوك الأتباع فكانوا يعصون أوامر الملِك أو مندوبيه إذا اصطدمت بمصالحهم .

خامساً : إن حركة الخابيرو تظهر للمراقب كحالة اجتماعية عامة نتيجة الوضع الاجتماعي والسياسي .

محتوى الرسائل

جاء في رسالة (لعبدي خيبا) ملك القدس ذكرٌ لتحركات شخص اسمه اينخانو Enkhanu ويذكر فيها كيف أن هذا الثائر قد استولى على حامية للملك في المنطقة . وتصف الرسالة الأخطار المحدقة بالمنطقة من كل جانب ويطلب من سيده الفرعون إرسال قوة . . فالخابير قد نهبوا جميع أراضي الفرعون ومقاطعاته ويختم الرسالة بالقول : إذا ظل جنود الملك في فلسطين ، فالبلاد ستكون هادئة موالية للملك(١) .

ويخبر الفرعون في رسالة أخرى عن الأوضاع الأمنية المنفلتة وسيطرة الخابيرو على معظم الأراضي وعن الخطر الداهم الذي يهدد القدس(٢) . ومن أن ميلكيلو وشواداتو قد حصلا على مرتزقه من مناطق جيزر وجمتي وجنود من

(1) Samuel A. B. Mercer , The Tell el - Amarana Tavlets Vol 2 No 286 P. 706 -708
(2) Ibid Vol 2 No 289 P.P. 718 - 720

كيلتي حيث تم غزو أراضي مدينة (روبوت) . كما أن مدينة تابعة للقدس اسمها (بيت نينورتا) قد سقطت بأيدي أهالي كيلتي . ويؤكد على سيده بضرورة إرسال النجدات قبل أن تذهب البلاد كلها إلى الخابيرو [١] . وفي رسالة من (عبدي ملكي) إلى سيده الفرعون يخبره فيها عن التحاق حاكم حاصور بصفوف الخابيرو[٢] .

مشكلة الخابير ـ السا ـ جاز ، والتي تلقي رسائل العمارنه الأضواء عليها ، يمكن أن تكون قد حدثت لأسباب اقتصادية ، لكن الأسباب الاقتصادية ليست عوامل معزولة عن العوامل الاجتماعية الأخرى . ففي الرسالة (٩٥) والتي كتبها برياوازا Biryawaza أمير دمشق تحدث فيها عن وحدة الخابيرو وقوتهم . بينما رسائل (عبد ـ خيبا) تشير إلى ضم أراضي الملك أو ذهابها إلى الخابيرو [٣] .

أما المدعو موت ـ بعلو أمير بيلا فقد أعطى في الرسالة (٢٥٥) مثالاً واضحاً لحالة التجارة المضطربة ، حيث تشير الرسالة أن الفرعون أرسل مندوباً لاخباره على ضرورة حماية القوافل القادمة إلي مصر من بلاد الميتانيين . [٤]

إنّ تجاهل الأوامر الفرعونية من قبل ملوك المدن دليل على حالة العجز الذي وصلة الفرعون ، وتراخي السلطة المركزية شجع على العصيان والتمرد ليس فقط على الفرعون بل على أتباعه أيضاً لتبرز حالة الخابيرو كظاهرة ثورية . فهناك عدة رسائل من العمارنة يرفض فيها الأمراء إطاعة أوامر الفرعون أو وكلائه . فأمير عكا (زيتاتنا) Zetatna رفض في الرسالة رقم ٢٣٤ أمراً من سوتا Suta أحد مندوبي الفرعون . وفي الرسالة رقم ٢٤٥ يقر بريادا Biriyida وهو أمير آخر على عكا أنه أطلق سراح لبعايو أحد المناوئين لفرعون . وفي الرسالة ٢٨٦ التي أرسلها (عبدي ـ خيبا) أمير القدس إلى الفرعون يرفض فيها إقامة

(1) Ibid Vol 2 No 290 P . P . 720 - 722
(2) Ibid Vol 2 No 148
(3) Michael . W. Several P. E Q July - Dec 1972
(4) Ibid

معسكر قرب مدينته . وفي الرسالة ٢٧٠ يعلم ميلكيلو الفرعون أنه على خلاف مع المدعو يانهامو Yanhamu وأنه يطالبه بالفي شيكل فضة كجزية أو يرسل نساءه وأطفاله أماءً وعبيداً وقد كرر الطلب في الرسالة ٢٧١ . أما عبدي - خيبا فيشير إلى أن قوات الخابيرو تقترب من بيته[١] .

لم تنفجر الاضطرابات بشكل فجائي[٢] - كما يقول مايكل سفرل - فقد كانت قبل العمارنة وبعدها بزمن طويل واكبت الوجود المصري في بلاد الشام منذ أحموس وإلى ما بعد نخو .

المسلة الكبيرة التي وجدت في بيسان (بيت - شان) تصف انتصار سيتي الأول على تحالف مدينتي Hamath و (فحل) Pahel اللتان وقفتا ضد تحالف بيسان ورحوب Rehob وهذا الوضع يشابه التحالف ضد عبدي - خيبا حيث هوجمت القدس (أورشليم) بتحالف ملكيلو وتاجو مع شوارداتا .

نصوص الشرق الأدنى القديم تسجل صفحات من الاضطرابات التي كان يثيرها العبيرو (الخابيرو) لكن هذه النصوص قد تكون منحازة إلى جانب أعداء الخابيرو بحكم السلطة والإمكانات التي لم يكن العبيرو يمتلكونها . في رسالة من الأسرة الثالثة لأور تعود إلى (٢١٠٠ ق . م) تصف السا - جاز كشعب بدوي يتجاهل أوامر الملك - والملك يمثّل الآلهة في هذه الفترة - أما نصوص (ماري) فتصفهم كسارقين أو قطاع طرق وكذلك نصوص (نوزي) ١٥٠٠ ق . م والنصوص الحثية (١٦٠٠ ق . م) . وفي رسالة عبدي خيبا ٢٨٨ وصف عبيرو (لجيش) بالعبيد .

ومما يدل على وجود العبيرو إلى زمن أبعد من العمارنة الوثائق من حكم تحتمس الثالث التي تشير إلى تدمير يافا عن يد الخابيرو وعلى مسلة ممفيس التي تحيي انتصارات امنيوفيس الثاني Amenophis II في فلسطين . إشارة إلى مقتل ٣٦٠٠ من الخابيرو .

(1) Ibid
(2) Ibid

كانت مصر تسيطر على الطرق المهمة في فلسطين ، والمدن الرئيسية المذكورة في رسائل العمارنة تقع على هذه الطرق . مجدو ، عسقلان ، عكا ، جات ، جيزر، غزة . وطريق فرعي وسط المرتفعات من حبرون ـ شوارداتا إلى أورشليم ـ عبدي خيبا ، وشكيم ـ لبعايو ثم إلى مجدو وطرق رابطة من حبرون عبر لجيش وأخرى من أورشليم إلى عجلون .

وتعطي الرسائل التي مصدرها بلاد أخرى غير بلاد الشام ، بعض المدلولات عن القوى المؤثرة على التخوم المصرية فأوغاريت (رأس شمرا) كانت في مجال التأثير المصري حتى بداية عهد أخناتون . كما كتب بورنابورياش Burnaburiash ملك أشور إلى أخناتون بعد وقت قليل من موت أمنحوتب الثالث قائلاً : « كنعان بلادك » فما من امبراطور يسد الفراغ[(١)] .

الرسائل التي أرسلها (رب ـ عدي) أمير بيبلوس (جبيل) تشير إلى أنه كان يسيطر من شمال بيبلوس إلى الحدود المصرية ، لكنه تورط بعداء متواصل مع الأمراء الأموريين (العموريين) شرقي بيبلوس وشمالها لذا حاول إقناع الفرعون للتدخل بحجةأن العداء موجه أصلاً إلى الفرعون وممتلكاته . « لقد بدأت المناطق التي كان يسيطر عليها بالتقلص التدريجي لتدخل تحت سيطرة مناوئه الرئيسي عبدي ـ عشرتا ، حتى وقف وحيداً نهاية المطاف فاقداً كل شيء غير مدينته .[(٢)]

لقد ازدُري الخابيرو واستغل هذا الازدراء من قبل أعدائهم ، وحاول (رب ـ عدي) أن يظهر عدوه (عبدي ـ عشرتا) وكأنه لا يمثل إلاّ هذا النمط من الناس « قطاع الطرق والمرتزقة » . وقد جمعهم ـ كا يرى رب عدي ـ حيث تمكن من الاستيلاء على مدينتي Shigata و Ambi . وقد استعمل رب عدي مصطلح خابيرو مشيراً إلى عبدي ـ عشرتا نفسه ، وبهذا المعنى أيضاً يمكن أن يعطي مدلولاً أن عبدي ـ عشرتا ذو ارتباط عائلي أو اجتماعي بالخابيرو ، وبذلك يكون

(1) Michael W. Several , P.E.Q July - Dec 1972
(2) Edward F. Campbell The Biblical Archaeologist Vol 23 No 1

عبدي عشرتا ومن ثمه ابنه عزيرو Aziru قد جمعا الساخطين إلى جانبهما .

جاء في التوراة أن ملك القدس (أورشليم) أدوني صادق (سفر يوشع ١٠ : ١ ـ ٥) بينما في رسائل العمارنة كان ملك القدس (Uru - sa - lin) يحمل اسم عبدي ـ خيبا . ومن المحتمل أن الإسمين لشخصين مختلفين وفي فترتين متباينتين . لكن الباحث سايس Sayce له ترجمة خاصة ورأي متميز : حيث يترجم اسم عبدي ـ خيبا Abd - tob أو عبد العالي أو « خادم لشخص جيد » أو «خادم لشيء جيد » وبذلك يتطابق مع اسم (أدوني صادق) أي « السيد المستقيم» ، لذا نجد كلمة صادق ـ الكلام لسايس ـ في إحدى رسائل العمارنة حيث يقول الكاتب للفرعون : « لينظر إليّ الملك بعين الرضا » أو بصدق :

" Behold , the king is rihteous (Zaduk) towards me " (1) وبذلك يصل إلى استنتاجه أن عبد خيبا هو نفسه أدوني صادق !!

تبلغ الرسائل التي بعثها عبدي ـ خيبا إلى امنحوتب الرابع (اخناتون) سبع رسائل تتضمن طلب المساعدات أو شرحاً للأوضاع المضطربة أو يدافع فيها عن نفسه ضد الوشاة الذين اتهموه بخيانة الملك . فقد جاء في إحداها أن الخابيرو احتلوا القلاع والحصون ولم يبقوا أياً منها « لسيدي الملك » فقد دمروها جميعاً يقودهم توربازو Turbazu وهم الآن على أبواب (صيلع) ، كما قتل أحد خدم الملك المدعو زيمريدا Zimrida من لجيش على يد أتباعه الذين ثاروا ضد الملك ، فهل يرسل« سيدي » المساعدة ، وهل يبعث بجيشه إلى البلاد التابعة له ، وإذا لم تصل هذه القوات خلال عام واحد فكل البلاد التي « لسيدي » سوف تدمر . وقد ذكر في الرسالة ١١ : ماذا عملت من سوء : الناس يحبون الخابيرو ويكرهون الحكام . (٢)

وجه اخناتون في سنة حكمه الحادية عشرة قوة بأمرة (هاني بن مارير) ابن أحد ملوك كنعان ، وقد رحب كل من انتروتا ملك اخشاف وأرسل إليه أحد

(1) G. A. F. Knight Nile And Jordan P. 217
(2) Ibid

قواده المسمى (اندرا) ليكون في خدمته ، وفعل الشيء نفسه ملك حازور وشوباندا أمير من الجنوب . وقد قهر هذا الجيش تاجي Tagi وميليكلو Milkilu وفرض استسلامهما لاخناتون ، وتفيد الرسائل أن تاجي وميلكلو ذهبا إلى الفرعون وطلبا الصفح ، فعفا عنهما وأرجعت لهما مدنهما . [١] كما أن لابايا Labaia كان مخلصاً لفرعون لكن ابنه دوموبا Dumuia انضم إلى الخابيرو فأمر اخناتون عامله بيريديا Piridia باعتقال لابايا وإرساله حياً إلى مصر ، وقد أرسله بيريديا مكبلاً إلى مجدو تمهيداً لإرساله إلى فرعون لكن شقيق بيريديا الأصغر زوراتا Zurata حاكم عكا أخذه بعد أن تعهد بإرساله إلى اخناتون ثم أطلق سراحه .

استمر الخابيرو بالضغط على أتباع الفرعون فقتلوا ابني ميلكيلو وضربوا ممتلكات شوارداتا ووقفت مدن جيزر وعسقلان ولجيش إلى جانب الخابيرو[٢]. وأحياناً كثيرة كانت الأوراق تختلط نتيجة تغيير المواقف بسبب الظروف المحيطة ، إلى درجة أن بعض الحكام كانوا يتعاونون مع الخابيرو . فقد استأجر ميلكيلو وشوارداتا رجالاً من جيزر وجات وكلح وهاجما أرض مدينة (رباح) Rabbah فسقطت بيد الخابيرو بل إن أهالي كلح احتلوا مدينة بيت لحم التابعة لمنطقة القدس، فإذا لم يرسل الملك جنوده ، فستسقط البلاد كلها بيد الخابيرو . [٣]

كتب عبدي - عشرتا إحدى رسائله إلى فرعون من بلدة Irkat الفينيقية التي كان قد فتحها ولكن عاصمته كانت في منطقة العاصي العليا ، وكان يخادع كلاً من المصريين والحثيين لكي يتوسع في المنطقة ، فبينما كان يدعي الولاء لمصر يتظاهر بالتعاون مع الحثيين . وضمن هذه السياسة استطاع السيطرة على المدن الواحدة بعد الأخرى على الساحل وفي الداخل . كما احتل ابنه (عزيرو) قطنة

(1) A.T. Olmstead , history of Pälestine and Syria 1931 P. 187
(2) Ibid P. 189
(3) Ibid

وحماه ومنطقة دمشق ثم استولى على دمشق نفسها ، واستولى على ارواد وشيغاتا Shigata وأمبي Ambi والبترون وغيرها من مدن الساحل .

لقد غدت الخلافات بين الأمراء جزءاً من حالة التداعي أو هي نتاج للنظام العام الآيل للسقوط وكانت رسائل العمارنة الصورة الأنصع عن حالة الواقع ، فرسائل لبعايو أمير شكيم وابنه ورسائل عبدي ـ خيبا أمير أورشليم وبريدا أمير مجدو الذي ذكر في الرسالة ٢٤٤ أنه محاصر من لبعايو .

كان عبدي ـ خيبا في نزاع بادىء الأمر مع ميلكيلو أمير جيزر ، حيث اتهم كلاً من ميلكيلو وايليملكو Ilimilku في الرسالة ٢٨٦ أنهما تخاذلا وتسببا في إضاعة أرض الملك . كما اتهم عبدي ـ خيبا ميلكيلو وحماه تاجو أمير جات في الرسالتين ٢٨٧ ، ٢٨٩ أنهما احتلا روبوتا Rubuta التي كانت تابعة لأورشليم ، وفي الرسالة ٢٩٠ أضاف عبدي خيبا شوارداتا أمير حبرون إلى ميلكيلو ـ تاجو كمغتصبين لمدينة روبوتا وفي نفس الرسالة يذكر أن مدينة بيت لحم اغتصبت من قبل كلح ، وظهرت مدينة كلح في رسالتين من شوارداتا إحداهما تحمل رقم ٢٧٩ يتهم فيها عبدي ـ خيبا بأنه يحاصر المدينة وفي ٢٨٠ يعلم الفرعون أن كلح قد احتلت [1] !

إن دراسة رسائل العمارنة دراسة موضوعية ووضعها في الإطار العام للحضارة الشائعة تلك الفترة وتأثيراتها سواء المصرية أو حضارة وادي الرافدين أو بلاد الشام وبالأستئناس مع ما ورد في التوراة فإننا سنحصل على علامة ضوء واضحة تبين كنه وطبيعة الموسويين . فالسلطة المصرية تحكمت بقبضة حديدية على بلاد الشام زمن أحموس الذي طرد الهكسوس من مصر والفراعنة الذين أعقبوه وحذوا حذوه ، إلاّ أن القبضة الحديدية أصابها الصدأ مع مرور الزمن وتعدد نوازع وشخصيات الفراعنة لكن هذه الحالة استغرقت مدة طويلة ليست أقل من ١٥٧٣ أي منذ طرد الهكسوس إلى ٦٥٠ ق . م حيث بدأت الدولة البابلية امتدادتها في بلاد الشام . وظل الطابع العام هو السيطرة المصرية على كنعان

(2) Michael W. Several P. E. Q July - Dec 1972 - P 123

(وباعتراف الحثيين والبابليين أيضاً) . أما الفترة التي حكم فيها امنحوتب الثالث ١٤٢٧ - ١٣٩٢ وامنحـوتب الرابع (اخناتون) ١٣٩٢ - ١٣٧٦ ق . م وسـيـتي الأول . ١٣٥١ - ١٣٢٤ ق . م ورعمسيس الثاني ١٣٢٤ - ١٢٥٨ ق . م ومرنفتاح ١٢٥٨ - ١٢٣٨ ق . م فهي من أكثر الفترات سطوة وسيطرة عسكرية وهذه الفترة نفسـها هي التي يعتقد فيـها بدخول الموسويين إلى فلسطين حيث أن معظم الباحثين يعتبرون الخروج قد تم في القرن الثالث عشر ق . م أي في الفترة نفسها المحصور بين (امنحوتب الثالث ومرنفتاح) ، ومع هذا الواقع تكون الاستحالة مطلقة أن يكون هؤلاء القوم (الموسويون) مناوئين لمصر أو معادين لها ، فهم تحت رحمتها وفي « بيتها » . فإذا عدنا إلى التوراة (خروج ١٢ : ٣٧) حيث تذكر أن الذين خرجوا مع موسى ٦٠٠ر٠٠٠ من الرجال عدا الأولاد وضمن الظروف الآنفة الذكر أي هروب من وجه الفرعون بل ومطاردتهم !! جاز لنا التساؤل أين اختفوا وأين سكنوا !!! وإذا كان عدواً بهذه الضخامة فهل يعقل ألا تدون الحروب معهم ، والفراعنة دونوا حروبهم أحياناً مع عشرات من الأفراد على أطراف بلادهم ؟!

الرأي الأرجح المبني على الحقائق المادية أن هؤلاء الموسويين فصيل من الجيش المصري لهم دور خاص هو الاستيطان لقمع حركات التمرد دائمة الوقوع في بلاد الشام بدلائل :

أولاً : تشير اللقى والآثار المكتشفة في بيسان وجيزر ولجيش وتعنك وأورشليم وشكيم إلى وجود مصري قوي في هذه الفترة . ولو كان الفرعون ممن يطلب رؤوسهم لسهل عليه ذلك . ولو كانوا هم المسيطرون لظهرت آثارهم أو مخلفاتهم على الأقل .

ثانياً : يذكر التاريخ - المصري وغير المصري - بوجود عداء كبير بين الفلسطينيين والفراعنة وعداء بين الحين والآخر بين الأدوميين والفراعنة ، وهذان الشعبان عاصرا وتحاربا مع الموسويين فلماذا تذكر المراجع الفلسطينيين والأدوميين ولا تذكر الموسويين أو

العبريين أو الإسرائيليين !!

ثالثاً : إن المدن التي تذكرها رسائل العمارنة على أنها (خابيرو) أو تقدّم المساعدات للخابيرو هي التي تذكر التوراه أن الموسويين أو (الإسرائيليين) قد خربوها مثل : جيزر ، تعنك ، لجيش ، والقدس وشكيم ، عاي . أما المدن التي تقول التوراة أن الموسويين قد دمروها ولم يأت ذكر لها في رسائل العمارنة ، فيبدو أنها كانت خابيرو جماهيرياً وحكاماً ، لذا لم يرسل هؤلاء بالرسائل إلى الفرعون . وقد استهدفت هذه المدن أيضاً ومنها : أريحا وجدعون ، دبير .

ومن المظاهر الهامة لحركة الخابير أنهم من سكان الجبال والتلال التي من صفاتها المنعة وصعوبة الاقتحام على الأعداء وقد أشار إلى ذلك عبدي-خيبا في إحدى رسائله (١) .

ذكرت مدينة لجيش خمسة مرات في رسائل العمارنة وقد أرسلت من قبل ايابنيلو Iabniilu وزمريدي Zimiridi اللذان وقعا باسم (رجل لجيش) . ويشير زمريدي برسالة أخرى :(٢)

١- أعطت لجيش وجيزر وعسقلان الطعام والزيت وقدمت باقي المساعدات للخابيرو، .

٢- عبيد زمريدي تآمروا مع الخابيرو .

٣- يستنتج من الرسالة أن الفرعون شك بتآمر زمريدي مع سبيتي-بعليو Spiti - Bálu ضد مصر .

يبدو أن هذه المدن كانت متفقة في سياستها ، وقد امتدت من البحر في عسقلان إلى التلال القريبة من الخليل وشمال شرق القدس وكانت جيزر تقف

---

(1) Michael W. Several P.E.Q July - Dec 1972
(2) Olya Tufnell And Otheres , LACGISH Vol II 1940 P. 26

حارساً على الطريق المؤدي إلى مصر .(١)

يذكر عبدي ـ خيبا في رسالة أخرى سقوط زمريدي لجيش ، وبهذه الرسالة أسدل الستار على مدينة لجيش (تل الدوير) التي يبدو أنها أصبحت بيد الخابيرو ، وبدأت تخضع مدناً أخرى لصالحهم .

حاول الباحث (مكاليستر R.A.S. Nacalister عقد مقارنة بين أسماء المدن والملوك في كل من رسائل العمارنة وسفر يشوع ، حيث وجد تطابق أسماء المدن واختلاف أسماء الملوك مما يشير إلى :

١ـ أن الأسفار بما فيها يوشع كتبت بعد هذا التاريخ بفترة طويلة ، فاقتضى تذكر أسماء أو اختلاقها مما أوقع السفر في الأخطاء .

٢ـ قد يكون كتّاب التوراة قد حصلوا على معلوماتهم من الوثائق البابلية ، أي بعد مرحلة طويلة من انتهاء هذه الأحداث وخلالها قد حدثت متغيرات كثيرة لم يستوعبها هؤلاء الكتاب .

٣ـ إن عدم ذكر الخابيرو في الأسفار كافة يؤكد أن التوراة كتبت متأخرة حيث قل استعمال المفردة في الأدبيات المتأخرة وانعدمت كلياً في التراث البابلي والأشوري في فترة كتابة التوراة . وقد ساعد في ذلك أن اللفظة لم تكن شائعة في التراث المصري . والتعميم جاء فقط من ملوك المدن التابعين للفرعون .

زاد الأمر تعقيداً الاكتشافات التي تمت في Baghaz - Köi في منطقة خاتوشاش Khattushash عاصمة الامبراطورية الحثية والتي تشير إلى نشاط الخابيرو في المنطقة تماماً مثل نشاطهم في فلسطين .(٢) فكيف سيكون الخابيرو (العبيرو) هم العبريون ـ عند الباحثين ـ والعبريون « الإسرائيليون » لم يصلوا أبعد من جنوب دمشق في عصرهم الذهبي (داود وسليمان) بدليل الكتاب المقدّس » ؟!

---

(1) Ibid
(2) Oly Tufnell and Otheres , LACHISH Vol II 1940

الفصل الثالث

دلائل الوجود الفرعوني في فلسطين مجسّداً بالآثار

تشير التنقيبات التي شملت كل فلسطين والمناطق المحيطة بها إلى وجود المصريين كحكام على فلسطين منذ القرن الخامس عشر ق. م وحتى السادس ق. م، باستثناءات سيطر فيها الآشوريون أو البابليون . وفي خضم الحقائق الآثارية الصارخة التي بدأت بقلب مفاهيم التاريخ ، كان لزاماً على المنهج الصهيوني ـ اليهودي بذل الجهد والمال وتجنيد الباحثين من أطراف الأرض الأربعة ، لأيجاد الدليل ، ولو كان واهياً ، لتأكيد معطيات التوراة وإطروحاتها الفكرية . وقد نقب الأثاريون ومنهم منتسبو دائرة الآثار الإسرائيلية الرسميون في كل مكان ورد اسمه بالتوراة . . ومن أهم المواقع التي نقب فيها وعلى فترات ومن قبل بعثات مختلفة: عكا ، العفوله ، عرار ، تل الشيخ أحمد ، اشدود ، عسقلان ، بيت جبرين ، بيسان ، بيت شفاريم ، العبيدية ، تل الدوير ، جنين ، نابلس ، القدس ، تل العجول ، تل علي ، تل رأس العين ، تل الأساور ، عتليت ، بئر السبع ، تل بيت مرسيم ، بتل ، بيت لحم ، بيت شمس ، كهوف الكرمل ، دير البلح ، غزة ، صفد ، البحر الميت[1] . . وغيرها . ورغم الجهود الكبيرة التي بذلت لم يعثر على شيء يساعد الحركة الصهيونية في أطروحاتها . بل إن ما وجد يؤكد بطلان ما جاءت به التوراة ويوجب قراءة التاريخ قراءة جديدة وموضوعية .

ففي بيسان كما سميت بالعهود العربية وسميت سيتوبوليس Scythopolis في العقود الهلنستيه والرمانية والبيزنطية ، وهي التي عرفت في العهود القديمة

(1) Michael Av - Yonah , Encyclopedia Of Archaeological Excavation In The Holy Land Vol 1 P. 326

باسم بيت شان (أي بيت الإله شان الكنعاني) ، جرت تنقيبات عديدة ، وأهم ما اكتشف مجموعة لقى مصرية تحمل اسم تحتمس الثالث وقد أعاد بعض الباحثين هذه اللقى إلى امنحوتب الثالث والرابع . لكن الباحث W.F. Albright ارجعها إلى رعمسيس الثاني بينما أعادها B. Mazar إلى عهد مرنفتاح [1] . كان هذا دليلاً أيضاً يضاف إليه دليل رسائل العمارنة التي تؤكد صلتها بكل من امنحوتب الثالث والرابع .

دخلت بلاد الشام كلها في الامبراطورية المصرية منذ عهد أحموس من السلالة الثامنة عشرة ، وكان أحموس قد طرد الهكسوس ولحق بهم إلى سوريا موطنهم الأصلي . لكن السيادة المصرية على بلاد الشام لم تتوطد بشكل كامل إلاّ بعد قيام تحتمس الثالث (١٤٩٠ ـ ١٤٣٦ ق . م) بست عشرة حملة حربية ، وتتصف الحملة الأولى وهي أهمها بسقوط (مجدو) في ١٤٦٨ ق . م حيث واجه الجيش المصري تحالف ٣٥٠ أميراً معظمهم من الأموريين . لكن بفعل حركات الخابيرو وقبل وفاة امنحوتب الرابع (اخناتون) خرجت فلسطين عن طاعة مصر [2] وظلت حرة حتى السنة الأولى من حكم سيتي الأول (١٣١٧ ـ ١٣٠١) من السلالة التاسعة عشرة . وأظهر رعمسيس الثاني من السلالة نفسها جانباً من الروح الحربية ، حتى وصلت حملاته إلى بيروت وعلى بعد بضعة أميال شمال هذه المدينة عند مصب نهر الكلب نقش كتابات في الصخر الكلسي .

كما عثر على عدد من القبور المصرية المنحوتة في بيسان (بيت شان) وعمان (ربة عمون) . ويرجع تاريخ القبور في بيت شان إلى ما قبل القرن الثالث عشر ق . م أما القبور في عمان فتعود إلى ٩٠٠ ق . م [3] .

أما في (نهاريا) في الجليل فقد وجدت مجموعة من اللقى الحيوانية

---

(1) Ibid P. 213

(٢) فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ص ١٤٤

(3) Herbert G. May , Culture And Consciene P. 144 - 145

والطيور والجرار على النمط المصري وتعود إلى القرن الخامس عشر ق . م . وبين تل أبيب ويافا عثر على آثار تعود إلى الهكسوس وأخرى تعود إلى عهد رعمسيس الثاني . ومعظمها من القطع الذهبية والفضية [١] . وأثناء التنقيب في السامرة وفي المكان المسمى تل سبسطيا تم العثور على زجاجيات وفخاريات مصرية مكتوب عليها بالهيروغليفية [٢] . كما اكتشف S. Fisher مسلة سيتي الأولى في تل الحصن قرب بيسان حيث يقرأ في السطر العاشر كلمة عبيرو وقد كتبت المسلة بالهيروغليفية [٣] أيضاً .

وجد الباحث والآثاري دونكان J. Garrow Duncan في تعنك (قرب جنين) لقى تعود إلى الفترة من ٢٠٠٠ ـ ١٣٠٠ ق . م وهو عصر ما قبل الموسويين فالأسوار أمورية والبناء يعود إلى تحتمس الثالث . كما عثر في تل زكريا (سكوه في التوراة صموئيل الأول ١٧ : ١) على لقى فخارية وبعض الآثار المصرية [٤] .

وهناك أحداث تاريخية جرت في فترة لاحقة على دخول المجموعات المصرية المنسوبين إلى موسى ، وتذكرها التوراة تؤكد أنهم مصريون :

أ : زواج سليمان من ابنة فرعون ، واحتلال جيزر ـ من قبل الفرعون ـ وتقديمها هدية الزواج لسليمان . فمن المعروف أن جيزر كانت تشكّل ثقلاً مهماً في عمليات التمرد على سلطة الفرعون وأعوانه وخاصة في مرحلة الخابيرو ، لذا جرى إخضاعها بقوة مباشرة من الفرعون وقدمت هدية لسليمان . وإذا كان سليمان قد تزوج ابنة الفرعون كما جاء في (الملوك الأولى ٣ : ١) فإن ذلك يؤكد أن سليمان هذا مصري . فالأعراف المصرية لا تسمح بزواج بنات الفراعنة من غرباء ،

---

(1) Sh. Yeivin , A Decade Of Archaeology In Israel 1948 - 1958
(2) Herbert G. May , Culture And Cinscience P. 196
(3)W.F. Albright , B. A. S. O. R Number 125 February 1952
(4) J. Garrow Duncàn n Digging up Biblical History Vol 1 P. 181

وليس من دليل أو إشـارة في اللوائح المـصـرية تدل على أن أياً من الفراعنة قد زوج ابنته من غير الوسط المصري الحاكم . (١) أما الفراعنة فقد تزوجوا من غير المصريات . والدلائل الآثارية كثيرة على ذلك . وحـتى خبـر زواج Nikmad ملك أوغـاريت من إحـدى الأمـيـرات المـصريات ، عليه ما يدل أن الزوجة كـانت من الحريم أو الإمـاء . كذلك تؤكد رسائل العمارنة أن الملك البـابلي Kadashmanbharbe حـاول الزواج من ابنة اخناتون لكن الأخـيـر رفض ، بل إن المـلك المصري Anasis رفض إعطاء إبنته إلى Cambyses ملـك فـارس . (٢) وعليـه لـم نقـرأ زواج أي أجنبي من مـصرية . فـهل نعـتبـر خبـر زواج سليمان الوارد في التوراة زواج أجنبي من مصرية على خلاف العادات والتقاليد . أم هو إذا صح زواج مصري مصري !!

ب : قـصـة هود الأدومي الذي فر من وجه داود إلى مـصـر (كـمـا تقـول التوراة) ليست أكثر من خلافات بين الحكام التابعين لمصر في فلسطين وعـموم بلاد الشام ، فمعظم هؤلاء الأمراء رغم عداواتهم فـيما بينهم عملاء للفرعون .

احتل مرنفتاح (١٢٥٨ - ١٢٣٨ ق . م) عسقلان ودمر جيزر كما تشير إلى ذلك المسلة التي اكتشفها بتريبه في طيبة عام ١٨٩٦ وعملية التدمير التي أحدثها فعل الاحتلال أوجد حالة تشرد لسكان هذه المدن وهذا ما يشير إليه الأثر وقد لا يشار إليها بهذا اللفظ « التشرد » لو أن المقصود هم الموسويون كما يقول بعض الباحثين ، فلو كانوا هم المقصودون لنعتهم بلفظ المطاردون أو المنبوذون سيراً على الأسلوب المصري .

كان الفرعون حير - حيرو Her - Heru (١١٠٢ - ١٠٨٦ ق . م) كاهناً أطلق على نفسه اسم مُس آمون ، أي ابن الإله أمون . وقد أبحر إلى فلسطين - وهي

(1) A. Malamat , Biblical Archaeologist Vol 21 No 4 1958 P 96 - 102
(2) Ibid

فترة وجود الموسويين في فلسطين - ووصل إلى الساحل الكنعاني باعتبار أرض كنعان إقطاعية تابعة للمملكة المصرية(١). ثم وصل إلى بيبلوس (جبيل) وهناك قابل ملكها زاكر - بعل .

دليل آخر على مصرية « الموسويين » هو النظام العسكري الذي اتبعه داود ، فقد طبق النظام العسكري المصري ، فكان جيشه مقسماً إلى ثلاث وحدات كل وحدة ٢٠٠ شخص ، وعلى رأس كل ٢٠ رجلاً ضابطاً . ووضع ثلاثين قائداً للجميع وهذا النظام عرف بالثالث ، حيث كل مجموعة مكونة من ٢٠٠ شخص وعشرة ضباط يقودهم (كولونيل) والجنرال يقود ثلاث وحدات يقودها ثلاث كولونيلات . وبذلك تشكل ٦٣٤ رجلاً ، وهو نفس النظام المتبع في مصر تلك الفترة(٢) .

والتعداد السكاني الذي قام به داود (صموئيل الثاني ٢٤ : ١ - ٩) كان على نفس الأسس التي طبقها المصريون . كذلك نظام فرض الضرائب كان عند داود مصري الطابع(٣) .

وقف رعمسيس الثاني على نهر الكلب قرب بيروت ، وهناك كتب على صخرة الفتوحات التي قام بها ، وقد غدت هذه الصخرة ذكرى للاشوريين والكلدانيين واليونان والرومان والعرب والأتراك والفرنسيين والإنجليز . وفي عام ١٢٨٨ ق . م كلف رعمسيس قائده سيلو Sillu بالذهاب على رأس اثني عشر ألف رجل لحصار فارس . وبعد فترة وجيزة عقد صلح بين رعمسيس وحتوشيلش Hattushilish ملك الحثيين . لكن خلال النصف الثاني من حكم رعمسيس الثاني (١٢٩٢ - ١٢٢٥ ق . م) أصبحت كنعان مرة ثانية حرة . ولما جاء ابنه مرنفتاح (١٢٢٥ - ١٢١٥ ق . م) كانت مناطق شمال سوريا تنعم بالهدوء بينما أعمال الاضطرابات تتفاقم في كنعان . فإذا أخذنا بالاعتبار أن الخروج -

---

(1) G. A. F. Knight , Nile and Jordan P. 243 - 244
(2)Ibid
(3) Ibid

التوراتي - عند معظم الباحثين قد وقع في زمن مرنفتاح أو والده رعمسيس الثاني تكون الصورة واضحة أن القادمين قد أرسلوا لضبط المنطقة لصالح مصر بالاستيطان فيها بدل ارسال القوات لضبط النظام كلما انفجرت الأوضاع .

ومن الأمور المدهشة التي ظهرت في القرن العشرين اكتشاف آثار مدينة في شمال سوريا اسمها يهوذا (يهوذا الثانية)[1] مما يؤكد تداخل كثير من الأحداث . فنظراً لموقع يهوذا الثانية ، شمال سوريا ، فقد أخذت جانب الخابيرو الأمر الذي دعا الفراعنة إلى إخضاعها وأسر حكامها ، فإذا ما ورد اسمها في الآثار المصرية وربما العراقية ظنه الباحثون يهوذا (منطقة القدس) .

لقد كانت السيطرة المصرية على بلاد الشام تشمل جميع مناحي الحياة ، العسكرية والاقتصادية والعلمية ، بل إن كثيراً من أهل مصر نمت لديهم عقدة التفوق بينما في المقابل ظهرت عقدة الدونية عند الحكام التابعين ، وهناك قصة مصرية تبين بوضوح هذه المشاعر تروى على لسان أمير سوري قالها لسفير جاءه من أرض النيل : « الإله آمون أسس الكون كله ، لكنه أقام في البدء أرض مصر التي قدمت منها . فمهارة الصنع خرجت منها لتبلغ هذا المكان حيث أنا والعلم خرج منها ليبلغ هذا المكان حيث أنا »[2] .

ملخص تاريخ الأسرات التي حكمت مصر

أرى أنها لا تخلو من فائدة عملية تلخيص مقتضب جداً للأسر التي حكمت مصر ، في نوع من القاء الضوء لتداخلها مع موضوعنا وتكرار ورود أسماء الفراعنة وأسرهم .

أولاً : عصور ما قبل التاريخ : وهي العصور التي تضم الجزء الأعظم من

---

(1) Ibid

(٢) جون أ . ولسون قبل الفلسفة ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ص ٤٧

تاريخ الإنسان على وجه الأرض ، منذ أول ظهور الإنسان قبل عشرات الألوف من السنين وحتى بدء استخدام الكتابة وسيلة للتدوين ، أواخر الألف الرابع ق . م .

ثانياً : بداية الأسرات : يضم هذا العصر عهد الأسرتين الأولى والثانية وهناك من يضع الأسرة الثالثة ضمن هذا العصر وكان قيام الأسرة الأولى في مصر في مطلع العصور التاريخية عندما تمكن (منا) من توحيد مملكة مصر العليا ومملكة مصر السفلى . كما أسس مدينة ممفيس واختار موقعها وسطاً بين مصر العليا ومصر السفلى .

ثالثاً : عصر الأسرة الثالثة حتى نهاية الأسرة السادسة وتقع فترة حكمها بين عامي ٢٧٨٠ ـ ٢٢٧٠ ق . م وقد أطلق العلماء : على هذا العصر «عصر الأهرام » فإلى هذا العهد تعود الأهرامات الكبرى وكثير من المعابد والمسلات والتماثيل . وقد عرف لقب فرعون في عهد الأسرة الرابعة ، وكان يطلق للدلالة على القصر الذي يسكنه الملك ويعني حرفياً « البيت الكبير » . ونظراً لتحاشي المصريين ذكر اسم الملك لقدسيته وعظمته ، كانوا يشيرون إلى القصر ويقصدون الملك نفسه . ولم يستخدم لقب فرعون للدلالة على الملك نفسه رسمياً إلاّ في عهد الأسرة الثامنة عشرة . وكان زوسر أشهر ملوك الأسرة الثالثة وباني هرم سقاره المدرج . ومن ملوك الأسرة الرابعة خوفو والملك خفرع والملك منكو ـ رع الذي تنسب إليه أهرامات الجيزة .

منذ أواسط الأسرة الخامسة بدأ يدب الضعف في جسم الدولة .

رابعاً : عصر اللامركزية الأول : دخلت مصر منذ أوائل عصر الأسرة السادسة فترة من الاضطراب والارتباك السياسي العام مزقت وحدتها السياسية بعد نهاية الأسرة السادسة ، فاستقل الحكام والأمراء ، ودامت فترة الانقسام هذه ما يقرب من ١٧٠ سنة

حكمت خلالها أربع سلالات (٢٢٧٠-٢١٠٠ ق.م)

خامساً: الدولة الوسطى. تمكنت طيبة في حدود ٢١٠٠ ق.م من السيطرة على البلاد وأعادت وحدتها وأقامت سلالة جديدة هي الحادية عشرة واستمر عهدها إلى ١٧٨٨ ق.م وقد تركت هذه الفترة آثاراً ضخمة منها المعابد الشهيرة بالإله آمون في الكرنك ومعابد الإله (رع) في مدينة الشمس هليوبوليس. كما انفتحت مصر في هذه الفترة ولا سيما في عهد الأسرة الثانية عشرة على الخارج واتصلت ببلدان الشرق الأدنى القديم. وقد عرف ملوك الأسرة الثانية عشر بأحد اسمين: امنمحت أو سنوسرت.

سادساً: عصر اللامركزية الثاني: «انتهت الأسرة الثانية عشرة عام ١٧٨٨ ق.م وانتقلت مقاليد الحكم إلى الأسرة الثالثة عشر حيث ظهرت الاضطرابات والفوضى، فتعرّضت مصر للاخطار، غير أن الخطر الأكبر جاء من الخارج ومن وراء الحدود الشرقية والشمالية الشرقية. حيث دخلت البلاد أقوام واستلمت مقاليد الحكم في مصر السفلى وقد عرفت هذه الأقوام باسم الهكسوس، وابتنى الهكسوس لهم عاصمة جديدة في الدلتا عرفت باسم افاريس واستمروا بحكم مصر حتى عام ١٥٧٣ ق.م تقريباً. ولم يستطع الهكسوس السيطرة على جميع أرض مصر، وظلّت طيبة في مصر العليا تتمتع بشيء من الاستقلال إلى أن قامت في طيبة سلالة جديدة هي الأسرة الثامنة عشرة وعلى رأسها أحموس.

سابعاً: الدولة الحديثة: تعتبر بداية الأسرة الثامنة عشرة في حدود ١٥٧٥ ق.م بداية عهد جديد في مصر استغرق أكثر من ستة قرون وانتهى بحدود ٩٥٠ أو ٩٤٠ ق.م وحكمت فيه أربع سلالات متعاقبة هي الثامنة عشرة، التاسعة عشرة، العشرون والواحدة والعشرون.

ثامناً: العصور المتأخرة: بدأت هذه العصور منذ أواسط القرن العاشر

ق . م وتذبذب خلالها النشاط المصري بين مد وجزر إلى أن ابتدأت مقاليد الحضارة والسيادة تنتقل منها إلى غيرها ، ثم انتهت بانتهاء مظاهر الحكم الفرعوني في عصر الأسرة الثلاثين مع الاحتلال الفارسي وفتح الاسكندر المقدوني لمصر وغيرها من أقطار الشرق في أواخر القرن الرابع ق . م .

وقد بدأ التفسخ في جسم الدولة الحديثة منذ عهد الأسرة الواحدة والعشرين وفي عهد الأسرة الثانية والعشرين سيطر الليبيون على زمام الحكم وأقاموا أسرة جديدة وفي عهد الأسرة الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين سيطر الاحباش على الحكم وقد صادف خلال هذه الفترة تعاظم قوة الأشوريين وتهديدها لمصالح مصر التجارية بالسيطرة على الساحة السورية ، مما دفع مصر إلى إسناد الدويلات في بلاد الشام ضد النفوذ الأشوري ، وكان من نتائج ذلك أن قام الأشوريون بقيادة اسرحدون في مطلع القرن السابع ق . م وأعقبه أشور بانيبال الذي وصل بجيوشه حتى مدينة طيبه ، وبعد انسحاب الأشوريين من مصر أصبحت مصر حليفة الدولة الأشورية ، حتى أنها بعثت بجيشها لمعاونة الأشوريين أثناء حصار نينوى لكنها سقطت على يد الجيوش البابلية والميدية قبل وصول الجيش المصري ، أي أن ذلك جاء متأخراً الأمر الذي فجّر العداء بين مصر والدولة البابلية الجديدة . وظلت مصر تحرض الدويلات السورية ضد النفوذ البابلي ، مما دفع نبوخذ نصر إلى القيام بهجوم على هذه الدويلات ومنها يهوذا .

وعندما ظهرت الدولة الأخمينية وقعت مصر تحت سلطتها ، ثم وقعت تحت حكم الإسكندر وبعد موته أصبحت مصر من حصة بطليموس .

القول أن (الإسرائيليين) هم جماعة من الهكسوس ، هو مجرد رأي تبناه بعض الباحثين التوراتيين دون أدلة يعتمدونها في استنتاجهم سوى التوراة التي تعتمد على الأسطورة بشكل كبير وواسع . بل إنه أصبح في حكم المؤكد أن هذه الأساطير مستقاة من آداب وتراث الآخرين سواء في بلاد الرافدين أو مصر أو بلاد الشام . فالأخذ بآراء مثل هؤلاء الباحثين دون روية وتمحيص هو تسليم « بظلامية التاريخ » ودكتاتورية الأفكار الغيبية التي تطمس في كثير من الأحيان الحقائق وتثقل العقل بالنقل أو تلغيه تماماً وتجعله عاجزاً عن تفسير ديناميكية الأشياء . فالتناقض في تسلسل ووجود كثير من الشخوص التوراتية جعل الكثيرين يتخبطون في مغالطات وتفسيرات للأحداث تخرجهم عن سماتهم العلمية وتزج بهم في أتون التبرير اللامنطقي وتجعلهم يدورون حول الحقيقة كي لا تبهرهم أنوارها وإشعاعها الخلاّق أو يغطون أبصارهم وراء تسعة وثلاثين سفراً من « الكتاب المقدّس » حتى لا يرون أمامهم إلاّ الوهم بل والشطط في الوهم والخداع .

فلو كان « الإسرائيليون » من الهكسوس وقد تبوأ أحدهم مركزاً مرموقاً لكانوا أول من طرد من مصر عام ١٥٧٥ ق . م على يد أحموس . لكن أن يظلوا - دون مبرر أو منطق مائتي سنة بعد ذلك ليخرجوا مع موسى فهو ما تعجز التوراة عن تفسيره . وإذا كان لهم وجود فعلي في مصر ، كشعب متميز ، فلماذا تعتم التوراة على وجودهم مدة ٤٣٠ سنة (منذ موت يوسف وحتى خروجهم مع موسى) فالتوراة تخلو من أية إشارة إليهم .

إن حدثاً ، كالخروج ، ضخّمه كتاب التوراة إلى درجة أدخل في عالم الأسطورة والخيال ، هذه الرواية الضخمة بأحداثها ومعاركها ونتائجها لم يذكرها أحد إلاّ كتاب التوراة ، فلا أثر يشهد على ذلك ولا لوح ولا حجر ولا حوليات ولا ورق بردى « فحتى الألواح التي نقشها الله لهم (خروج ٢٤ : ١٢) لم يرها أحد ، والموسويون كما تصفهم التوراة يعرفون النقش على الحجر

والمعدن (خروج ٢٨ : ٩ - ١٣) فإذا أخذوا الهة الغير وأساطيرهم وآدابهم وفنونهم فكيف لم يقلدوا الآخرين في الكتابة والرسم ؟

إذا أردنا دراسة السومريين وتاريخهم (الألف الرابع ق . م) فأمامنا مدن شاخصة ولغة لها عمق حضاري بعيد الأغوار . والحال نفسه بالنسبة (للأكديين (الألف الثالث ق . م) . وماري عاصمة الأموريين (١٨٠٠ ق . م) سجّلت جزءاً من تاريخ البشرية بأكثر من ٢٠٫٠٠٠ رقيم والدولة البابلية الأشورية شاخصة أمام حتى فاقدي البصر والبصيرة . وحتى دويلات المدن في بلاد الشام بدءاً من حدود آسيا الصغرى شمالاً وحتى الحدود المصرية جنوباً تغني الدارس كلما زاد الجهد وتضافرت الجهود ، فهناك في حلب ، كركميش ، وما حولهما ما يؤكد تاريخ الحثيين والأموريين والأراميين ، وفي صور وصيدا وبيبلوس وبيروت ودمشق آثار كنعانية وآرامية ، وفي القدس وبلاطة وجنين وغزة وتل الدوير آثار مادية توشر الوجود الكنعاني والهكسوسي والفلسطيني فأين الآثار «الإسرائيلية»؟ !! في عمان « ربة عمون » وبيسان وجود على مدار التاريخ فأين هم العبريون ؟!! هذه البتراء عاصمة الأنباط وحتى سرابيط الخادم وسط صحراء سيناء نحت ونقش له مدلولاته الحضارية . فماذا قدّم الموسويون ؟ !

لقد ظنت التوراة حتى في ذكر اسم فرعون الخروج . . ألم يكن ذكره ذا أهمية ؟! فلماذا ذكر شيشق أو نخو وهما ليسا بأهمية فرعون الخروج - بالنسبة للموسويين ألا يحتمل أن إخفاء إسمه لعدم وجود الحدث ذاته فعلاً كما تورده التوراة في الأقل ؟ لقد تخبط الباحثون التوراتيون في تحديد هذا التاريخ - تاريخ الخروج - فمنهم من أرجعه إلى امنحوتب الثالث أو الرابع ومنهم من نسبه إلى سيتي الأول وآخرون إلى رعمسيس الثاني وغيرهم إلى مرنفتاح أو حتى رعمسيس الثاني عشر . . . والمرجح أن الأمر لن يطرأ عليه تغير طالما أن الباحثين يسعون لإثبات علمية الأسطورة ووضع جغرافيا وتاريخ لها .

لقد غالط الباحثون الواقع حينما حاولوا إيجاد موطيء قدم « للإسرائيليين» في التاريخ عندما زاوجوا بين كلمة عابيرو أو خابير أو ابيرو الواردة في النصوص

القديمة وبين « عبريين » الواردة ي التوراة . فالعبيرو لهم ذكر في اللوائح الآثارية منذ ٢١٠٠ ق . م وما قبلها أي حتى قبل وجود ابراهيم - كما تدعيه التوراة - كما ذكروا في الواح وجدت في مناطق لم تذكرها التوراة في مجال أساطيرها كآسيا الصغرى (تركيا) . والعبيرو كانوا ثواراً من (الأموريين) على ظلم الفراعنة ، بينما كل الدلائل تؤكد أن الموسويين فراعنة في الهوى والسياسة إن لم يكونوا جنوداً للفراعنة فعلاً .

إن الحبكة الروائية لقصة الخروج ينقصها الكثير من إعمال العقل . . فموسى « سليل المضطهدين » وحتى لو تربى في القصر الفرعوني - كما تدعي التوراة - يظل خارج الأطر الفرعونية وقوانينها ، وشخص هذه سماته لن يسمح له الدخول على فرعون أو مخاطبته مرات ومرات (خروج ٦ : ١١) . فإذا تم دخوله على الفرعون فهذا يؤكد صلته المباشرة بالفرعون والتي ترتبط بخطين : إما أن يكون من أقرباء الفرعون أو متزوج بإبنة الفرعون فإذا لم يكن موسى واحداً من الإثنين وجب إيجاد تفسير لما ذكرته التوراة عن دخوله وخروجه على الفرعون لعدة مرات .

تزوج موسى من ابنة رعوئيل (يثرون) كاهن مدين (خروج ٢ : ٢١ - ٢٣) وتذكر التوراة أنه تزوج أيضاً من تربيس بنت ملك الحبشة (العدد ١٢ : ١) ، وبعد موت موسى لم تشر التوراة إلى نسله بينما أعطت لأبناء هارون دوراً مهماً كرجال كهنة ، والتوراة وإن رسمت خيوط قصة زواجه بالمديانية فإنها تعتم تماماً على موضوع زواجه من الحبشية . فالتساؤل يظل مطروحاً كيف تزوج بنت ملك الحبشة ، وهي بالتأكيد ليست امرأة عادية يلتقيها على قارعة الطريق أو على بئر ماء ، وزواجه منها - وهو سليل المضطهدين - يثير احتمالات أن التوراة لم تورد الخبر صادقاً . . لكن هل من المعقول « عدم صدق الكتاب المقدس » ؟! إذن لا بد من وجود وسيلة ليخطب الفتاة ويتزوجها عنوة ، وهذا ما دفع ببعض المؤرخين إلى ترجيح فكرة وجود قائد عسكري فرعوني يدخل اسم موسى في تركيب اسمه قهر بلاد الأحباش وتزوج ابنة ملكها . . وربما يكون هذا القائد هو

موسى نفسه وبالتالي فهو فرعوني وليس له علاقة « بالإسرائيليين » وورود اسمه في التوراة نتيجة التلفيق والتزوير . وتظل معها الشكوك تحوم حول شخصية موسى هل هو مصري - فرعوني أم « إسرائيلي » هرب بقومه من ظلم وجبروت الفرعون ؟!

والتوراة لم تعط إجابة قاطعة ، فتصفه حيناً بالمصري كما جاء على لسان ابنة يثرون المدياني حيث قالت : في إشارة إلى موسى : « رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة» (خروج ٢ : ١٩) ، ولم تذكر التوراة اسم والد ووالدة موسى وجل ما ذكرته أن الوالد والوالدة من بيت لاوي (خروج ٢ : ١) . بل إن اسم موسى تلفه ظلال كثيفة من عدم اليقين ، فالاسم - موسى - كان شائعاً في مصر ومركباً عادة مع اسم أحد الآلهة المصرية مثل (طحوط موسى) (طحوطموس) وبتاح موسى . ومس امون . ويستوى المعنى للإسم إذا عرفنا أن كلمة موسى تعني ابن أو طفل فتصبح الأسماء المذكورة مركبة مع أحد الآلهة أي ابن الإله طحوط وابن الإله بتاح وابن الإله أمون .

يرى بعض الباحثين أن اسم موسى منفرداً وليس مركباً ناتج عن إسقاط لألهة أمون من الإسم بعد تبني ديانة أتون الأخناتونية . وكما فعل أخناتون نفسه حيث سمى نفسه (اخن آتون) بعد أن كان امنحوتب (أمون حوتب) . لكن الأرجح أن كُتاب الأسفار هم الذين أسقطوا الاسم الفرعوني الديني بعد أن استعاروا الشخصية والإسم الإنساني ، ويرى آخرون أن ابنة فرعون أعطته اسم موسى (أي الطفل) مجرداً لعدم معرفتها اسم والده . لكن مهما كان رأي الباحثين هؤلاء فقد يقترب أو يبتعد عن الحقيقة بقدر نسبي وفق السياقات التوراتية وتفسيرها تاريخياً . أما ما تقوله التوراة ان ابنة فرعون أعطته اسم موسى (موشيه) العبرية لأنها انتشلته من الماء فيتضمن الكثير من الأوهام :

أ : إن الصيغة المصرية موسى تختلف لفظاً ومعنى عن الصيغة العبرية (موشيه) والتي تعني المنقذ من الماء .

ب : إذا كانت ابنة فرعون هي التي أعطته الإسم (خروج ٢ : ١٠) العبري

الذي يعني المنتشل من الماء فهذا يثير التساؤل حول معرفة ابنة فرعون اللغة العبرية .

جـ: واللغة العبرية لم تكن موجودة في القرن الثالث عشر ق . م ـ فترة الخروج ـ وليس من دليل آثاري أو توراتي على وجود اللغة العبرية حتى حوالي القرن الثاني قبل الميلاد تقريباً كلغة معروفة ولم يبدأ أحد الإشارة إلى اللغة العبرية إلاّ بعد أن تبنى عدد من أنبياء اليهود وكتبتها (حوالي القرن الثاني ق . م) لهجة أرامية سميت « اللغة المقدسة » وهي التي عرفت تالياً باللغة العبرية . فكيف إذن تسمي ابنة فرعون (القرن الثالث عشر ق . م) لقيطها موسى بمعنى المنتشل من الماء ـ بالعبرية ـ إذا كانت العبرية غير موجودة بعد ؟

يرجح معظم الباحثين أن قصة الخروج وحسب التواريخ المثبتة في التوراة لو وقعت فستكون في زمن رعمسيس الثاني أو ابنه مرنفتاح ، لكن إذا عدنا إلى الأحداث التاريخية المؤكدة والتي لا لبس فيها والمثبتة آثارياً فإن قوة مصر العسكرية بلغت أوجها إبان الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، بحيث لا بد أن يكون الخروج وبالصيغة المذكورة في التوراة استحالة مطلقة . فبلاد الشام كانت تحت القبضة الحديدية للفراعنة الذين ضاقوا ذرعاً بالتمردات التي كانت تعم ولفترات طويلة . ولأن المتمردين كما هو مؤكد ، برسائل العمارنة ، من سكان البلاد فإن ذلك كان يخلق صعوبات في استمرارية الولاء لحكام مصر . لكن أي قوة ، ذلك الوقت ، لم تكن تستطيع تحدي سلطة الفرعون سواء أكانت في بلاد الرافدين أو بلاد الحثيين ، فالمواجهة المباشرة مع الجيش المصري كانت صعبة حتى لدول عظيمة ، لذا فقول التوراة أنه خرج مع موسى ٦٠٠ر٠٠٠ ماش من الرجال عدا الأولاد (الخروج ١٢ : ٣٧) وإذا أضيف إلى هذا الرقم عدد النساء والأولاد فسيصبح عددهم بالملايين وهذا ما لا يمكن الركون إليه لعدة أسباب :

أ : إن وجود هذا العدد الضخم من البشر في صحراء سيناء ولمدة أربعين

سنة (التيه) وهم في وضع مضطرب وقلق ومتنقل يخلق أزمة تموينية وغذائية وإسكانية لمحدودية موارد الصحراء .

ب : لو كان الهروب صحيحاً لتعذر معه اجتياز المعبر على البحر الأحمر بسهولة وبين ليلة وضحاها فهذا العدد يحتاج إلى أيام للعبور كما يحتاج إلى إمكانات وقدرة على توجيه وتحريك هذا العدد الضخم والذي معه لا بد من لحاق الفرعون بهم . وحتى لو استطاعوا التخفي في صحراء سيناء ، مع أن خط سيرهم - كما رسمته التوراة - كان بمحاذاة البحر وعبر طرق مأهولة (أنظر خارطة رقم ٣) فإن وصولهم إلى فلسطين سيجعلهم تحت رحمة القوات المصرية المتواجدة هناك .

جـ : فإذا ذكر الفراعنة على مسلاتهم وأبواب معابدهم انتصاراتهم الكبيرة والصغيرة ، فالغريب جداً ألاّ يشار ولو إشارة إلى عدو بهذه الضخامة ٦٠٠ر٠٠٠ ماش من الرجال عدا الأولاد . ثم إن الفراعنة الذين يعتقد الباحثون أن أحدهم هو فرعون الخروج (امنحوتب الثالث ، امنحوتب الرابع « أخناتون » ، سيتي الأول ، رعمسيس الثاني ، مرنفتاح) لهم آثار ونقوش في فلسطين ، ومنها آثار تذكر انتصاراتهم في معارك مختلفة دون الإشارة إلى عدو يحمل اسم « الإسرائيليين » أو «العبريين» .

إن قراءة متأنية وموضوعية لرسائل العمارنة ، والتي تعطي صورة عن الأوضاع السياسية والثقافية والدينية في بلاد الشام وخاصة فلسطين لا تشير من قريب أو بعيد إلى « إسرائيليين » متواجدين هناك قبل الخروج أو بعده ، كما أن كلمة عابيرو (خابيرو) الواردة في الرسائل ترد في كثير من الأحيان كصفة . . فتقول عبدي - عشرتا أصبح عابيرو أو أخذ فلان جانب الخابيرو وقد غطت الرسائل أنحاء بلاد الشام كلها تقريباً ومع ذلك لا نجد أياً منها يأتي على ذكر «إسرائيليين » أو « عبريين » .

يمكن وصف الوضع في بلاد الشام - زمن العمارنة - بأنه ثورة أمور

أشعلها الأمراء في شمال سوريا وانتشر أوارها جنوباً حتى الحدود المصرية ، وسيطروا على مساحات شاسعة من الأرض وعلى مدن مهمة ، وهددوا مدناً أخرى موالية للفراعنة . . ومع تداخل المواقع والخطوط بحكم الطبيعة الجغرافية لفلسطين فإن الفرز كان يبدو صعباً بين العبيرو وغيرهم ، ومع هذه الحالة تشوشت الأوضاع التجارية واضطرب حبل الأمن وبات الوضع العسكري المصري يعتوره الكثير من الخوف فيما لو وقعت مواجهة مع الدول المحيطة الكبيرة ، فكان لزاماً ضبط الوضع الأمني لضمان الوضعين الاقتصادي والعسكري . ومن هنا نرى تحركات الجيوش المصرية لقمع الثائرين من جهة وتحذيراً للحثيين والعراقيين من جهة ثانية .

وإذا كان تحتمس الثالث قد أكمل ما بدأه أحموس من كسر شوكة أعدائه المباشرين وفرض سطوته العسكرية على بلاد الشام فلقد كانت هذه البلاد قد امتصت حالة القهر وبدأت الحركة المناوئة منذ امنحوتب الثالث وبرزت على السطح زمن امنحوتب الرابع (اخناتون) . وفي عهد سيتي الأول رأى ضرورة إعادة إخضاع المنطقة والقضاء على الخابيرو . . فاحتل المدن الكنعانية ودمرها وأحرق بيوتها وهدم حصونها وأسوارها .

فمدن تل الدوير (لجيش) وعاي وأريحا وبيسان والقدس أخضعت و« طهرت » من الخابيرو الواحدة بعد الأخرى . . لذا لم يعد بعد ذلك التاريخ ذكر للخابيرو ، فمصر القوية ولقربها الجغرافي ضمنت ولاء الأمراء وملوك المدن في فلسطين وبلاد الشام ، حتى عندما كانت تتراخى سطوتها أمام قوة البابليين أو الأشوريين كانت تجد المؤيدين لها والتابعيين . وبشكل خاص أولئك الذين تمتد جذورهم إلى الموسويين .

استتب الأمر كلياً زمن سيتي الأول ، واقتضت الضرورة إعادة ترتيب المنطقة بعد حالة الفوضى التي وجدت زمن اخناتون . أما في عهد رعمسيس الثاني فقد أعاد توزيع أدوار الحكام في المدن والمقاطعات الشامية فعين الأمراء

(١) قضاه ١ : ١

الموالين ، وأسكن المجموعات الموالية في مناطق استراتيجية لتخدم الأهداف الفرعونية . وقد أكمل هذا الدور خلفه مرنفتاح . ولتأكيد ولاء هذه المجموعات للفراعنة كان لا بد من إظهار نمط من الشجاعة الأسطورية . هذا ما رسمته التوراة في سفر القضاه.

الفترة من سيتي الأول وحتى نهاية عهد رعمسيس الثالث تطابق ما يعرف بعهد القضاه ، وهؤلاء القضاه هم زعماء وقادة عسكريون يبرزون زمن المحن والشدائد أو في الحروب . وفي كثير من الأحيان تصل المبالغة في وصف أعمالهم حداً تدخل معه القصة تخوم الخيال ، فهذا شمجربن عناة يقتل ستمائة رجل بمنساس البقر (قضاه ٣ : ٣١) أما القاضية ديبورا فأعمالها « الخارقة » تصل حد السفه (قضاه ٤ : ٤) وجدعون بن يؤاش الذي كان يهلك البشر كالوباء ، فثلاثمائة رجل معه يذبحون عشرات الألوف (قضاه ٨ : ١٠) كذلك الأعمال الخارقة في حرب شمشون ضد الفلسطينيين (قضاه ١٤ : ١ . . .)

والحرب ضد الفلسطينيين تسلط الضوء على طبيعة دور الموسويين ، فمن المعروف أن رعمسيس الثالث قد حارب الفلسطينيين القادمين من ايجه وانتصر عليهم في معركة بحرية ١١٩١ ق . م . مما أرغمهم على النزول على الساحل الكنعاني الذي حمل اسمهم (صورة رقم ١) . ووجودهم على الساحل الكنعاني بامتداد الجنوب جعلهم في حالة تماس مع مصر من جهة وشكل خطراً على الوجود المصري في فلسطين وبلاد الشام كلها من جهة ثانية نتيجة الحد من حرية حركة القوات المصرية ، وبذلك شكّل هذا الشعب صيغة مشابهة لحالة الخابيرو . فهذا الشعب أصبح مأوى وملاذاً لكل متمرد على الحاكم المصري أو ملجأ لكل من يخرج على سلطة الحكام التابعين للفراعنة . وفي الوقت نفسه . استعدى عليه الموالون للفراعنة الذين شنوا حرباً متواصلة عليه ، وأعدى أعدائهم كانوا الموسويين في عهد القضاه وبداية الملوك .

إمعان النظر في سفر القضاه يعطي أكثر من مؤشر على أن الشخوص هم مصريون ، فصيغة ، الإله مصرية الجوهر ، الإله-الإنسان (الإله يهوه ذات

النوازع والميول والعواطف) أو هو آمون ـ فرعون أو مندوب الملك الناطق بلسان فرعون . فلننظر إلى بعض آيات هذا السفر : « وكان بعد موت يوشع أن بني إسرائيل سألوا الرب قائلين من منا يصعد إلى الكنعانيين . . »[١] . «فباعهم الرب بيد يابين ملك كنعان الذي ملك في حاصور ورئيس جيشه سيسرا . . .»[٢] . « وكان في تلك الليلة أن الرب قال له قم انزل إلى المحله »[٣] . فلو استبدلنا كلمة « الرب » في هذه النصوص باسم فرعون أو أحد قواده لكان المعنى أكثر واقعية وملاءمة .

المرحلة هذه (فترة القضاه التوراتية) اتسمت بالحركة العسكرية ، فوجود الفلسطينيين بموقعهم الاستراتيجي العازل بين مصر وأرض كنعان ووجود الأدوميين بوضعهم الجغرافي المحاذي لحدود مصر أيضاً ، وهم إما معادون للفراعنة أو غير مخلصين في ولائهم الأمر الذي استدعى ترتيب المنطقة ديمغرافياً لصالح الوجود المصري . ومن خلال إسناد مهمات جديدة للموسويين ، ودعمهم الدائم . ومع مرور الزمن ذاب الفلسطينيون كشعب في إطار الكنعانيين وانتهى دورهم السياسي وأخضعت آدوم .

إذا عدنا إلى الحوليات والوثائق المصرية الآثارية لدراسة هذه المرحلة (القضاه) لوجدنا الأدلة صارخة تؤكد السيطرة العسكرية المصرية على بلاد الشام كلها ، ففراعنة هذه الفترة وما قبلها وما بعدها تركوا الآثار الدالة على وجودهم ، في تل الدوير وبيسان وجيزر وعسقلان وبيروت مثلما تركوا المسلات والسجلات على أبواب المعابد .

تذكر التوراة ـ والتوراة فقط ـ ودون أي مصدر تاريخي آخر أن شاؤل أصبح ملكاً . . [٤]وبعد مقتل شاؤل وأولاده على يد الفلسطينيين أصبح داود ملكاً

---

(١) قضاه ١ : ١
(٢) قضاه ٤ : ٢
(٣) قضاه ٧ : ٩
(٤) صموئيل الأول ٨ : ٥

والاعتقاد الأرجع أن داود كقائد عسكري يأتمر بأمر الفراعنة تغلّب على الفلسطينيين فكوفئ بتعيينه حاكماً على مجموعة مدن في منطقة يهوذا منها القدس ، فلم ترد أي إشارة من مصر على وجود ملك يحمل هذا الإسم .

« دولتا » يهوذا والسامرة

كان الصراع بين أمراء وملوك بلاد الشام عميقاً وواسعاً ، نتيجة لمحاولات السيطرة على الممتلكات وتوسيع مناطق نفوذ الأمراء والملوك ومحاولة تدمير بعضهم البعض . وكانت النزاعات في بعض وجوهها خدمة لمصالح الفرعون واقتصاصاً من مناوئيه ، أو ربما تكون عملاً مقصوداً من الفرعون لتعميم حالة الضعف وترسيخه لتظل السيطرة الفرعونية على بلاد الشام أكبر مدة وأطولها . لذا لم يشهد التاريخ في الفترة الزمنية من القرن الخامس عشر ق . م وحتى القرن السادس ق . م قيام دولة قوية في فلسطين ، إلاّ إذا كان وجود مثل هذه الدولة أسطورياً ومن نسيج الوهم والخيال .

دأبت أدبيات الديانة اليهودية على اعتبار « إسرائيل » و « يهوذا » دولتين (لبني إسرائيل) انقسمتا بعد وفاة سليمان وكانتا قبل ذلك . دولة واحدة . فعندما تسلّم الحكم (رحبعام) بن سليمان الذي كان على خلاف مع أخيه (يربعام) [١] الذي كان يعيش في مصر (!!!) . ولما عاد يربعام بعد موت سليمان التف حوله عشرة أسباط من أصل اثني عشر سبطاً كان ضمن « دولة سليمان الموحدة» بينما ظل سبطان هما يهوذا وبنيامين على الولاء لرحبعام في القدس . [٢]

ومن الجدير بالذكر أن حكام يهوذا والسامرة وتسلسلهم مأخوذ بشكل أساسي من التوراة . كما أن سيرتهم اعتراها كثير من المبالغات الخارقة . فداود وإن كان قائداً عسكرياً اقتضت الظروف المحيطة لعب دور معين ، فإن ابنه سليمان لم يستطع الاحتفاظ بالمساحة (المتواضعة) التي أورثه إياها داود . أما

(١) الملوك الأولى ١٢ : ١ . . . وما بعدها
(٢) الملوك الأولى ١٢ : ٢٠

ما تورده التوراة من سيطرة سليمان على منطقة تمتد من العراق إلى مصر وحتى اليمن ، فمن باب الخيال ، وروح القهر والأماني ، فالتاريخ مدعماً بالآثار يؤكد أن حدود سليمان شمالاً كانت تتوقف عند حدود (حيرام) ملك صور (صديق سليمان) و (روزن) ملك دمشق الأرامي . بل إن ملوك (أرام دمشق) سيطروا على السامرة ويهوذا كما تشير التوراة ذاتها إلى ذلك (الملوك الأولى ١٥ : ١٨). أما جنوباً فلم تتجاوز (عصيون جابر) .

وردت بعض الأسماء لحكام السامرة (شكيم) مثل « عومري » و «أخاب» في بعض الوثائق والآثار لكنها لا تشير إليهم كملوك إنما يذكروا بصيغة مثل «بيت عومري » حيث ترجمها بعض الباحثين « عومري ملك إسرائيل ، بتأثير ما ورد في التوراة » .

كانت عاصمة الشمال بادئ الأمر في شكيم (قرب نابلس) ثم (ترصه) وأخيراً في مدينة السامرة (وهي سبسطية الآن) وقد اتخذ عومري السامرة مقراً له ثم خلفه أخاب الذي كان حليفاً لدمشق وصهراً لملك صور .

ويبدو أن أخاب قد بدأ يتوجس من تنامي قوة الأشوريين في الشرق فمد إليهم جسوراً لم تجد عند المصريين إلاّ الاستنكار . فأوعز الفرعون إلى القائد العسكري (ياهو) بالتمرد على سيده حيث قضى على سلالة عومري عام ٨٤٢ ق . م ، الأمر الذي لم يرق للأشوريين فغزوا السامرة وأسروا (ياهو) المرسومة صورته على مسلة الملك الأشوري شلمنصر الثالث والمشهورة باسم المسلة السوداء [١] حيث يظهر (ياهو) يقبل الأرض أمام الملك الآشوري ويقدّم له الجزية . وكان آخر حاكم من هذه السلالة هو (يربعام) الثاني . (٧٨٥ـ٧٤٥ ق . م) وهذه تناظر فترة ضعف الامبراطورية الأشورية (التي سبقت قيام تجلات بلاسر الثلاث ٧٤٧ـ٧٢٧ ق . م) .

ثم أن عشرة أسباط من أصل اثني عشر سبطاً كانوا موالين لحكام السامرة

---

(١) طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات الجزء الثاني ص ٢٩٢

سباهم الملك الأشوري سرجون الثاني (1) . سنة ٧٢١ ق . م ، ومع ذلك فـإن التوراة بكل فصولها لم تأت على ذكرهم أثناء وجودهم في السبي . كما أن جماعة السبي البابلي الذي تم على يد نبوخذ نصر لم يحاولوا الإتصال «باخوانهم » في نينوى وغيرها ولم ترد أخبارهم رغم أنهم يشكلون غالبية الأسباط .

لقد أفاض ملوك أشور في وصف حملاتهم ضد أقوام الشرق الأدنى وذكروا أسماء حكام الدول التي أخضعوها ولقبوا رؤساءها بالملوك إلاّ حكام السامرة لم يطلق عليهم تسمية ملوك بل « بيت عومري » (الكتابة على مسلة شملنصر الثالث وكتابة تجلات بلاسر الثالث) . وفي زمن شلمنصر الخامس حاصر الأشوريون السامرة ثلاث سنوات وسقطت في عصر سرجون الثاني الذي تسلم السلطة بعد موت شلمنصر الثالث . وقد عثر الخبير الآثاري بوتا M.Botta بين أطلال مدينة «سمأل » (زنجرلي) عاصمة الأراميين في شمال غربي سوريا عر مسلة سرجون الثاني نقشت عليها باللغة الأشورية والخط المسماري تفاصيل الحملة الأشورية على السامرة والتي انتهت بالقضاء عليها .

حددت التوراة المناطق التي نقل إليها سكان السامرة في زمن كل من تجلات بلاسر الثالث وسرجون الثاني وهي « حلح » و « خابور نهر جوزان » و«هارا » ومدن مادي . والمواضع الثلاث الأولى . تقع في منطقة حوض الخابور والبليخ عند منابعهما . فحلح كلمة أشورية تعني اسم مقاطعة أشورية قرب « تل حلف » في حوض الخابور شمالي سوريا . أما جوزان فهي « جوزانا » عاصمة إمارة بحياني الأرامية وهي قريبة من تل حلف . وأما خابور فهو اسم أكدي ، وأحد روافد نهر الفرات وقد سمته التوراة « خابور نهر جوزان » لتمييزه عن خابور آخر في منطقة بابل . أما هارا فهي حران الحالية . ويرى البعض أن المدن المادية (الإيرانية) التي نقل إليها سكان السامرة هي : همدان وما جاورها من قرى فيما يرى البعض أنها منطقة نهاوند وما جاورها .

(1) M. B. Rowbon , P.E.Q January - April 1953

استفادت (يهوذا) في القرن الثامن ق . م من انحسار المد العسكري الأشوري ، وحاولت الاقتصار في علاقاتها مع مصر . لكنها ظلت تؤدي الجزية للأشوريين . وفي زمن (حزقيا بن آحاز) (٧٢١ ـ ٦٩٢) توضحت العلاقات بين يهوذا ومصر ، واعتبر تحدياً لسلطة الأشوريين ، فقام الملك سرجون وابنه سنحاريب بعدة هجات على (أورشليم) ثم حاصرها سنحاريب سنة ٧٠١ ق . م ومع أن المدينة لم تسقط إلاّ أن حزقيا اعترف بسيادة الأشوريين وتعهد بدفع الجزية ، وظل الأمر كذلك حتى سقوط الدولة الأشورية عام ٦١٢ ق . م وقيام الدولة البابلية .

اختار (يهوياقيم بن يوشيا) . ٦٠٨ ـ ٥٩٧ ق . م معارضة بابل وتحالف مع مصر في عهد الفرعون (نخو) . ولما دحر نبوخذ نصر جيش نخو في كركميش ٦٠٥ ق . م دارت الدوائر على يهويا قيم حيث قضى عليه نبوخذ نصر سنة ٥٩٧ ق . م وعين مكانه (يهوياكين) ، إلاّ أنه مال إلى مصر فقاد نبوخذ نصر حملة لتأديبه ، فأسر يهوياكين وكثيراً من أتباعه وساقهم إلى بابل وهو ما يعرف بالسبي البابلي الأول ثم عيّن نبوخذ نصر « صدقيا » أحد أبناء يوشيا حاكماً على يهوذا كتابع لبابل ، لكنه وبتأثير مصر حاول العصيان فغضب نبوخذ نصر وأرسل حملة قوية حاصرت (أور ـ شليم) ورغم تدخل الملك المصري (حوفرا) ومحاولته نجدة تابعة (صدقيا) لكن ذلك لم يجد نفعاً حيث سقطت (أور ـ شليم) بيد نبوخذ نصر في ٥٨٦ ق . م وأخذ كثيراً من الناس أسرى إلى بابل وهذا السبي البابلي المشهور .

وتؤكد المصادر أن نبوخذ نصر أسكن المسبيين إلى بابل أخصب مقاطعاته ، مثل منطقة نفر « نيبور » التي كانت تعد من أغنى مناطق بابل ومنحهم أوسع الحريات في العمل وممارسة طقوسهم الدينية بل إن (دانيال) وهو من جماعة السبي الأول كان من المقربين إلى نبوخذ نصر (دانيال ١ : ١ ـ ٧) . وخلال وجودهم في هذه المنطقة تعلموا أساليب الزراعة والري . . » والتي ضمنوها في التوراة أيضاً .

لقد عثر المنقبون بين أطلال مدينة نفر على تقويم لأحد المزارعين السومريين فيه نصائح وإرشادات يوجهها هذا المزارع إلى ولده ، وفيها أفضل الطرق الواجب اتباعها في تنظيم وإدارة الشؤون الزراعية . وقد دونت هذه الوثيقة التي يرقى تاريخها إلى ما قبل أربعة آلاف سنة على رقيم من الطين يتكون من ١٠٨ أسطر بالخط المسماري واللغة السومرية .

كما خصصت عدة مواد في شريعة حمورابي (المواد ٥٣ـ٥٦) في زراعة النخيل والإرشادات التي تدور حولها .

ولما فتح كورش الفارسي بابل (٥٣٩ـ٥٣٨ ق . م) وجد هناك المهجرين من أسرى نبوخذ نصر (أسر ٥٩٧ وأسر ٥٨٦ ق . م) وكان هؤلاء قد ساعدوا المحتل الفارسي ، فكافأهم بالسماح لهم بالرجوع إلى فلسطين ، فاعتبرته التوراة المسيح المخلص (اشعيا ٤٥ : ١) وعمل اليهود بعدها عيوناً وجنوداً للفرس في بلاد الشام .

عادت يهودا إلى الوجود في الفترة الفارسية وهو العصر الذي تطورت فيه الديانة اليهودية تطوراً استمر حتى زمن المسيح . لقد كان الغموض يلف التاريخ التوراتي طيلة المراحل السابقة ، بل هناك استحالة من التأكد من حقيقة التاريخ التوراتي . فالتسلسل التاريخي مشوش ونصوص المصادر فاسدة ، خاصة الفترة التي أعقبت السبي ، فلا نعرف الهيكل التنظيمي زمن (زيروبابل) ولا نعرف دور عزرا ولا نعرف دور الولاية State الفارسية هذه ولا وضع الكاهن الأعلى بين سنوات ٥١٧ـ٤٤٤ ق . م وأيهما جاء أولاً عزرا أم نحميا وبالمختصر فإن المؤرخ سيجد نفسه مواجهاً عدة إشكالات الأمر الذي يجعل الموضوع التاريخي مستحيلاً .[1] رغم معرفتنا ، أن نحميا قد عاد زمن الفرس لبناء أسوار القدس وعزرا لبناء الديانة اليهودية و (زيروبابل) لبناء الإطار السياسي[2] ، لكن هل يستطيع كل هؤلاء الخروج عن الأطر التي رسمتها السياسة والدين والواقع

---

(1) W. F. Albright B.A.S.O.R. Number 53 Febrary 1943
(2) R.A.S. Macalister , A Century Of Excavation In Palestine P. 190

العسكري الفارسي ؟ ويفيد مخطوط وجد في الفتتاين في مصر على ورق البردي أن نحميا نجح أن يكون حاكماً على منطقة تابعة لملك فارس ، ويشير سفر نحميا (نحميا ٥ : ١ . . .) إلى الأتاوات الباهظة التي كان يدفعها اليهود «للملك العظيم »[١] .

أما على الصعيد الآثاري فقد تم الكشف عن بعض الأختام الفخارية تعود إلى الفترة الفارسية ، كتبت بالأرامية ، ومنها ختم عليه النجمة الخماسية التي تستعمل في السحر عادة، لكن كل ما اكتشف لا يعطي مؤشراً واضحاً على التاريخ اليهودي في الفترة الفارسية ، وإن كان يوضح ما كان اليهود يؤمنون به من أعمال سحرية اقتبسوها من الثقافة الفارسية[٢] . حتى التلمود البابلي وعندما كان يظن أنه قد اكتمل في القرن الخامس الميلادي ، فإنه كان في ذلك الوقت ينمو وتدرس بنوده على يد يزدجرد الأول وبتأثير من فيروز ومزدك[٣] .

(1) Herbert G. May , Bible AHas P. 31
(2) W.F. Albright Ibid
(3) Jacob Neusner , A History of The Jews In Babylonia 1970

الفصل الرابع

حضارة وادي الرافدين وتأثيراتها على بلاد الشام

مظاهر الاحتكاك الحضاري

لا شك أن الموجات التي خرجت من الجزيرة العربية خلقت مقومات مشتركة بين هذه الموجات سواء على صعيد الفرد أو المجتمع في كل من وادي الرافدين وبلاد الشام ، فالتركيب العرقي متشابه إن لم يكن متجانساً ، واللهجات المحكية هي من جذع واحد والعبادات كذلك كانت مشتركة في كثير منها ، إضافة إلى شيوع الفنون الأخرى سواء أكان في المجال الموسيقي أو الأدبي . وكانت أرض كنعان ـ وبلاد الشام عموماً ـ الجسر الحضاري الذي كان يربط بين مصر والعراق ، وبحكم الأوضاع العسكرية والسياسية التي كانت سائدة ، في مراحل مختلفة من التاريخ ، سهل الاتصال الثقافي بين الأطراف الثلاثة .

إن من أهم مظاهر الاحتكاك الحضاري ، أن اللغة الأكدية أصبحت اللغة الرسمية الدبلوماسية في كل من وادي الرافدين وبلاد الشام ومصر من حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد وحتى الثامن ق . م تقريباً ومنها انتقلت الديانة والتجارة وباقي المناحي الثقافية بمافيها تشريعات حمورابي إلى بلاد الشام ومصر . كما وجد في طبقة التنقيبات الثامنة في مجدو أربعون سطراً من ملحمة جلجامش كتبت باللغة الفينيقية [1] وهذا نتاج للتأثير الكبير الذي لعبته ثقافة وادي الرافدين في بلاد الشام . كما وجدت في أشدود مجموعة آثار تعود بتاريخها إلى

(1) Michael W. Several , P.E.Q July - Dec 1972 P. 130

الأشوريين ، ومنها حجر تم تحليل كتاباته وإرجاعها إلى سرجون الثاني (١) ٧١٢ ق.م .

وقد شاعت الأشهر البابلية إلى درجة استعملتها جميع القبائل العربية القديمة (البابليين ، الأشوريين ، العموريين ، الكنعانيين (الفينيقيين) ، الأراميين) ثم اقتبسها عنهم أتباع الديانة اليهودية بعد تأسيس الديانة هذه في بابل ولا زال الكثيرون يستعملونها حتى الآن . (٢)

إسم الشهر بالعربية	اللفظ البابلي
١ـ نيسان	نيسانو
٢ـ أيار	ايرو
٣ـ حزيران	سيمانو
٤ـ تموز	دوزو
٥ـ آب	آبو
٦ـ آيلول	أولولو
٧ـ تشرين أول	تسريتو Tisritu
٨ـ تشرين ثاني	ارح سمنا
٩ـ كانون أول	كيسليمو
١٠ـ كانون ثاني	طبتو
١١ـ شباط	سباتو
١٢ـ آذار	أدارو

ألقت التنقيبات التي جرت في الشرق الأدنى الأضواء على التاريخ

(1) Michael Avi - Yonah , Encyclopedia Of Archaeological Excavations P; 11

(٢) اسرائيل تاريخ اللغات السامية ص ٤١

التـوراتي ، إلى درجة أن نهـري دجلة والفـرات يسقيـان جنة عـدن التوراتيـة . . وهناك صلة عميقة بين الأدب الديني والأعراف الدينية البابلية والأشورية وما هو مسجل على صفحات العهد القديم [١] . وعندما تجيب التوراة عن أصل النشوء أو بداية الخلق تعتمد على وادي الفرات كأساس لنشوء الجنس البشري ، ومن الطبيعي أن كتّاب التوراة وقعوا على خط التماس مع البابليين [٢] . كما أن الديانة اليهودية تمت بصلة إلى وادي الرافدين أكثر مما تمتّ إلى الكنعانيين [٣] (وسنعود إلى بحث تأثير الديانة البابلية باليهودية في موضوع مطول تحت عنوان الديانة اليهودية) .

قاد الملك الأشوري أشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق . م) حملة إلى كركميش ولبنان حتى وصل البحر المتوسط وفرض الجزية على صور وصيدا وبيبلوس (جبيل) وارواد ومدن فينيقية أخرى . كما حارب ابنه شلمنصر الثالث ٨٥٣ ق . م تحالف ١٢ ملكاً وانتصر عليهم في قرقر على نهر العاصي .

كما قام سرجون الثاني سنة ٧٢١ ق . م بمهاجمة السامرة حيث وجدت أخبار الحملة في مكتشفات (دور شاروكين) خورسأباد) ، وتفيد هذه الحوليات أنه وصل إلى غزة ورفح على حدود مصر . وفي سنة ٧١٥ ق . م أرسل سرجون حملة إلى فلسطين وحدود مصر وفي ٧١٢ أو ٧١١ ق . م أخضع فلسطين ثانية ومنها عقرون وتل زكريا واستولى على أشدود وجعلها مقاطعة أشورية ، واجتاح خلفه سنحاريب ٧٠١ ق . م فلسطين ويهودا . [٤]

الاجتياح الأشوري لفلسطين والذي وصل إلى الحدود المصرية كان نتاجاً للتحالف السياسي والعسكري ، حيث أدى إلى تحفيز التحرك الأشوري في بلاد الشام أكثر ما كان فكرة مسبقة لدى الملوك الأشوريين للسيطرة . ففي زمن تجلات بلاسر (٧٤٢ - ٧٣٨ ق . م) وهو أعظم الفاتحين ومنشئ الامبراطورية

(1) Jastrow Morris , Hebrew And Babylonian Traditions P. 8
(2) Ibid P. 16
(3) Willia, F. Albright , Archaeoogy And The Religion Of Israel P.
(4)Herbert G. May , Oxford Bible Ahas P. 27 - 29

الأشورية، سيطر على جزيرة ارواد وشمالي سوريا وعلى الساحل الفينيقي [1] .
وتذكر وثائق كلح (نمرود) أن تجلات بلاسر فرض حصاراً على فلسطين ومنع دويلات بلاد الشام الأخرى من الاتجار مع فلسطين ومصر . وتفيد الحوليات والوثائق أن تجلات بلاسر استمال بعض حكام وملوك المدن الفلسطينية والسومرية بعد أن كان ولاؤهم لفرعون مصر ومن هؤلاء عزريا من يهوذا وحانون ملك غزة الأمر الذي لم يرض عنه الفرعون فحرّك عملاءه في المنطقة للوقوف ضد المتعاملين مع الأشوريين وعلى رأس هؤلاء وقفت دمشق والسامرة، الأمر الذي حدا بالملك الأشوري تجلات بلاسر إلى اجتياحهما حتى وصل إلى مدينة العريش ، حيث أقام مسلة حدد فيها حدود امبراطوريته ، وتدل المسلة التي ثبتها على الحدود مع مصر أن الامبراطورية الأشورية تمتد من بلاد الأناضول حتى الحدود المصرية .

تذكر الحوليات الملكية أيضاً أن قبائل عربية كانت مع ملك أشكلون [2] صديق الملك الأشوري وهذه القبائل تدعى اديبي - أيلو وتشير وثيقة أخرى أن هذه القبيلة « حارسة للحدود مع مصر » .

ولما مات تجلات بلاسر سنة ٧٢٧ ق . م عمت الإضطرابات في المنطقة وتدخل الفراعنة إلى جانب بعض الزعماء المحليين ، الأمر الذي أثار التمردات على السلطة الأشورية . وبعد أن تولى سرجون الثاني السلطة واجه تحالف الأمراء في بلاد الشام بدعم من مصر وكان على رأس هذا التحالف حالون ملك غزة وياوبيدي Yaubidi ملك حماه وقد انتصر على هذا التحالف في معركة مهمة في قرقر ودانت له سوريا وفلسطين حتى حدود مصر وقد اكتشفت أخبار هذه الحروب على لوح طيني اكتشف في أشور ١٩٤١ [3] .

جاءتنا أخبار حركة سنحاريب في فلسطين من حولياته حيث يمكن

---

(1) Iraq Vol 17 1955 P 123 - 128
(2) Hayim Tadmor , Biblical Archaeologist Vol 29 Number 3 1966
(3) Danial . D. Luckenbill , Ancient Records Of Assyria And BabyloniaVol 2 P.3

تلخيص أحداث سنة ٧٠١ ق . م (أ) كان ملك صيدا وصور (ايلو ـ لايوس) Elu - Laeus - من أنشط المحرضين على التمرد ضد الأشوريين ، لذا فر إلى قبرص مع بداية الزحف الأشوري . (ب) بويع سنحاريب ملكاً واعترف بسلطته من قبل جميع ملوك فينيقيا وفلسطين ، وقد حضر ميتينتي Mitinti ملك أشدود للتهنئة . (جـ) زحف الأشوريون بجيشهم عبر الطريق الساحلي حتى وصلوا إلى أشكلون بجوار يافا ، وهزمت يافا وبيت دجن (داجون) وأزور فغدت طريق أشكلون مفتوحة . (د) الخطوة التالية كانت عقرون Akron (خربة المقنع) ، وفي تلك الفترة وصل الملك النوبي قرب Eltekeh (تل الشلف) . (هـ) بعد انهزام الجيش النوبي رجع وحاصر عقرون .[1]

وبالنتيجة كانت أرض كنعان الطريق دائم الحركة للجيوش القوية والامبراطوريات الكبيرة ، ومعها لم يكن بالإمكان قيام دولة قوية في فلسطين بل وفي بلاد الشام كلها وهذا ما تؤكده السجلات والآثار والحوليات البابلية والأشورية والمصرية والحثية . فقيام دولة « أسطورية » في التوراة هو محض خيال . كما أن الدور الذي لعبه الموسويون في فلسطين أصبح مكشوفاً وواضحاً وليس له أي بعد حضاري أو قيمي .

---

(1) Hayim Tadmor , Biblical Archaeiologist Vol 29 Number 3 1966

الفصل الخامس

التنقيبات الآثارية في فلسطين

تتولى دائرة الآثار الإسرائيلية اليوم التنقيب أو الإشراف على أعمال البحث الآثارية في فلسطين ومنذ عام ١٩٤٨ ، كما كانت السلطات البريطانية تعطي الضوء الأخضر للبعثات الآثارية الغربية للعمل في فلسطين أو شرق الأردن باعتبارها - أي بريطانيا - الدولة المنتدبة بعد الحرب العالمية الأولى . وحتى زمن الامبراطورية العثمانية كانت تشهد المنطقة بعض النشاط الآثاري إلاّ أنه اتخذ الطابع السياحي .

أهم أثر اكتشف في المنطقة حتى الآن هو المسمى « حجر ميشا » أو حجر مؤاب قرب قرية ذيبان الواقعة في محافظة الكرك في الأردن . وتقع ذيبان (ديبون) على بعد ٢٠ كم شرق البحر الميت وحوالي ٦٤ كلم جنوب عمان على الطريق الموصل إلى الكرك ، وتقع قرب وادي الموجب (عرنون في التوراه) . وقد بدأ الاهتمام بالمنطقة عام ١٨٦٨ عندما اكتشف حجر مؤاب ومخطوط ميشا . ويعود تاريخ (ديبون) حسب رأي بعض المؤرخين إلى القرن الثالث عشر ق . م [١] . وهذا لا يبدو معقولاً حيث ذكرت ديبون في معبد الكرنك إبان حكم تحتمس الثالث وبذلك يمكن إعادة تاريخ ديبون إلى القرن الخامس عشر ق . م حسب رأي وليم أولبرايت في B.A.S.O.R No 125 Pq ولكن المنطقة كانت محتلة في العصر البرونزي المبكّر حيث ظهرت حضارة هذا العصر في مؤاب والأردن . وفي نهاية القرن الثالث عشر ق . م كان الأموريون قد انقسموا

---

(1) Fred V. Winnett , The Annual Of The A,merican School Of Oriental Research Vols 36 - 37

إلى ما يعرف بممالك المدن ومنها مملكتان : عشتروت (تل الأشعري حديثاً) والأخرى حشبون (حسبان حديثاً) وتقع على بعد ٢١ كم إلى الشرق في النهاية الشمالية للبحر الميت . كما ظهرت ثلاث ممالك : عمون وعاصمتها ربة عمون (عمان الحالية) ومؤاب وتبدأ من وادي حسبان أو وادي كفرين إلى وادي الحس . وأدوم ، وتبدأ من وادي الحسا إلى العقبة (١) .

ونصب مؤاب يتطابق في صناعته مع الأعمال الأشورية والكنعانية ـ الفلسطينية ، ويدل الأثر أن الملك ميشا قام به بأمر من ألهه كيموش تخليداً لانتصاره على عمري حاكم السامرة وولده أخاب اللذان أساءا إلى كيموش إله مؤاب (٢) .

الحروب التي خاضها ميشا ملك مؤادها هي من الحروب القليلة الموثقة والمكتوبة على مسلة حيث سجّل انتصاراته العسكرية ضد (بيت عمري) من السامرة ، ويصف الملك ميشا نفسه بالمخلص لمؤاب ، التي تعبد كيموش ، وبمقارنة ما هو مكتوب على حجر مؤاب مع ما ورد في سفر (الملوك الثاني ٣ : ١ ـ ٢٧) نرى تناقضاً في الروايات . ولما كانت رواية ميشا مؤكدة على النصب فهي أقرب إلى الصحة لعدة أسباب : (أ) لو أن أحداث التوراة صحيحة وأن عمري انتصر على ميشا واحتل أرضه لما استطاع الأخير إقامة النصب . (ب) إن التوراة كُتبت بعد الأحداث بحوالي ٣٠٠ سنة وهذا يجعل الكُتّاب أكثر حرية في التصرف بما يكتب . ويشير المخطوط إلى أن ميشا يعتبر أن « ماديبا » (مأدبا) هي من أرض المؤابيين (٣) .

ونقش مؤاب ، وهو عموري كتب بالفينيقية (الكنعانية) ويضم ٣٤ سطراً (٤) هذه ترجمته :

---

(1) Ibid
(2) Max Miller , P.E.Q January - June 1974
(3) J, Liver P.E.Q January - June 1967
(4) Palestine Exploration Society No 1 July 1871

١ـ أنا ميشا بن كيموش ملك مؤاب .

٢ـ أبي ملك على مؤاب ثلاثين سنة وأنا ملكت ،

٣ـ بعد أبي وأقمت بكركه[١] Karcha هذا النصب لكيموش ،

٤ـ بعد أن أعانني ومكنني من أعدائي وحقق أماني بأعدائي ،

٥ـ حاكم السامرة ، أساء لمؤاب أياماً كثيرة حتى غضب كيموش ،

٦ـ ولما جاء ابنه قال : سأنال من مؤاب

٧ـ فنظرت إليه وإلى بيته[٢] (أي بعين الغضب) فأبدته إلى الأبد . وكان عمري قد أخذ

٨ـ مأدبا وسكن فيها هو وابنه وابن ابنه ، أربعين سنة ، وكيموش يتسامح . ثم أرجعها .

٩ـ (لي) كيموش ، فبنيت مذبحاً لبعل في معان وأقمت محرقة من شجر الصنوبر وبنيت .

١٠ـ قرية ايم Kirjathaim . وكانت جماعة من بيت عمري في أرض عطرت Atroth

١١ـ فحاربت عطرت واستوليت عليها وقتلت كل المدافعين عن

١٢ـ الأسوار . فقرت عين كيموش ومؤاب . . . ونقلت الأسلاب

١٣ـ أمام كيموش . وأسكنت في قرية ايم أهل سيران[٣] Siran وأهل

١٤ـ صيرت Zereth . فقال لي كيموش أذهب وخذ نبه Nebo (اسم جبل) من يد بيت عمري

١٥ـ فسرت بالليل ، وحاربت من مطلع الفجر إلى الظهر حتى أخذته

---

(١) ربما تكون الكرك

(٢) يرد اسم عمري بصيغة بيت عمري . كما لم يرد بصيغة ملك . ولم يرد إطلاقاً اسم إسرائيل ومملكة إسرائيل

(٣) ربما الشراه

١٦ـ وقتلت منهم سبعة آلاف رجل ولم أقتل النساء
١٧ـ والعذارى قدمتهن لعشتر كيموش . وأخذت من كل أواني
١٨ـ يهوه وأتيت بها إلى كيموش . وكان ابن عمري قد بنى
١٩ـ يهص Jahaz (اسم مدينة) وسكن فيها أثناء حربه معي ، فطرده كيموش من أمامي ؟
٢٠ـ أخذت مائتي رجل معي من مؤاب وسيرتهم إلى يهص فأخذتها
٢١ـ وضممتها إلى ذيبان . وبنيت كركه وأسوار الحصن وأسوار
٢٢ـ المدينة وبنيت أبوابها وأبراجها
٢٣ـ وبنيت القلعة وأقمت السجن . . . داخل
٢٤ـ المدينة . ولم يكن داخل كركه بئر ، فقلت للشعب أجعلوا
٢٥ـ لكم أباراً في بيوتكم وأنا حفرت خندقاً بواسطة الأسرى من بيت
٢٦ـ عمري . أنا بنيت عرعر (اسم مدينة) وأنا حفرت أقنية إلى عرنن (نهر الموجب)
٢٧ـ أنا بنيت بيت باموت Beth Bamoth بعد أن تخربت وبنيت بصرى بعد أن كانت خراباً
٢٨ـ بخمسين رجلاً من ديبون . . . أضحت ديبون حاكمة وسلمت
٢٩ـ من أعدائي وبنيت
٣٠ـ بيت جمول Beth - Gamul وبيت دبلان ايم Beth . Diblathaim وأسكنت هناك
٣١ـ المؤابيين للسيطرة على البلاد كما سكنوا في حورون ايم Horonaim
٣٢ـ . . . فقال لي كيموش انزل لتقابلني فنزلت
٣٣ـ . . . كيموش في أيامي . . .
٣٤ـ . . . سنة وأنا

نقبت دائرة الآثار الإسرائيلية خلال عشر سنوات فقط من عام ١٩٤٨ - ١٩٥٨ في ١١٣ موقعاً في فلسطين ، ولم تستطع العثور على أي أثر يؤكد أطروحاتها في وجود أناس يسمون « إسرائيليين » أو « عبريين » . وما وجد من آثار يهودية تعود في أقدمها إلى القرن الثاني ق . م وهي الفترة التي تكونت فيها هذه الديانة . وكل ما وجد من آثار قديمة هي أمورية (كنعانية) أو بابلية أو أشورية أو مصرية أو فارسية أو يونانية أو رومانية [١] ومن أهم المواقع التي تم التنقيب فيها في فلسطين :

تل أبو حوام Tell Abu - Hawam قرب عكا . تم التنقيب في هذا التل عام ١٩٦٣ حيث عثر على أحجار يمكن أن تكون امتداداً لسور عكا الذي يعود إلى العصر البرونزي ، كما وجدت آثار مستوطنات تعود إلى ١٤٠٠ - ١٣٠٠ ق . م . [٢]

بيسان : وجد اسم بيسان في الكتابات الخاصة بتحتمس الثالث في المعبد العظيم لأمون في الكرنك ، وقد ورد اسمها أيضاً في تل العمارنة ، كما ورد اسمها في وصف سيتي الأول وأبنه رعمسيس الثاني في القرن الثالث عشر ق . م . وفي معبد بيسان وجدت مجموعة لقى مصرية [٣] .

وفي غرفة في (بيت شعاريم) عثر على قبر عليه كتابة عربية مشوشة خطت باليد ويمكن قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم [٤] » . كما اكتشف أثناء التنقيبات على قبور تحوي كتابات باللغة اليونانية والعربية والأرامية . وفي المقبرة اليهودية التي أرجعت إلى ما بعد القرن الميلادي الأول وجدت كتابات بالعبرية والأرامية . أما الكتابات التي وجدت على الجدران فقد كانت باليونانية والأرامية والعبرية [٥] . ومن الملاحظ أن الكتابات العبرية في بيت شعاريم قريبة من

---

(1) Sh - Yeivin , A Decade Of Archaeology In Israel 1960
(2) Michael Avi - Yonah , Encyclopedia of Arecheological Excavations In The Holyland P. 12
(3) Ibid P. 213

(٤) بنيامين مزر بيت شعاريم ص ١٣٢ (عبري)
(٥) المصدر السابق

الكتابات الأرامية واليونانية .

وفي منطقة أزور Azor (على بعد خمسة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من تل أبيب) وجد قبر يعود إلى عهد الهكسوس ، كما وجدت آثار تدلل على أنها كنعانية وترجع إلى القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد . كما اكتشفت في تل (بيت يارا) Tell Bet - Yarah عدة قبور تعود إلى العصر الكنعاني الوسيط .

عثر في خربة صالح الواقعة قرب (رامات راحيل) عام ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ على بقايا كنيس يرجع إلى العهد البيزنطي ، وقد تم الحفر تحت جدران الكنيس فعثر على آثار تعود إلى مراحل تاريخية مختلفة . كما قام الباحث (أ. بن دور) وبعده الباحث (م . دوثان) بالتنقيب في منطقة العفولة حيث عثرا على عشرين قطعة أثرية صغيرة كنعانية[١] .

وجد المنقب (الإسرائيلي) ي. أهارون أثناء التنقيب دليلين على أدوم . الدليل الأول لوحاً أرجعه المنقب إلى تاريخ ٧٠١ ق . م . والدليل الثاني لوحاً من رامات ـ النقب يؤرخ من ٦٠٠ ـ ٥٨٨ ق . م واللوح الثاني هذا عبارة عن رسالة إلى أحد قادة الحصون في عراد Arad والذي يأمر فيها بالانضمام إلى القوات التي يأمرها ضابط اسمه (نحمياهو) لإخضاع ايلشيا Elisha وهي قلعة تسمى رامات ـ نقب (وتبعد تسعة كيلومترات عن عراد) لمنع الأدوميين من الوصول إليها .[٢]

اكتشف الباحث ستاركي J.L.Starkey في موقع لجيش (تل الدوير) على نقش (Ostraca) في طبقة منخفضة من المدينة المدمرة . وبقراءة النقش يستدل على تبادل رسائل بين شخص اسمه (هوشعيا) وآخر اسمه (يوآش) ، والرسالة من هوشعيا الذي ربما يكون قائداً عسكرياً بينما قد يكون يوآش حاكم المنطقة ، وقد استدل على ذلك الباحث (جاك) J.W. Jack من تعابير التذلل والخضوع التي اتسمت بها الرسالة المكتوبة بالكنعانية[٣] . ويقول كاتب

(1) Sh. Yeivin , A Decade Of Archaeology In Israel 1948 - 1958
(2) Ibid
(3) N.R. Ganor , P.E.Q July - Dec 1967

المقال (جانور) R.N.Gajor أن الباحثين (تورسينر) Torcyner وستاركي أرجعا هذا المكتشف إلى عصر صدقيا الذي عاصر نبوخذ نصر اعتماداً على :

أ : أسماء الأعلام التي ظهرت على المنقوش كانت شائعة ذلك العصر .

ب : يستدل من المنقوش وجود نبي مارس عملية التشويش على السكان في المدينة .

كما يذكر النقش اسم (ياهو) بن الناثان وقد غادر إلى مصر . وقد استند البروفسور كورسينر إلى سفر (ارميا ٢٦ : ٢٠ـ٢٣) والذي يذكر أن يهوياكيم أرسل قائداً للجيش هو (الناثان بن عكبور) لاسترجاع النبي (أوريا بن شامعيا) من مصر ، فالإسم ياهو الوارد في النقش أصبح عكبور عند هذا الباحث والنبي غير المعروف أصبح أوريا . مع أن النبي أوريا في التوراة ظهر زمن (يهوياكيم) وليس صدقيا . واسم (الناثان بن عكبور) لا يتماثل مع عكبور بن ناثان . والنقش هذا يشابه في خطه حجر ميشا .[1]

إذا رجعنا مع اكتشافات Sellin في تعنك (قرب جنين) ، نجد الأواني الفخارية التي وجدها تشير إلى أنها مدينة كنعانية معظم العصور ، وقد دمرت على أيدي الفراعنة إبان حملة تحتمس الثالث ، كما اكتشف إثني عشر لوحاً مسمارياً تعود للملك عشتار ـ وأشور وفي إحداها أوامر بإرسال جنود وعربات لمساعدة ملك مجدو[2] .

أما جبعة فقد ورد اسمها بالتوراة بأشكال عدة : جبعة ، جبعت ، جبع ، جابع وقد رأى الدكتور وليم أولبرايت التشابة بين جبعة وتل الغول والتي تبعد حوالي أربعة أميال شمال القدس حيث تأكد له أن استيطان هذه المدينة كان كنعاني ثم فلسطيني [3] . وفي القدس وجدت كميات من الفخاريات والتي ترجع إلى العهود اليونانية والرومانية والعربية . أما بقايا الأسوار فتعود إلى

---

(1) N.R. Gonor , P.E.Q July - Dec 1967
(2) G.A.F. Knight , Nile And Jordan P. 219
(3) J. Garroz Duncan , Diggin Up Biblical History Vol 1 P181

اليبوسيين من ٢٠٠٠ـ١٦٠٠ ق.م حتى جبل صهيون فيرجع إلى الأموريين والكنعانيين[١].

سكن الفلسطينيون وقبلهم الأموريون منطقة تل الصافي (جات) وهي تبعد حوالي خمسة أميال إلى الشمال من تل زكريا ، وقد استدل المنقبون على ذلك من خلال مجموعة الآثار التي تم إيجادها فيها[٢].

وعثر في منطقة الناشبة (في التوراة مذبح) على تمثال للآلهة عشتار ، وأصبح مؤكداً أن سور المدينة يرجع إلى الكنعانيين[٣].

تم العثور أثناء التنقيب في بلدة (زرعين) على ما يعتقد أنه كنيس تحتوي أرضيته على فسيفساء وقد وجدت قرب المجاز مخطوطتان إحداهما بالأرامية والثانية باليونانية ، أما الأرامية فطولها ١٨ر١ م وعرضها ٦٠ سم تتضمن سبعة أسطر غير مستقيمة تنحدر ببطء إلى اليسار ، كما أن الأسطر غير متساوية الطول . ويرى الخبراء أنها تعود إلى سنة ٤٣٣م ، أما اليونانية فيبلغ طولها ١٨ر١م وعرضها ٢٧ سم . وتحتوي على خمسة أسطر غير واضحة البداية والنهائية ، وتعود الكتابة اليونانية إلى شخص يسمى بريانوس .

كما وجدت أيضاً وفي نفس الوقت مجموعة من المسكوكات تلقي ضوءاً على تاريخ الكنيس ، وهذه المسكوكات تعود إلى أزمان مختلفة . المجموعة الأولى تحمل اسم قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧م) . والثانية غير واضحة وقد تعود إلى قسطنطين : أو ابنه . أما الثالثة فتحمل اسم ثيودوسيوس Theodosius (٣٧٩ - ٣٩٥ م) . ومسكوكتان تعودان إلى عصر فلنتيناوس الثاني Valentinia-nus II (٣٨٣ـ٣٩٢ م) .

كما وجد وعاء عليه الطابع العربي مكون من طين ضارب إلى الصفرة وقطع من الحجارة .[٤]ولم يعثر على أي شيء بالعبرية في هذه المدينة

(1) Ibid P 200
(2) Ibid P 216
(3) Ibid P 218
(4) Eleazer L . Sukenki , The Ancient Synagogue Of Beth Al Pha P

(زرعين) .

شهدت الأعوام ١٩٢٦ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٢ ، ١٩٦٣ تنقيبات لعدة بعثات في المنطقة المعروفة في التوراة باسم (شلوه) ، ولم تعثر البعثات هذه إلاّ على أبنية كنعانية قديمة والأبنية الظاهرة تعود إلى العصر الروماني .(١)

تقع بيت مرسيم على بعد ثلاثين ميلاً على طريق مستقيم غرب حبرون (الخليل) وتعود ملكيتها إلى أهالي دورا (أدوريم بالتوراة) . وقد تم اكتشاف الأسوار والبوابة الشرقية لهذه المدينة القديمة ، كما وجدت فخاريات محروقة أمكن تحديد تاريخها وإعادتها إلى الألف الثالث ق . م وليس أقل من ٢٠٠٠ ق . م وقد بنيت على النمط الكنعاني ـ الأموري(٢) .

عثر على ثلاثة آلاف سلة من الكسر الفخارية في منطقة (بيت زور) والتي تحمل اليوم اسم (عين الدهروي) Ain - edh - Dhirweh والتي تقع عبر طريق حبرون (الخليل) ـ القدس ، وكل الآثار هذه تعود إلى الكنعانيين والهكسوس والفلسطينيين ، ومنها تماثيل ترجع إلى ١٦٠٠ ق . م كما وجدت بعض الأختام .(٣)

وإمعاناً في تزوير الحقائق نرى الباحث (وليم أولبرايت) يفسّر الكتابة على الحجر الذي اكتشفه B.Maisler وأرجعه إلى العصر الهلنستي ، حيث يقول أولبرايت [إن الكتابة واضحة وتقرأ : « يجآل ياهو ابن الملك » ومن الطبيعي ألاّ نعرفه ، لكنه يشبه يجآل ابن الملك شكنيا المذكور في أخبار الأيام الأول ٣ : ٢٣(٤)] مع أن النص التوراتي لا يشير إلى شكنيا باعتباره ملك ولكنه من نسل سليمان ومن المؤكد أنه ليس كل نسل سليمان ملوك . ومع ذلك يفسر حتى التوراة بما يخدمها .

---

(1)Marie - Louise Buhl , Shiloh 1969 P 60
(2) W.F. Albright , B.A.S.O.R. Number 23
(3) Ibid Number 43
(4) Ibid

عثر في عين دوق Ain - Duk قرب أريحا على أثر مهم مخطوط على الفسيفساء، وهو من بقايا كنيس يهودي ، ويعود هذا المخطوط إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادي . وقد أرجعه بعض الباحثين إلى سيمون آخر المكابيين بينما أعاده البعض الآخر إلى هيرود(١) .

كثيرة هي الروايات التوراتية التي تدعي تدمير المدن وحرقها على يد الموسويين ، ويبدو الهدف منها إظهار قوة وجبروت الموسويين وهم يعيشون حالة القهر الناتج عن السبي ، وبما أن التوراة ذاتها كتبت في جو السبي وضغطه النفسي فالاحتمال الأكثر رجحاناً أن ما ورد في هذا المضمار لا يعدو وهماً توهمه كتبة التوراة نتيجة الوضع النفسي هذا . وقد أوضح البروفسور الألماني (ارنست سيلن) Ernest Sellen ذلك عندما نشر نتائج أعماله التنقيبية في أريحا ١٩١٣ واصلاً إلى نتيجة أن الكنعانيين سكان مدينة أريحا قد تعرضوا للدمار ما بين ١٦٠٠ - ١٥٠٠ ق . م عندما كانت أحد المراكز الهامة للهكسوس . بينما حركة الموسويين لم تتم إلاّ في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وعليه فمن المحتمل أن الدمار الذي لحق ببعض المدن الكنعانية قد تم على يد الفراعنة ، أثناء مطاردة الهكسوس أو أثناء إخماد ثورات العبيرو (٢) . قد أكدت هذا الرأي الآثارية البريطانية (كاثلين كينون) Kathleen Kenyon التي قامت بالتنقيب حول مدينة أريحا في محاولة للعثور على أسوارها أثناء دخول يوشع - حسب رواية التوراة - وتدميره لهذه الأسوار فقد أفادت هذه الباحثة بعدم وجود أسوار تلك الفترة حول أريحا إطلاقاً ، فقد كانت الأسوار قد دمرت قبل يوشع بعدة قرون . (٣)

تمكنت بعثة تنقيب آثارية تابعة لجامعة تل أبيت وبمشاركة مجموعة من طلاب جامعة « فرايبورغ » الألمانية من اكتشاف أكبر قصر كنعاني ، وقد تم العثور عليه في منطقة « التل الكبير » في الجليل الغربي وقد أرجعه الأثاريون إلى

(1) B.A.S.O.R Number 58
(2) W.F Albright B.A.S.O.R Number 58
(3) Jerusale, Post 25 - 2-1990

٣٨٠٠ ق.م . وأرضية هذا البناء مزينة ببعض الرسوم النباتية والحيوانية كما اكتشفت بعض الأواني الفخارية المختلفة وأختام من الحجر [١] .

أثناء أحد مواسم التنقيبات في منطقة (تل السلطان) قرب أريحا وجد المنقبون مجموعة من الفخاريات تعود إلى العصر الكنعاني المبكر وتميز من هذه المكتشفات رأس تمثال فخاري يشبه النماذج التي وجدت في قرية عين غزال وتعود في ميثولوجيتها إلى الإيمان بأن الإنسان خلق من تراب ، وهذه الأفكار تتفق مع ما جاء في سفر التكوين بأن الله خلق الإنسان من تراب الأرض[٢] . فهل أخذ كتاب التوراة هذه الفكرة من الكنعانيين أم أن الكنعانيين قد أخذوها بدورهم عن سكان وادي الرافدين حيث كانت الفكرة شائعة في أساطيرهم ؟

كذلك وجدت مجموعة من اللقى والفخاريات في « بيت شعاريم » على نهر اليرموك وهي تشبه مثيلات لها اكتشفت في لبنان . كما وجدت بعثة فرنسية تمثالين : الأول في (صفد) والثاني في (بئر السبع) الأول مصنوع من الطين وله عيون جاحظة مستديرة وملتح لكن بدون فم أما الأذنان فقد ثبتتا بشكل دائري ، والأنف طويل نسبياً وقد أرجعه الباحثون إلى العصر النحاسي المتأخر . أما التمثال الثاني فكان لامرأة ، عينا التمثال غير واضحة وكذلك الفم . والأذنان خطا خطاً في الطين بينما الصدر كبير ويشكّل معظم حجم الجسم حيث يرمز إلى الخصب والغذاء والحليب[٣] .

وجدت دائرة الآثار الإسرائيلية نموذجاً لبيت كنعاني في منطقة (عراد) يعود إلى ٢٠٠٠ - ١٥٠٠ ق.م كما وجدت تمثالاً على شكل عجل في Beth Ya-rah وأوان فخارية تعود لنفس الفترة[٤] . كما وجدت بعثة أثارية من الجامعة

---

(١) صحيفة حدشوت (باللغة العبرية) ١-٨-١٩٨٩

(1)Treasures Of The HolyLand New York 1986 P. 48

(2) Ibid P 60

(3) Ibid P 98

العبرية في القدس عام ١٩٧٣ تمثالين لفتاتين في إحدى الغرف المكتشفة في (جيزر) على بعد عدة سنتميترات من أرضيتها وهما مصنوعان من الذهب ويعودان إلى الأنماط الكنعانية. وعثرت بعثة آثارية (إسرائيلية) على لوحة كنعانية في بيسان تمثّل أسد ولبوه تعود إلى ١٤٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م[١].

أصبحت لجيش (تل الدوير) عاصمة كنعانية في الألف الثاني قبل الميلاد، وقد ورد اسمها في عدة رسائل من رسائل العمارنة، وأثناء التنقيب فيها عثر على معبد للألهة «إيلات» Elat وهي إحدى الألهة الكنعانية ولقى أخرى كنعانية وأرامية[٢].

ووجدت بعثة بريطانية في (تل العجول) مجموعة من الجواهر الذهبية والفضية على الطراز الكنعاني، بعضها وجد في المدينة والبعض الآخر في القبور، وهي شبيهة بالجواهر المصرية. الأمر الذي يشير إلى التأثير المتبادل بين الكنعانيين ومصر القديمة ثقافياً ودينياً. وقد وجدت بعثة من جامعة بنسلفانيا الأمريكية قلادة ذهبية تعطي نموذجاً رائعاً لتقدّم صناعة الجواهر الكنعانية[٣].

وجدت بعثة آثارية مشتركة من الجامعة العبرية ودائرة الآثار الإسرائيلية مجموعة من التوابيت الحجرية وكلها كنعانية[٤] وتعود إلى الفترات من القرن السابع عشر ق.م وما بعدها، وحتى الآثار التي تعود إلى القرن الثالث عشر ق.م ـ فترة الموسويين ـ هي في معظمها كنعانية والقليل منها فلسطيني أو أرامي، وإلى هذه الفترة يعود تمثال رأس المرأة الذي وجد في أشدود. وقد أكّدت البعثة الأثارية من جامعة شيكاغو أن الرسوم الموجودة على هذه الفخاريات هي كنعانية[٥].

---

(1) Ibid P 104

(2) Ibid P 115

(3) Ibid P 122

(4) Treasures Of The Holyland New York 1986 P. 128

(5) Ibid P . 155

ألم يعثر المنقبون على أثار يهودية في فلسطين وغير فلسطين ؟ من المؤكد وجود بعض الآثار اليهودية لكن لم يعثر أحد حتى الآن على أي أثر أبعد من القرن الثاني ق . م أي أن أقدم أثر وجد يبعد عن العصر الذي عاشه موسى بأكثر من ألف سنة .

الفصل السادس

الآثار ذات الطابع اليهودي

إضافة إلى دائرة الآثار الإسرائيلية ، كمؤسسة أعطيت الطابع « العلمي » لتخدم هدفاً سياسياً في إثبات اطروحات التوراة « تاريخياً وأثارياً » تولى المسؤولون الصهيونيون أدواراً بدافع ذاتي محض أو أيديولوجي عقائدي وندبوا أنفسهم كباحثين أثاريين لهذا الغرض بالذات ، ومن هؤلاء الزعماء برز اثنان هما (موشي دايان) وزير الدفاع السابق و (يجئال يادين) نائب رئيس الوزراء والقائد العسكري المعروف .

قاد (يجئال يادين) بعثة أثارية إلى المنطقة العربية القريبة من البحر الميت التي تدعى (مسعده) والمعروفه لدي اليهود باسم (الماسادا) حيث يصف يادين العمل : « عندما وصلت البعثة إلى غرفة الحمام (!!) وجدت ثلاثة هياكل عظمية الأولى لرجل في العشرين من العمر وبجانبه مئات من القطع الفضية التي تزين بها الدروع عادة ، وجعبة سهام ، وكتابات عبرية ، وبالقرب من هذا الهيكل ، هيكل عظمي آخر لامرأة شابة ، وشعرها كان مضفوراً بطريقة جميلة ولونه أسود فاحم . وإلى جانبها حذاء نسائي كان شائعاً في ذلك الوقت والهيكل الثالث كان لطفل»[١]. وبالقرب من موقع التنقيب عثر على مئات من قطع النقود وبعض اللقى التي تعود إلى العهد الروماني والبيزنطي[٢]، وفي غرفة المخزن وجدت مجموعة كبيرة من الجرار وبقايا الطعام .[٣]

بعد أن عثر أحد الأطفال العرب ـ بالصدفة على مخطوطات في أحد

(1) Yigael Yadin , Masada P 54
(2) Ibid P. 65
(3) Ibid P. 132

كهوف التلال الواقعة على شاطئ البحر الميت عام ١٩٤٧ ، قامت الدنيا - ولم تقعد حتى الآن - واعتبر هذا الاكتشاف من الإنجازات التاريخية العظيمة التي سترسخ المفاهيم الصهيونية - التوراتية ويعطي الحجة المادية على تلك الأطروحات وغدت هذه المخطوطات التي أصبحت تعرف « مخطوطات البحر الميت » من أكثر الاكتشافات التي أخضعت للدراسة والبحث ، فصدرت مئات الكتب في أطراف الأرض الأربعة تؤذن « للحقيقة التوراتية » المتجسدة بهذه المخطوطات حتى أنها خطفت الأضواء وحولتها عن « مخطوطات الجنيزا » ، والتي عثر عليها أثناء ترميم كنيس عزرا بالقاهرة عام ١٨٩٦ . ومكتشفات الجينيزا لقيت في حينه من الاهتمام الشديد حتى درس كل سطر أو حرف فيها ، لكن هذه المخطوطات - أي الجنيزا - تعود إلى الفترة من القرن التاسع حتى الثاني عشر للميلاد .

وجدت مخطوطات البحر الميت ملفوفة بقماش من الكتان وموضوعة في جرار مغطاة بطبقة سوداء من الشمع . ومعظم المخطوطات لم تكتب بالعبرية بل بالفينيقية والآرامية ، ووصفها أحد الباحثين بأنها « لغة سورية قديمة » . وباختبارات الراديو - كاربون radio - Carbon على الغطاء الكتان تبيّن أن عمرها يتراوح بين ١٦٨ ق . م - ٢٣٣ م[1] .

وبدراسة مخطوطات البحر الميت وجدت عدة أسفار من التوراة بينها سفر اشعيا ، كما لم يعثر على أي قطعة من سفر (استير) . وقد ارتأى الباحثون أن هذه المخطوطات ترجع إلى الفرقة الدينية المعروفة باسم « الإسينيين » واستنتجوا ذلك من وجود مجموعة من القبور لذكور ليس بينها نساء ، وبسبب عدم وجود سفر (استير) وعدم وجود نقود ترجع إلى هذه الجماعة التي تأثرت تأثراً كبيراً بالفلسفة الفارسية القائمة على الصراع بين عنصر الخير والشر وكما يظهر في النص التالي الذي وجد ضمن مخطوطات البحر الميت[2] :

(1) Edmand Wilson , The Dead Sea Scrolls 1969 P. 54 - 55
(2) William Hugh Brownlee , B.A.S.O.R 1951

١ـ[هذه طقوس دينية] لكل المجتمع ، نساء ورجالاً وأطفالاً من أجل ،
٢ـ المشاركة في السعي نحو الله ، ومعرفة السر الإلهي وتكريس النفس لعمل كل ما هو صحيح وحسن ،
٣ـ لله ومحبة كل شيء
٤ـ اختاره الله . وكره الأشياء التي
٥ـ لا يحبها الله ، بالابتعاد عن الشرور . وعمل كل المآثر الجميلة وممارسة الحق والحقيقة ،
٦ـ والعدل في الأرض ، والابتعاد عن الجحود ،
٧ـ والروح الشريره ، والعيون الشهوانية . فكل من يكرّس نفسه للعمل الإلهي سيكون
٨ـ طرفاً في العهد الإلهي ، ويستحق صداقة الله ، وبالتالي التوحد أو المشاركة في نصائح الله والعمل .
٩ـ يوحي الخير ومحبة أبناء
١٠ـ النور ، الملتزمين بأوامر الله . وكره أبناء الظلام المجرمين .
١١ـ الذين يثيرون انتقام الله وغضبه . كل الذين يكرسون أنفسهم للحقيقة فيضعون عقولهم وقوتهم .
١٢ـ وخصوصياتهم للتوحد مع الله . وإيمانهم بقضاء الله والمشاركة
١٣ـ بقوتهم ليرتقوا نحو الكمال والهدى . و[مباشرة] كل خير بناء على نصائح الذات الإلهية .
١٤ـ دون انتهاك الوحدانية في وجودهم ، وعدم التسرع في حياتهم أو التلكؤ
١٥ـ خلق كل أسباب قداستهم ، كي لا ينحرفوا عن
١٦ـ السر الإلهي ، يميناً أو يساراً ، فكل الذين يدخلون في أمر التوحد . .

سيدخلون العهد

١٧ـ تذكروا الله عند كل عمل . وعدم الانحراف عن هديه

١٨ـ الخوف والرعب والمحن مبعثها الشيطان . ومن يدخل

١٩ـ العهد سيكرسه اللاويون . . مقدساً وتلك بعض حكم الله ومآثره

٢٠ـ وسيقول من دخل العهد ، آمين ، آمين

٢١ـ والكهان يعرفون أن حقيقة الله

٢٢ـ تتضمن الخير

٢٣ـ واللاويون سيكررون مقولاتهم ، خطيئة أبناء إسرائيل وجرأتهم على الله

٢٤ـ وآثامهم ، من الشيطان

٢٥ـ وسيقولون : لقد أفسدنا أنفسنا ، وعملنا الشرور لأننا نسينا

٢٦ـ حقيقة السر الإلهي ، ومعرفة الله تحقق العدالة لنا ولأبنائنا

لقيت فرقة الأسينيين اهتماماً كبيراً من قبل دارسي العهد الجديد خاصة في القرنين الثان عشر والتاسع عشر الميلادي ، فإلى جانب الفريسيين والصادوقيين أخذت هذه الفرقة موقعها لكن أهم ما يميزها النظام السري الذي اتبعته في كسب المؤيدين بعد أن يحلفوا قسماً على ذلك[١] .

اكتشف في (تل المصطبة) عام ١٩٦٢ وعلى بعد ٢٨٠ م عن أسوار المدينة البيزنطية لبيسان (بيت شان) على الكنيس رقم ١ ويعود إلى الفترة ٦٢٦ ـ ٦٤٠ ميلادي أما الكنيس رقم ٢ فقد كان عبارة عن غرفة مربعة تعود إلى نفس فترة الكنيس الأول[٢] .

وتم اكتشاف بقايا جدران لكنيس مكتوب عليها باللغة العبرية في (بيت

(1) Karl Georg Kuhn , Universities , Vol 1 No 4 1957
(2) Michael Avi - Yonah , Encyclopdia Of Archaeological Excavations In The Holyland Vol 1 P. 225 - 228

شعاريم) (الشيخ بريك) في منطقة الجليل ، ويعود هذا الكنيس إلى القرن الرابع الميلادي ، كما وجدت بقايا لقبور محيطة بالكنيس تعود إلى نفس الفترة الزمنية ، أما الزخرفة والتماثيل فمأخوذة من الفن الروماني ، كما وجدت بعض اللقى عليها كتابة باللغة الأرامية[1] .

معظم الذين تعاطوا السحر ، يكتبون لأتباعهم باللغة الأرامية ، وهي اللغة التي استعملها اليهود واشتقوا منها اللغة العبرية . وقد استعملت (الطاسات) كأداة سحرية تكتب عليها بعض الأدعية اللازمة للسحر . وقد استعمل اليهود هذه الطاسات نتيجة تأثرهم الكبير بالبابليين ، وبصورة عامة بالعادات السحرية في الشرق الأدنى القديم ، والكتابة على مثل هذه الطاسات تتحدث عن الشيطان كما ورد في الملوك الثاني ٢٢ ، ارميا ٣٦ ، وقد وجدت نماذج من هذه الطاسات في نفر (قرب بابل) ، عربستان ، همذان ، نهاوند ، وقد كتبت عليها الأدعية التي تعوذ بالإله يهوه من الشيطان[2] .

ومن المرجح أن تاريخ بعض اللقى الفخارية الموجودة الآن في متحف تورنتو والتي اكتشفت في نفر في العراق : وعليها كتابات باللغة العبرية تعود إلى الفترة التي وجد فيها التلمود البابلي (القرن الخامس أو السادس الميلادي) فقد وجدت هذه اللقى تحت أرضية البيوت المهدّمة وهي - أي اللقى - في وضع مقلوب لأسباب تعويذية[3] .

لم يجد الباحثون الآثاريون الذين عثروا على (طاسات) يهودية كتابات على جوانبها الخارجية ، وإذا وجدت بعض الكتابات الخارجية فإنها تكون مترافقة مع كتابات داخل الطاسة ، مما يدل أنها عملت لدرء المعتقدات السحرية ، وبذلك يكون للتعويذة غايتان : الأولى درء الأعمال الشريره ، والثانية ، الحصانة من الوقوع في مصيدة الشيطان . ومن هذه الكتابات نموذجان يتضمنان تلك المعتقدات الميتافيزيقية[4] :

---

(1) Ibid P. 235 - 237
(2) Charles D. Isbell , Biblical Archaeologis Vol 41 No 1 1978
(3) W.S. Mc Cullough , Jewish And Mandaen 1967
(4) Ibid

١ـ ايل ، ايل : أحط بنا واكفنا الشر أيها الإله ، أيها السيد العالي

ـ ارعنا يا ايل ، وارسل خمسة ملائكة على حميرهم

٢ـ ارعَ بيتَ أبي ، وادفع الحزن عنه ، وابعد الأمراض والظلم كما كنت قد تعهدت لنا .

٣ـ قدسي بنت مردوخ ، ساجدة تحت قدميك ، تلوذ بك

٤ـ آلامنا متواصلة وأبدية ، يا ايل ، وسنظل بأذيالك نلوذ

١ـ . . . مصائب كثيرة تزخ . . .

٢ـ نبيذ الحانات أتلف . . . ريح . . . . آه واحسرتاه

٣ـ الحياة قذارة وآلام . . . أنقذ بيتي وداري . . . . . . أسرع

يا ايل أسرع يا أيل

٤ـ المزارع ثمارها ناضجة . وإله الخمر في الحانات يعاقر المدام . . . . . .

. . . لينسى القهر والانسحاق

٥ـ كَتَبَ وختَم : نبيذي من الزبيب . . . وأنا أتطلع إلى كسرة خبزٍ ثم يكون حمدي وشكري

٦ـ لتحمي النبيذ ورائحة النبيذ . . . فعهدك واسع يبعث على الإطمئنان وينعش الفؤاد النواح

٧ـ تعويذة وآهات . . . ورائحة نبيذ نفاذة من يدك فاعصمنا بغضبك

٨ـ . . . . متى يكون شرب الخمر ، واأسفاه

لتعوّض به نواحنا

٩ـ الخمور ورائحتها اللذيذة ، ملك يدك ، احفظها واحفظ بيوتنا ونبيذنا

النصوص التي اكتشفت في البحر الميت والتي معظمها أجزاء من أسفار التوراة أو بعض الإرشادات والأدعية التي تمارسها فرقة الأسينيين ، لا تختلف

في مضامينها مع تلك المكتشفة في « الجينزا » ، وقد وردنص من الجينزا يقول(١) :

يا إلهي انقذنا جميعاً ... واجعل الجوييم يرتعدون
وارفع راية الشعب ... لتعلو عظمتك
وتتقدس في العيون ... عيون المريدين
الكل يدعو مثلما ندعو ... فليس من إله سواك
كل شهر وكل سنة معجزة ... فللقدير نزرع الحقيقة والإيمان
المدينة غضبى وبين الشفاه لظى ... فيستسلم الخصم ويصد العدوان
استعجل الأمر لجمع الشمل ... ومثلي بأمرك يأتمر
السكون يعم مؤاب ... وأمرك من الجميع مجاب
اجمع كل أسباط يعقوب ... ليكونوا كأيامهم الغابرة
الرحمة باسمك يقرأ الشعب ... فإسرائيل هو الإبن البكر
الرحمة على المدينة المقدّسة ... والقدس بيتك
وصهيون حقق مجدك ... والعظمة لهيكلك
يا واهب الحق والعدل ... اقم النبوات تسبيحاً لاسمك
اعط الأمل بنعمائك ... والأمان لأنبيائك
لتسمع في السجود عبدك ... كما طلبت من شعبك

الفترة الزمنية التي أعيدت إليها كتابات الجينزا تحدد بين القرن التاسع إلى الثاني عشر الميلادي وهي فترة طغى عليها الطابع العربي ، لذا من المنطقي تأثر اليهود بالثقافة والعلوم العربية ، بل والدينية واللغوية : وقد وجدت عدة مخطوطات في « الجينزا » مدونة باللغة العربية لكن بأحرف عبرية ، ومن

النص عبري (1) Israel Levi , Setimic Study Series 1969 Chap (xxxvi)

مجموعة الوثائق التي نشرها Richard J.H.Gothell [1] : وتتعامل بالطب والعلاج ، كتبت باللغة العربية وبأحرف عبرية (كما هو موضح) . ومثل هذه المخطوطات التي وجدت في الجينزا لم يعثر على ما يشابهها ضمن وثائق البحر الميت ، وسأعيد النص إلى أحرفه العربية ، كما ورد باللفظة :

المرض البهاث

هذا نوع من الجنون ، تفسيره الجنون الهياج والداء

الكَلَب . السبب المرارة الصفراء شديدة

الالتهاب أو خلط سوداوي حار متحرق . الأعراض

السهر والتفرغ والاختلاط والتوثب والعبث

אלמרץ אלבהתה
הרא נוע מן אלגנון תפסירה אלגנון אלהאיג ואלדא96
אלכלב. אלסבב אלמאמרה97 צפרא שדידה אל
אלתהאב או כלט סודאוי חאר מתחרק. אלערץ

אלסהר ואלתפוע ואלאכתלאט ואלתותב98 ואלעבת99
אלשריר ואלנטר אלדאל עלי אלגראה100 ואלאקדאם
אלתדביר
חבריך אלמזאג ותרטיבה בשרב מא אלשעיר ודהן
אללוז ואסתעמאל מא אלקרע בסכנגבין ותעדיל
אלטבע במא תמר101 הנדי ואגאץ102 בשראב אלליגופר
ונרגס103 אלמריץ באלקרע ואלמאש104 ומרהם105 באלאסתכתאר
מן אכל אלכס מאן כאן אלבדן ממתליא פאסהלהם
באלמטבוך מאן לם יכן פאלחקן אלמלינה ובעד

אלתנקיה פאעצר קואהם106 בלחום אלפראריג ואלגדא
אלרצע ואלסמך אלצכורי ואסקהם יסירא מן אל
שראב במזאג כתיר ואצרף ענאיתך בעד דלך אלי
עלאג אלראס באן חויל אלשער ענה וציב107 עלי
מקדם אלראס מא קד טבך פיה אלבנפס נוורק
אלינופר108 ואלכלאף ואלורד ואלשעיר אלמקשר
אלמרצוץ וקשור אלקרע ואלכשכאש ואללפאח
ולובן109 אלמא מאתרא ואסעט אלמריץ בלבן נאריה
ואחלב110 עלי ראסה ואחתל111 פי תנימה ליסכן חדה
אלמרץ ואסקה שראב אלכשכאש מע מא אלרמאן

(1) Richard j.H. Gotheil , Jewish Quarterly Review Vol 21 No 41

النص عبري

الشديد والنظر الدال على الجرأة والإقدام

التدبير :

تبريد المزاج وترطيبه بشرب ماء الشعير ودهن

اللوز واستعمال ماء القرع . . . ويتعدل

الطبع بماء تمرهندي والإجاص بشراب . . .

وغذي المريض بالقرع والمماش وأمره بالاستكثار

من أكل الخس فإن كان البدن ممتلئ فاسهله

بالمطبوخ فإن لم يكن فبالحقن الملينة وبعد

التنقية [1] اعضد قواهم بلحم الفراريج والأجداء [2]

الرضع والسمك الصخوري واسقهم يسيراً من ال

شراب بمزاج كثير واصرف عنايتك بعد ذلك إلى

علاج الرأس بأن يزيل الشعر عنه وتصب على

مقدم الرأس ماء قد طبّق فيه البنفسج وورق

اللينوفر والكلف والورد والشعير المقشر

المرضوض وقشور القرع والخشخاش والتفاح

ولبن الماء الفاترة . . . المريض يلين . . .

واحلب على رأسه في منامه ليسكن حر

المريض واسقه شراب الخشخاش مع ماء الرمان

المادة الجصية وأدوات الكتابة والسيراميك والحبر التي وجدت بين أطلال الكهوف التي اكتشفت فيها « مخطوطات البحر الميت » تعود في غالبيتها إلى الفترة الهلنستية ، والاعتقاد السائد أن المنطقة كانت مسكونة في القرن الثاني

(١) ربما النقاهة
(٢) جمع جَدْي

ق . م ، وتؤكد الحفريات وجود مستوطنة في منتصف القرن الأول ق . م وحتى عام ٦٣ [١] م . وقد أيد هذا الطرح عدد كبير من الباحثين منهم (سومر) A, Dupent - Sommer ووليم أولبرايت حيث اعتبروا القرن الثاني ق . م الفترة المثالية لسكن المنطقة وهي فترة وجود الأسينيين والذين ندعوهم (الحاسديين) وقد ذكر المؤرخون : فيلو ، جوسيفوس ، بليني ، هيبوليتوس Hippolytos أنهم كانوا يدعون الأسينيين . وقد وجدت في مكتبة (قمران) كل أسفار التوراة باستثناء سفر استير ، كما وجد سفر أيوب بالأرامية ووجدت قطع من سفر اللاويين كتبت بالفينيقية [٢] .

الاكتشاف الذي تم قرب البحر الميت ، أحدث حالة من الذهول لدى الباحثين ، فهي المرة الأولى التي يعثرون بها على شيء ذو تماس مباشر بالديانة اليهودية ، وحالة الذهول هذه أوقعت الكثير من المتتبعين في مصيدة التسرع والنتائج الفجة . يقول البرفسور (يوجين الريخ) Eugene Utrich من جامعة نوتردام والمحاضر في معهد روكفلر في القدس : إن ما نشر من مخطوطات البحر الميت قد تعرض للتسرع والخطأ ، ولم يكن خطأ الناشرين الأمريكيين بل خطأ الباحثين أنفسهم . فقد نشر الباحثون مواضيع غير صحيحة كنتائج لتلك التنقيبات، وقد قرئت بالتالي خطأ وتسربت إلى المقالات الأخرى بهذه السمة . إن ٧٥٪ من المخطوطات تعتورها الشكوك ، وبعد عدة سنوات من اكتشافها يتأكد ذلك . وأول من يتحمل ذلك الباحث (جوزيف ميليك) Joseph Milik الذي عمل عشرات السنين في مهمة دراسة هذه المخطوطات والتي كان يدفعها إلى باحثين مبتدئين . [٣]

درس (يوجين الريخ) ست كسر من مخطوطات البحر الميت ، محاولاً قراءة أحرفها الآخذة بالاضمحلال . خمس من الكسر تتضمن من حرف إلى سبعة حروف . والقطعة الأكبر (السادسة) حجمها أقل من ٤ / ٥ سم وتبدو

(1) J. A. Sanders , The Dead Sea Psal,s Scroll 1965
(2) Ibid
(3) Jerusalem Post 26 - 2 - 1990

لأحرف جميعها يونانية . هذا الاكتشاف يدل على أنها مقتبسة من التوراة ليونانية ، مما يدل على أن الأسينيين قد استعملوا التوراة اليونانية ، فسفر التثنية - ضمن المخطوطات - كتب باللغة اليونانية كما تفعل الطائفة الأرثوذكسية لمتطرفة الآن في (مائة شعاريم) (١) حيث تتكلم الإنجليزية ، ويؤكد الريخ أنه حتى بداية المسيحية ظلت اللغة اليونانية هي لغة أسفار التوراة وإلى عدة قرون تالية (٢) . هنا يكمن نقده للباحثين التوراتيين حيث ظنوا المخطوطات الأرامية أنها عبرية .

اكتشاف آخر أحدث لغطاً كبيراً وجد في الأردن هو مخطوط « عراق الأمير » والمخطوط مكون من خمسة أحرف (سندرسة بتوسع أكبر في بحث اللغة العبرية) تشكل أسم (توبيا) وقد ادعى بعض الباحثين التوراتيين أنها تمثّل أحرفاً عبرية في حين أنها أرامية ظاهرة .

كان التوباويون (جمع توبيا) عائلة نبيلة تعيش بالقرب من الأردن ، وقد لعبوا دوراً سياسياً واقتصادياً هاماً في الفترة الفارسية والهلنستية وبعد اكتشاف الأثر في منطقة « عراق الأمير » قرب مدينة عمان وقراءة اسم توبيا على النقش لجأ الباحثون إلى تتبع مصادر الإسم أو الذين سموا باسم توبيا Tobiah . وقد ورد الإسم زمن فيلاديلفيوس الثاني (٣) Philadelphus II (٢٥٨ - ٢٤٦ ق . م) وهي ضمن فترة البطالسة . وقد ذكر الإسم على بردي زينون Zenon Papyri وجاء في 236 - 160 . Antiquities XII ذكر لإسم توبيا (يوسف بن توبيا) زمن البطليمي أورجنس الثالث Eargetes (٢٤٦ - ٢٢١ ق . م) حيث قاتل ضد اشقائه الأكبر وبعد اندحاره تراجع عبر الأردن ومكث هناك حتى وفاته ويسمى « المكان قصر العبد » في موقع عراق الأمير . ومن المرجح أن النص المنقوش يعود إلى أسرة وليس إلى فرد ، كما أن تطور المخطوط يشير إلى عائلة لها امتداداتها

---

(١) هي الطائفة المعروفة باسم ناطوري كارتا

(2) Jerusalem Post 2-3-1990

(3) Joseph Naveh , The Developpment Of The Aramaic Script 1970 P 63

الفينيقية ـ الأرامية الأمر الذي يفسّر حالة التطور الظاهرة قياساً بمخطوط حجر ميشا الكنعاني (الفينيقي) .

منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي وحتى عام ١٩٣٧ م كانت الطبعة الأساس في النموذج العبري للكتاب المقدّس الذي طبع من قبل (يعقوب بن حاييم) ونشره في فينيسيا (دانيال بومبيرغ) Danial Bomberg ١٥٢٤ ـ ١٥٢٥م . لكن البرفسور (باول كاهل) Paul Kahle اكتشف أقدم نموذج في المكتبة الشعبية الروسية في لينين جراد عام ١٩٢٦ . وأعاد (رادولف كيتيل) Radolf Kittel عام ١٩٣٦ أقدم نص إلى عام ١٠٠٨ م . والنص الموجود في لينين جراد يتضمن معظم المزامير التي أرسلت إلى هناك في الربع الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي بواسطة أبراهام فيركوتش Abraham Firkowitch من كنيس عزرا القديم في القاهرة (الجينزا) . أما المخطوط الذي وجد في حلب والموجود حالياً في (إسرائيل) يؤرخ في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ويحتوي على معظم المزامير . ونص من أقدم المخطوطات التوراتية جاءت من مصر ، ولكن ليس من الجينزا والتي وجدها عام ١٩٠٢ الباحث ناش W.L Nash والتي تعرف باسم « بردي ناش »[1]

(1) J.A. Sanders , The Dead Sea Psl,s Scroll 19

الفصل السابع

الديانة اليهودية

لم تعرف الديانة اليهودية ـ أفكاراً وطقوساً ـ المتكاملة إلاّ بعد فترة السبي البابلي ٥٨٦ ق . م ، حيث بدئ بكتابة أسفار التوراة وهيكل بناء الديانة بمناسكها وفكرها ونهجها وأهدافها ، فالموسويون لم يشكّلوا أطراً واضحة فيما يسمى دين ، قبل فترة السبي وكل ما نعرفه عنهم عبادتهم للإله يهوه ـ كما جاء بالتوراة ـ رغم أن الأدلة تشير أن هذا الإله نفسه استعير من سكان صحراء سيناء (الكنعانيين) . وعبادة الآلهة كانت تشكل لدى الأمم والشعوب السمة الدينية الأولى في تفكيرهم والتي تطورت بشكل ملحوظ عند المصريين والبابليين والفينيقيين . وكانت الأضاحي (الحيوانية والبشرية أحياناً) تحدد أسلوب التقديس الذي لا بد من تعميقه كلما احتاج الإنسان لقوى ميتافيزيقية تحميه من عواتي الطبيعة .

والخوف الميتافيزيقي هو جوهر الدين بالإطلاق ، به ابتدأ الإنسان تساؤلاته الفلسفية الفطرية فكان لا بد من الوصول إلى النتائج في أطرها الفكرية . ومع حالة تراكم التساؤلات واكتسابه القدرة على ملكة النقد والفهم والوعي . وهو ما يمكن تسميته بالتطور الفكري ، بدأت تظهر النوازع الذرائعية التي تبحث عن العلة والأسباب وبالتالي تبلورت فكرة الإله .

إن حالة التطور هذه نلمسها في الديانة المصرية وديانات وادي الرافدين وديانات بلاد الشام ، لكنها تنعدم تماماً في الديانة التوراتية ، حيث بدأت بحدها الأقصى كديانة طوطمية متداخلة مع عبادة الأصنام وهي قريبة العهد من الديانات التي عمت الشرق الأدنى في حالاتها المتقدّمة .

لقد كانت الأحداث التي شهدتها مصر وبلاد الشام ووادي الرافدين ثمينة جداً لكتبة التوراة الذين كانوا على تماس مع هذه الأحداث فاتخذوا الكتابات الأشورية والبابلية باللغة المسمارية مفتاحاً للعمل ، وفي تلك الفترة اطلع رجال الدين التوراتيون على أسرار الكتابة المصرية الهيروغليفية ، [1] وهذا ما نلمسه في سفر التكوين حتى الإصحاح الثاني عشر والذي يتعامل مع قصة ابراهيم على أنها تراث خاص مع أنها استمرار للتراث المصري والعراقي [2] . وقبل ابراهيم كانت الأنساب التوراتية كلها لأماكن جغرافية أو قبائل أو أنها ترجع إلى عالم خرافي أو إلى الميثالوجيا البابلية المأخوذة بالاحتكاك المباشر أو غير المباشر مع الحياة اليومية [3]

هل يمكن الوصول إلى معلومات من قصة ابراهيم والدور المهم الذي قام به ذلك التاريخ ؟ لقد تعامل ابراهيم ـ حسب التوراة ـ مع فرعون لكننا لا نعلم أي فرعون ، وكل ما ترسمه التوراة من أحداث هذه القصة لا يتطابق مع المكتشفات في مصر والعراق ، بل ليس من علاقة بين ابراهيم والآثار المكتشفة [4] .

وليس بخاف على أحد أن التوراة أشارت إلى عبادة مجموعة من الآلهة من قبل الموسويين وهذه الآلهة كانت شائعة في المنطقة أشهرها : ايل ، بعل ، يهوه ، ايلوهيم ، تموز ، مع التركيز على الإله يهوه الذي كان يعبده المديانيون على تخوم صحراء سيناء . فلماذا يهوه بالذات ؟ إن ظروف السبي النفسية وحالة الإحباط التي لاقتها هذه الشريحة من البشر ، جعلتهم أكثر سعياً وراء التوازن الانفعالي باللجوء إلى إله له سمة القسوة والعنف والجبروت ، فكان اختيار هذا الإله الصحراوي كحالة تعويضية ، وهم في الحقيقة لم يعبدوا يهوه بل استعاروه وهم في بابل ، وهو إله ثانوي في بلاد الشام وغير معروف في بلاد الرافدين .

اختير يهوه كإله للتوراة بعناية فائقة رغم عدم أهميته على الصعيد الديني

---

(1) Werner Keller , The Bible As History 1957 P. 122
(2) Herbert G. May, Oxford Bible Atlas , P. 105
(3) Ibid
(4) Ibid

في الشرق الأدنى ، فاختاره كتبة التوراة إمعاناً في الشعور بالتميز . وقد ورد اسم يهوه تحت أسماء (ياو) و (يو) في لوح مسماري يعود إلى الألف الثالث ق . م وجد في تل تعنك (قرب جنين) يقرأ عليه اسم (أهي ياهو) ويظهر اختصار الإسم (يو) على أيادي الجرار في عصور تالية . كما ورد الإسم (يو) في نصوص أوغاريت .

الديانة اليهودية (التسمية)

استعمل مصطلح « يهود » أو « يهودي » أول مرة من قبل البابليين إشارة إلى من جيء بهم من يهوذا [1] (وهو الاسم الكنعاني لمنطقة أور ـ شليم) . وهذا الأسلوب كان شائعاً قديماً كما هو الحال الآن ، حيث يطلق على من جاء إلى فلسطين من مصر بالمصري ومن جاء إلى العراق من الشام بالشامي ومن جاء إلى سوريا من العراق بالعراقي . . الخ وقد وردت مثل هذه التسمية وبهذا المعنى على لسان سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق . م) أثناء وصفه لانتصاراته على يهوذا حيث أشار إلى « حزقيا اليهودي » أي الذي أحضر من يهوذا .

لفظة « ديانة يهودية » لم تظهر في المراحل الأولى من كتابة الأسفار : فالإسم إضافة إلى البنية العقائدية لليهودية جاءت متأخرة عن السبي ولم يبدأ الحديث عن «الديانة اليهودية » إلاّ بعد القرن الرابع قبل الميلاد . فالديانة اليهودية كما نعرفها تكونت في بابل أثناء السبي (٥٨٦ ـ ٥٣٨ ق . م) وتطورت بعده ، وكان التطور الفعلي إبان فترة الحكم الفارسي وحتى غزو الاسكندر لبلاد فارس (٥٣٨ ـ ٣٣٠ ق . م) ويصل النضوج شبه الكامل في الفترة اليونانية والرومانية وهي المعروفة بمرحلة « المكابيين » .

فإذا كانت بداية كتابة التوراة ووضع خطوطها العامة قد بدأت إبان الدولة البابلية فإن عدة أسفار كتبت متأخرة جداً وفي فترة الحكم السلوقي مثل كتاب

---

(1) Lady Megnus , Outline Of Jewish History From B.C 586 - C.E 1885 P.é

دانيال (في حدود ١٦٨ ـ ١٦٥ ق . م) وكذلك جملة من المزامير تعود إلى هذا العهد . أما سفر أشعيا فلا يبعد أكثر من (١٠٠ ق . م) وكذلك سفر أيوب .

تأثرت الديانة اليهودية تأثراً كبيراً بالديانة الفارسية (الزرادشتيه) فموضوع النور والظلام كألهين يسيطران على العالم ووجود الشيطان والملائكة أخذت من بلاد فارس ، وقد وردت ضمن مخطوطات البحر الميت أمثلة على هذا التأثير .

بعد اندحار الجيش الفارسي بقيادة دارا الثالث (٣٣٦ ـ ٣٣٠ ق . م) قرب خليج الاسكندرونه توالت انتصارات الاسكندر ، فخضعت له معظم المدن الفينيقية مثل ارواد ، جبيل ، وصيدا وصور التي قاومت بضراوة . ثم فتح مصر ، ثم عاد إلى بابل ومات هناك . وبعد موته انقسمت امبراطوريته إلى أربع ممالك ، فصارت مصر من حصة بطليموس وبلاد بابل من حصة سلوقس ، وملك انتيكونس في آسيا الصغرى ، مملكة مقدونيا . أما بلاد الشام فقد الحقت بادئ الأمر بآسيا الصغرى . وبعد معارك بين سلوقس وبطليموس متحدين وصاحب أسيا الصغرى الحقت فلسطين عام ٣١٢ ق . م بمملكة بطليموس وبنفس العام استعاد سلوقس بابل التي كان قد فقدها . وفي ٣٠١ ق . م احتل جزءاً من آسيا الصغرى وجمع بلاد سوريا من الفرات إلى البحر المتوسط ، وقد بنى مدينة أنطاكيا على نهر العاصي وسماها باسم أبيه (انطيوخوس) وصارت مركز الحكم السلوقي في سوريا . وقد عد عام ٣١٢ بداية الحكم السلوقي في سوريا وصاروا يلقبون أنفسهم (ملوك سوريا) . كما حذا سلوقس حذو الاسكندر في تحويل الشرق إلى الهلنستيه .

استجاب اليهود في فلسطين للثقافة الإغريقية وتعاونوا مع السلوقيين إلى درجة أنهم منحوا سلطات كبيرة تابعة لليونانيين [1] . وفي فترة حكم (انتيوخس الرابع ١٧٥ ق . م) تغيرت هذه السياسة واتخذ الامبراطور موقفاً متشدداً من اليهود . ، في سنة ١٦٩ ق . م دمر الهيكل واستولى على موجوداته ، الأمر الذي أثار اليهود . ثم حوّل الإغريق هذا المكان لعبادة (زيوس) [2] . وفي سنة ١٦٧

---

(1) Toddy Kollek And Pearlman , Jerusalem, 1968 P 85
(2) Ibid

ق . م حصل تمرد يهودي في قرية مودين Modin (تقع على بعد ١٧ ميلاً إلى الشمال الغربي من القدس وإلى الشرق منها يقع اليوم مطار اللد) قاده حاخام يهودي اسمه متاثياس Mattathias الذي يرجع نسبه إلى عائلة الحسمونيين وكان له خمسة أولاد : يوحنان ، سيمون ، يهوذا ، العازار ، يوناثان [1] وقد التفت طائفة الحاسديين حول متاثياس الذين أخذوا يهاجمون القوات اليونانية (السلوقية) . وبعد بضعة أشهر مات متاثياس وانتقلت الزعامة إلى ولده يهوذا الذي لقب نفسه مكابي (أي المطرقة) وعرف أتباعه بالمكابيين . وقد قتل اليونانيون يهوذا بالقرب من بلدة إلسا Elsa (على بعد ١٢ ميلاً إلي الشمال الغربي من القدس) . فأصبح شقيقه يوناثان زعيماً عام ١٦٠ ق . م ورسخ التعاليم اليهودية وسعى إلى نشرها [2] . وقد وطد علاقاته مع السلوقيين ، فدخل القدس سنة ١٥٢ ق . م كـكاهن أعلى وحاكم باسم السلوقيين [3] وأصبح يعرف باسم الملك ديمتريوس Demetrius . وبعد موت ديمتريوس حكم أخوه سيمون عام ١٤١ ق . م . واستمرت أسرة الحسمونيين حتى انتصار الرومان عام ٦٣ ق . م .

أيد اليهود الرومان ونصبوا أسرة يهودية لمساعدتهم في حكم فلسطين بدلاً من أسرة المكابيين (الحسمونيين) صار منهم ملوك تابعون لروما اشتهروا باسم «هيرود» . وأشهرهم هيرود الملقب بالكبير الذي حكم من ٤٠ ـ ٤ ق . م ، ويقال أنه شهد ولادة المسيح في السنة الأخيرة من حكمه . وقد نجح هذا الملك إلى حد كبير في نشر الثقافة الرومانية ـ الهلنستية ، وقد وجه عنايته إلى مدينة السامرة وأعاد تسميتها باسم سبسطيه (أي مدينة أوغسطس) كما أنه اشتهر بأنه قاتل يوحنا المعمدان .

أشعل اليهود لأسباب دينية فتيل التمرد عام ٦٦ ـ ٧٠ م أثناء حكم نيرون فقضى على هذا التمرد القائد (فسبسيان) Vispasian ، وبعد استلامه عرش روما أكمل قائده (طيطوس) أحكام قبضته على فلسطين عام ٧٠ م وخرب مدينة

(1) Ibid
(2) Ibid
(3) Ibid

القدس بالكامل . وبعد هذا الحادث بحوالي ٦٢ عاماً ثار (سيمون بركوكبا) في عهد هدريان سنة ١٣٢ ـ ١٣٥ م فسحق هادريان العصاة بقسوة وحوّل القدس إلى مستعمرة رومانية .

إن تقبل الناس لادعاءات اليهود في تاريخهم القديم مرجعه احتكار اليهود «المدونات التاريخية» لأنفسهم ، فلما كانت التوراة هي الكتاب الوحيد الذي جمع علوم التراث الإنساني في قلب العالم القديم السومري والأكدي والبابلي والأشوري والفينيقي والمصري والفارسي والحثي واليوناني واحتكار كل هذا التراث وكأنه تراثهم مضافاً إلى ذلك الهالة المقدسة التي لف بها هذا الكتاب جعله المرجع الدنيوي والديني لمعظم الأفكار الدينية التي تعم العالم اليوم ، وهذا العامل بالذات هو الذي يعيق النظر للتوراة بموضوعية ، مع تكشف أسرار العالم القديم الذي ترافق مع فك طلاسم ورموز الهيروغليفية والمسمارية وباقي اللغات القديمة حيث اتضح مدى « اقتباس » التوراة من تراث الآخرين ، إلى درجة لو جردت التوراة من هذا التراث لغدت مجرد لطخات حبر على ورق .

تاريخ الشرق الأدنى المدون اليوم مأخوذ في معظمه من التوراة ، مع أن المعلومات آخذة بالابتعاد عن الحقيقة . فالكتابات التي تسطرها الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم ، منها ما هو أسطوري أو أخبار يستحيل إثبات صدقها ومعها يصعب وضع هذه المعلومات في إطارها التاريخي العلمي ، وقد يكون الأجدى إدراجها في مجال الأسطورة أو الروايات الخيالية ، وهي بالإجمال ينقصها الدليل والسند التاريخي ، حتى الوصايا العشر التي يعتقد البعض « ما تبقى من التوراة » بعيدة كل البعد عن هيئتها الأصلية .(1)

الإله يهوه أو الألوهيم في التوراة بعيد كل البعد عن التنزيه . فهو إله يتسم بصفات إنسانية ، يعقد « العهود » ويسير مع « شعبه المختار » يخدمهم ويحارب دونهم ، يتحدّث معهم ، ينفعل فرحاً وغضباً ، هذه الصفات مأخوذة من ديانات العالم القديم وخاصة الصفات التشبيهية المسقطة على الآلهة البابلية .

(1) Abba Hillel Silver , Mosses And The Original Torah P. 76

ويقصد بالتشبيه أن البابليين نسبوا إلى الهتهم صفات البشر الروحية والمادية كالصورة والأعضاء والفكر والرأي والعواطف عند الإنسان . فقد تصور البابليون آلهتهم على صورهم وشبههم . ومن مظاهر التشبيه أنهم نسبوا إلى الا ^ لهة حتى الأوضاع السياسية التي كانت في بلاد الرافدين منذ فجر التاريخ ، مثل عزوهم إلى الآلهة مجالس الشورى المقدّسة ، وكان لكل إله حاشية وسراري وأولاد وهي تعيش وتأكل ، ومع ذلك فقد ميزوا الآلهة عن البشر بصفة فارقة وهي الخلود . ومما يجدر التنويه إليه الفرق البارز بين تمثيل قدماء المصريين لآلهتهم وبين تمثيل سكان وادي الرافدين ، فنجد الآلهة المصرية كثيراً ما تمثّل بهيئة كبش أو ابن آوى أو التمساح أو البقرة . وقد يكون لبعض الآلهة البابلية حيوانات مقدّسة خاصة بها ولكن الآلهة لا تمثّل بصورها على غرار الطريقة المصرية . لذا فإن التشبيه في الديانة اليهودية مأخوذ من البابلية بالدرجة الأساس .

أسطورة الخلق

جاء في أسطورة الخلق البابلية أن الآلهة « خلقت الإنسان ليعبدها »[١] وإذا ما قصر البشر في واجباتهم تجاه الآلهة فإنهم يجازون بعقاب شديد ـ في هذه الحياة ـ حيث الثواب والعقاب .

والجدير بالملاحظة أنه يسهل علينا رؤية الخيوط الواصلة بين القصص البابلية وأسفار العهد القديم ولا يصعب علينا أن نجد العلاقة بينها وبين القصص المصرية فلقد كان في تطور الشرق الأدنى القديم تشابه عام بين أجزائه .

لنأخذ عبارة من « كتاب الموتى » والتي تنص على ظهور رع ـ اتوم الإله الخالق منفرداً لأول مرة : أنا أتوم عندما كنت وحدي في نون (المياه الأولى) ، أنا رع في ظهوره (الأول) حين بدأ يحكم ما صنع . . . ما معنى ذلك ؟

---

(١) طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات الجزء الأول ص ٢٢٩

إن رع عندما بدأ يحكم ما صنع معناه أن رع بدأ بالظهور كملك ، كمن وجد قبل أن يرفع شو (إله الهواء) السماء عن الأرض . . ويستمر النص في التأكيد أن الإله خلق ذاته ثم راح يخلق « الآلهة التي تتبعه » وهو على الرابية الأولى . والرمز الهيروغليفي الذي يعني الرابية الأولى يعني أيضاً (ظهور مجيد) ورسمه مرتفع محدودب تنطلق منه أشعة الشمس صعداً فهو يصور بذلك معجزة ظهور الإله الخالق لأول مرة .[1]

النص الذي ذكرناه يجعل الخليقة على مرتفع في مدينة (هرموبوليس) موطن بعض الآلهة ممن وجدوا قبل الخليقة ، غير أن التناقض في وجود سبق الخلق لن يقلقنا هنا [2] لأن أسماء هذه الآلهة تنبئ أنها تمثّل تلك الهيولى التي لا شكل لها والتي وجدت قبل أن يجعل منها الإله الخالق شكلاً ونظاماً . وعلينا أن نحدد مصطلح (الهيولى) بعض الشيء ، لأن الهة ما قبل الخليقة هذه تقسم إلى أربعة أزواج : إله و إلهه (زوجته) لكل صفة من صفات الهيولي . لقد بقيت هذه الأزواج الإلهة تعرف بالأساطير (بالثمانية) الذين كانوا قبل البدء وهم : (نون) الحياة الأولى وقرينته (ناونت) التي صارت فيما بعد السماء السفلى ، و(حوح) اللاشكلية المطلقه وقرينته (حاوحت) ، و (كوك) الظلام وقرينته (كاوكت) و (أمون) أي الخفي ، ممثل الفوضى التي لا تلمس ولا تدرك ، وقرينته (أماونت) . وهذا ما اقتبسه سفر التكوين في قوله من أن قبل الخليقة « كانت الأرض خربة وخالية وكانت الظلمة على وجه الغمر » ، وحوح ـ أمون اللامحدود واللامدرك توازيان تقريباً لفظتي (توهو وفوهو) خربة وخالية في سفر التكوين . كما أن كوك الظلام ونون الهاوية شبيهان ولا ريب « الظلام على وجه الغمر » التوراتية .

شُغل سكان العراق الأقدمون كما شُغل غيرهم بقضية أصل الوجود ، وقد نشأ عن الكهنة في العراق القديم وأصحاب الرأي والمعرفة منهم مذاهب وعقائد

---

(١) جون أ ولسون ما قبل الفلسفة ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ص ٦٧
(٢) المصدر السابق

مختلفة حول أصل الوجود ، وقد خلفوا لنا هذه الآراء بهيئة ملاحم شعرية وقصص وأساطير دونوها على ألواح الطين ، وقد جاءتنا من السومريين والبابليين نماذج من هذه الآداب الدينية :

يستدل من قصة الخليقة البابلية أن المياه الأولى كانت المادة الأولى التي ولدت منها جميع الأشياء . وكانت هذه المياه الأولى مشوشة ومؤلفة من عنصرين من الماء مختلطين ، الماء العذب (وهو العنصر المذكر) والماء المالح (العنصر المؤنث) وقد جسم البابليون هذين العنصرين من الماء وعدوهما إلهاً وإلهة وهما (ابسو) و (تيامه) ومن هذين الإلهين الأبوين ولدت جميع الآلهة . وقد فصل الإله مردوخ جسم تيامه وكون من نصفه السماء ومن النصف الثاني الأرض . ثم خلق الكواكب والنجوم وخلق بالاشتراك مع أبيه الإله (ايا) الإنسان من دم أحد الآلهة .

وفي رواية أخرى عن الخليقة أن الإنسان خلق من دم إله ومن تراب الأرض ، والظاهر أن خلق الإنسان قد جاء بعد خلق الكون والحيوان والنبات ، ثم خلقت الأشياء الأخرى الخاصة بالعمران البشري من فلحٍ وزرع ومدن .

وجاءت آراء أخرى في القصة السومرية القديمة حول أصل الوجود والأشياء ولكنها وردت بما نسميه أساطير دينية ، أي أنها وردت بلغة الأساطير ولكننا نستطيع استخلاصها من غلافها الأسطوري الديني ، وإذا ما فعلنا ذلك وجدنا أن الآراء التي خلفها لنا أولئك المفكرون الأوائل لم تكن ساذجة بل كانت في الواقع محاولات فلسفية جريئة في التفكير في هذا الكون واصل الوجود والأشياء .

وبالنتيجة فإن ما جاء في سفر التكوين ليس إبداعاً أو خلقاً وإنما تسرب عن حضارة وادي الرافدين أو وادي النيل التي سبقت تدوين التوراة بآلاف السنين .

الإيمان بالآلهة

حلل الباحث فرانكفورت H. Frankfert القوى الطبيعية المهمة التي كانت أصل الديانة المصرية فأرجعها إلى ثلاثة مصادر رئيسية : (١) القوى المستمدة من الشمس(٢) القوى المستمدة من الأرض (٣) القوى المستمدة من الحيوانات .

آلهة الشمس : عبد المصريون الأقدمون آلهة الشمس بأشكال وأسماء متعددة، وهي التي نشأت ونمت تحت معبد الشمس (هليوبوليس) وبين كهنته . ومن الأسماء التي اشتهرت « رع » و « أتوم » .

كان إله الشمس أول ملك بصفته الإله الخالق ، والفرعون خليفته ، والإله الشمس بصفته الإله الخالق ظهر من الحياة الأولى (نون) أو (نو) فوق « كل الخليقة » . وعد المصريون الإله الشمس ، الإله الخاص بالعدل ، كما كان إله الشمس في وادي الرافدين . وقد جسموا العدالة وجعلوها أبنة هذا الإله وسموها باسم (مات) . وقد دعي قرص الشمس الظاهر باسم (أتون) ومن الآلهة التي أدمجت أو طوبقت مع الإله ، الشمس (الإله (أمون) ، إله طيبة العظيم ، ولقب بملك الآلهة وتصوروه متجسداً على صورة كبش . وسمي باندماجه مع إله الشمس (أمون ـ رع) وعد السبب الأول في الخلق وأصل الحياة . كما عد أيضاً الإله الخالق الذي كان أول من خرج من المياه الأولى (نون) وأنه أبو الآلهة وبضمنهم الإله (رع) وأكمل نفسه وصار الإله الكامل (أتوم) .

الآلهة المشتقة من الأرض : أدركت معظم الأمم القديمة أثر القوى الأرضية فجسمتها وعبدتها ، فسكان وادي الرافدين رأوا فيها مبدأ الخصب وعبدوها بهيئة (الآلهة ـ الأم) ودعوها أسماء مختلفة أشهرها الآلهة (عشتار)

وكذلك جسّم اليونان مبدأ الخصب في الأرض بهيئة الهة أنثى . ولكن المصريين شخصوا الأرض وعبدوها بهيئة إله ذكر وليس إلهة أنثى ودعوه باسم (جيب) Gebواسم (بتاح) . ومن الآلهة المهمة المتعلّقة بقوى الأرض الإله الشهير (أوزريس) ، والذي ربما يكون صيغة من الإله السومري (تموز) ، وقد تولى أوزريس عالم الأموات . وإذا كانت الديانة الشمسية هي التي سادت في عصر الأهرام ، فإنها اضطرت إلى إفساح المجال إلى عبادة الإله أوزريس رغم تناقضهما فالإله (رع) ، إله الشمس هو إله الأحياء ، أما أوزريس فكان بالدرجة الأساس إله الأموات ، ولكن مع اختلاف هذين الإلهين فإنهما يشتركان معاً في الوصول إلى يوم القيامة والعودة إلى الحياة بعد الموت .

الآلهة المشتقة من اصل حيواني : لا تبدو عبادة الحيوانات عند المصريين القدماء غريبة إذا علمنا أن الفكرة الكامنة وراءها هي أن الآلهة تتجلى أو تتجسد في الحيوانات ولذلك اتخذت أشكال الحيوانات وتعددت ، كفرس البحر والتمساح والأسد والثور والكبش والقرد . . الخ .

يشير تاريخ الديانات إلى تداخل العبادات بين شعوب المنطقة ، مما أدى إلى وقوع اقتباسات وتطوير للأفكار الدينية . فالقبائل العربية القديمة (أكديون ، عموريون ، كنعانيون ، بابليون ، أشوريون ، أراميون) هذبوا صيغهم الدينية الموروثة من البيئة الصحراوية ، ووصل بهم الأمر حداً خلطوا هذه الآلهة مع مثيلاتها السومرية . كذلك الحال بالنسبة للسومريين حيث تأثروا بالمحيطين بهم والأمر ينطبق على مصر القديمة . لذا بدأت حالة الانغلاق بالتلاشي وأخذت القشرة الدينية تتكسّر .

القائمة البابلية الطويلة التي تضم أسماء الآلهة والتي عثر عليها في مكتبة أشور بانيبال تحوي أكثر من ٢٥٠٠ إسم إله ، وفي البحوث التي قام بها (دايمل) P.Deimel عام ١٩١٤ حول مجموع الآلهة توصل إلى تشخيص ٣٣٠٠ إسماً

. وسجّل (تولفست) K . Tallavist عام ١٩٣٨ ٢٤٠٠ إلهاً . [١]

إن حمورابي نفسه يذكر حوالي عشرين إلهاً لمدن مختلفة من امبراطوريته : أدد ، ايا ، أنو ، داكان ، دامكال ، ننونا ، انكي ، انليل ، أنانا ، عشتار ، مارما ، مردوخ ، نرجال ، نينازو ، نينتو ، شمش ، صاربنيت ، سن ، زابابا وغيرهم . وغالبية هذه الآلهة من جذور سومرية ، ورغم اقتباس الآلهة السومرية فإن القبائل العربية القديمة التي جاءت من جزيرة العرب واحتكت بالسومريين ، لم ينبذوا آلهتهم الخاصة ولكنهم خلطوا هذه الآلهة مع الآلهة المقاربة لها من مجمع الآلهة السومري [٢] . وقد نتج عن ذلك أن حافظوا على تسميات هذه الآلهة حيناً كما هو الحال في (زابابا) أو أنهم عدلوا الإسم باشتقاقه من لغتهم مثل الإله (آن) السومري الذي أصبح يسمى عندهم (انو) ومن آلهتهم :

١- آنو : عند السومريين (آن) ويعني السماء وهو إله السماء ، الإله الأعلى ، وقد أدمجته بعض القبائل العربية القديمة بإلههم (ال) أي ايل ، واهتموا به أكثر من اهتمام السومريين لما حظي عندهم من مركز سماوي فكان يدعى (أبو الآلهة) ولم تتوقف عبادته حتى فترة السلوقيين ، وبصورة خاصة ، في (الوركاء) حيث معبده المسمى معبد اي-آن-نا ويعني معبد السماء . أما شريكة أنو فهي (انتو) وقد سميت من قبل السومريين (ان-اوكي) وتعني الأرض .

٢- انليل : ويعني بالسومرية سيد الريح العاصفة وقد اقتبسه الأكديون ونعت (السيد) ومنه اللقب المستعمل عند القبائل العربية القديمة (بيل) « ايل » ويوجد انليل عادة بمعية الإله (أنو) . وكانت مدينة (نفر) مركز عبادة الإله انليل ويحمل معبده اسم اي-كو (ايكور) ويعني معبد الجبل .

---

(١) جان بوتيرو الديانة عند البابليين ترجمة وليد الجادر ص ٥٣
(٢) المصدر السابق

٣ـ ايا : اسم سومري يعني « مقر الماء » أما مقر عبادته التقليدي فكان مدينة (اريدو) وسمي معبده اي ـ ايزا ويعني معبد الأبسو ، وهو المحيط المائي لكل الأرض .

٤ـ الإله سن : إله القمر ، وهو اسم بابلي قد يكون مشتق من الكلمة السومرية انزو Enzu التي تقرأ زوين ومنها زن وزين وسن . وفي عصر السومريين كانت عبادته في مدينة أور ، وفي عصر أور الثالثة انتشرت عبادته بعيداً نحو الغرب وبصورة خاصة في مدينة حران في سوريا . وهناك شواهد على استمرار عبادته حتى القرن السادس ق . م (مسلة نيراب)(١)

٥ـ الإله شمش : وهو اسم عربي ويعني شمس وأكدوا على صفته كمصدر لكل ضوء وكانت مدينة سيبار ولارسا (سنكره) من مراكز عبادته التقليدية أما معبده الخاص فيحمل اسم (اي) بابار ويعني معبد الشمس .

٦ـ الإله أدد : إن الصيغ المختلفة لتسمية هذا الإله تجيز اعتباره عربياً (ادو : آدي ، آدا ، خادو ، دادا ، هادا . . .) والتسمية هدد (هداد) معروفة جيداً عند الكنعانيين والأراميين ، وقوائم أسماء الآلهة البابلية تذكر عبادته في مناطق (أورو) أي الغرب ـ بلاد الشام ـ بالنسبة لوادي الرافدين وعبد بصورة خاصة في حلب . وقد تبلورت عبادة هذا الإله في زمن حكم العموريين لوادي الرافدين ، ويبدو أنه عبد في العصر السومري كما عبده الأشوريون . ان أداد هو إله الزوابع والعواصف وإله كل الظواهر الجدية المهيبة والمفزعة ، وهو بنفس الوقت سيد الأمطار والغلة الكثيرة .

٧ـ الإله نرجال : إله الجحيم وهو سومري الأصل ويعني (سلطة المدينة

---

(١) جان بوتيرو الديانة عند البابليين ترجمة وليد الجادر ص ٤٠

الكبيرة) ويتضمن هذا المعنى إشارة إلى جهنم . وحمل نرجال (نركال) اسم (ايرا) أيضاً وعبد وقدّس تحت هذا الإسم الأخير في مدينة (كوثا) وانتشرت عبادته في الغرب (سوريا) واستمرت إلى ما بعد المسيح ويرد ذلك في مكتوبات مدينة تدمر [١] .

٨ـ الإله مردوخ : يحتمل أن يكون الإسم سومرياً ويحمل معنى « جاموس الشمس صغير السن » أو « الشمس الحديثة السن » . وقد أصبح إله مدينة بابل . وفي أسطورة (اينوما ايليش) ينسب إليه دور الخالق وسيد الكون السمائي والبشري .

٩ـ الإله نابو : تعني نابو بالأكدية « اللامع » . أما أصل هذا الإله فهو غير معروف وكل ما يعرف عنه ارتباطه بمدينة بورسيبا (برس نمرود) .

١٠ـ الإله أشور : وهو الإله الرئيس والأول عند الأشوريين ونسبة له سميت أول عاصمة لمملكته (مدينة أشور) . إن اسم أشور هو بدون شك أول اسم عربي قديم يقابله باللغة السومرية التعبير a - Usar وهذا التعبير لم يستخدم إلاّ في عصر الملك الأشوري شمشي ـ اداد الأول المعاصر للملك البابلي حمورابي ، لقد كتب الملكُ الأشوري سنحاريب (٧٠٤ـ ٦٨١ ق . م) الإله أشور : مالك العالم السماوي بأجمعه ، وخالق نفسه وأبو الآلهة . . ملك السماء والأرض ، سيد كل الآلهة وبيده مصير الكون . ومع كل هذه التسميات ضاعت طبيعة الإله الأشوري كإله وطني .

١١ـ الإله داكان : وهو أحد الآلهة العربية عند القبائل التي كانت تسكن أطراف مدينة ماري (تل الحريري) وتذكره التوراة كإله للفلسطينيين (قضاه ٢٣ : ١ ، صموئيل الأول ٥ : ٢ـ ٧)

١٢ـ الإله تموز : وهذه صيغة أكدية (عربية قديمة) مأخوذة من الكلمة

---

(١) المصدر السابق

السومرية (دومو - زي) وهو رمز النبات والخضرة ، وعبادته ذات أصول سومرية انتشرت في سوريا وفلسطين (حزقيال ٨ : ١٤) وفنيقيا ، ثم أصبح تموز هو أدونيس الذي انتشرت عبادته في بلاد الشام في العصر الهلنستي .

إضافة إلى عدة آلهة مشهورة أخرى مثل : عشتار ، أمورو ، والإله نينورتا . وقد القت المخطوطات الملكية الأشورية (باللغة الأكدية و الخط المسماري) للفترة من ٩٠٠ - ٦٤٠ ق . م الأضواء على الديانات في بلاد الشام من خلال الأسماء الإلهية التي تتضمنها ، والأسماء المذكورة تتطابق مع الآلهة المعبودة في سوريا . إضافة إلى ذلك فإن رسائل العمارنه أضافت معلومات قيمة ورسمت صورة الحالة في بلاد الشام قبل قرن ونصف من دخول الموسويين[١] .

رغم أن التوراة تشير إلى أن (الآباء) قد عبدوا آلهة كنعان فإن الكثيرين زالوا يتساءلون عن الزمن الذي عاشوا فيه وهل وجدوا في وقت سابق على موسى . البعض يقول أن وجودهم نتاج للخداع النفسي[٢] . والبعض يفسر الاباء على أنهم آلهة كنعانية ، أو أبطالاً كنعانيين اختيروا ليكونوا « خاصة » كتبة التوراة وبعد ذلك ، أسقطت هذه الأسماء على شخوص[٣] .

تقول القصص التوراتية أن ابراهيم سكن حبرون (الخليل) وسكن اسحق في بئر السبع جنوباً أما يعقوب فقد سكن فترة شرق الأردن وأخرى قرب شكيم بثل Bethel ، فتأثر (الاباء) بعبادات هذه الأماكن فكان ابراهيم يدفع إلى ايل (ايلون) في القدس عشر أمواله ويتقبّل تبريك (ملكي صادق) كاهن الإله الأعلى (تكوين ١٤ : ٢٠) . وهاجر زوجة ابراهيم اعتقدت بايل - روئي في بئر السبع (تكوين ١٦ : ١٤) وهكذا كان موقف يعقوب مع ايل - بثل (تكوين ٢٨ :

---

(1) W. F. Albright , Archaeology And The Religien Of Israel P. 38
(2) O. Elissfeldt, Palestine In Time Of The Nineteenth Dynasty Vol II
(3) Ibid

١٠ ـ ٢٢) كما ابتنى مذبحاً سماه ايل (تكوين ٣٣ : ٢٠) ونرى انعكاس عبادة ايل ، إله الكنعانيين ، في كل مكان تبنته التوراة[١] .

لقد كانت شكيم مركزاً دينياً للكنعانيين وكانت عبادتهم تتركّز حول بعل ـ بيريت Baéil Berith أي « سيد الميثاق » ويدعى أيضاً ايل ـ بيريت El - Berith . وهنا يوجد مكان مقدّس ، حجر مقدّس ، مذبح ، بلوطة . وغالباً يدعى « بلوطة الحجر المقدس » والمكان لا يزال يدعى بلاطة « بلوطة » ومعنى هذا المفهوم «سيد الميثاق » يتطابق مع ما سماه كتبة التوراة (ميثاق العهد) أو ربما أخذوه من أصوله البابلية والسومرية[٢] .

يستنتج مما ورد في التوراة أن عبادة عشيرا Asherah قد تأتي مقترنة مع الإله بعل بدليل مجيئها مقرونة بضمير الغائب المتصل « عشيرته » His Asherahوترد أيضاً بصيغة المفرد والجمع في التوراة عشيرا في المفرد وعشيروت في الجمع مما يدل على وجود أكثر من صيغة لهذه الإلهة[٣] .

إن عبادة الإسم الانثوي معروفة جداً فهناك عشتار نينوى وعشتار اربيلا Arbela . كما أن استعمال الضمير الغائب (His) مع عاشيرا تؤشر التقاليد الأسطورية الكنعانية التي وجدت على ألواح أوغاريت فعشيرا هي زوجة الإله ايل رئيس الآلهة في المجمع الإلهي الفنيقي (الكنعاني) وهذه الصورة عكسها كتاب التوراة على قصة (ايليا) على جبل الكرمل (الملوك الأولى ١٨) فقد ارتبطت عشيرا مع بعل كزوجته فكان ضرورياً تعيين جهة الإلتحاق لبعل His Ashirah وليس لغيره .

فعشيرا ليست أنثى مشهورة تعبد بل لها دور مركزي في كثير من الأساطير ، توضحه القصة الواردة في التوراة (الملوك الأول ١٨ : ١ ـ ٤٦) وتحكي قصة الصراع بين أنبياء البعل والنبي إيليا على جبل الكرمل ، وهذا

---

(1) Ibid
(2) A.T. Olmstead , History Of Palestine And Syria P. 107
(3) David Noel Freedman , Biblical Archaeolgist Vol 50 December 1987

الصراع يدل على أي من بعل أو يهوه هو الإله الحقيقي ، لكن بالنتيجة يهوه وبعل يحملان نفس المعنى . وقد ورد في القصة وجود ٤٥٠ نبياً لبعل و ٤٠٠ نبياً لعشيرا ، كل هؤلاء دعوا إلى اجتماع على جبل الكرمل حيث كان يعيش نبي يهوه وحيداً لمواجتهم (الملوك الأول ١٨ ، ١٩) فانتصر عليهم وذبح ٤٥٠ نبياً لبعل في وادي قيشون ـ كما تقول التوراة ـ لكن ماذا حصل لأنبياء عشيرا ؟!

رغم أن الحرب ضد بعل كانت مستمرة في السامرة إلاّ أن عشيرا لم تمس ، بل بدأ الحديث عن يهوه وعشيرته كما جاء في المخطوط Qentillet Aj-rud والذي يتحدث عن « يهوه السامرة وعشيرته » وبناء على (عاموس ٨ : ١٤) فقد كان الناس يتضرعون ويقسمون بآلهة تدعى (اشامه شمرون) Asmat Someron حيث يقول حرفياً : « ذنوب السامرة» . والإسم إشامه ، يبدو أنثوي رغم عدم وجود آلهة بهذا الإسم في الشرق الأدنى القديم . (فعشرة شمرون) لا بد أن تكون عشيرا السامرة ، والموضوع ليس إلاّ تلاعب لفظي في أسماء الهيه وهو دليل الجحود المعروف بالتوراة .[1]

يعرف الإله بعل بأنه الإله ايل (الفنيقي) . والذي يذكر في المخطوطات الأرامية من (زنجرلي) بهذا الإسم أيضاً (ايل) وقد انحدر الإسم إلى الأراميين من الفنيقيين ، واسم الإله ايل ليس عاماً أو خاصاً بالنسبة للتوراة ومفاهيمها ، بل إسم إله يخص الكنعانيين كما كانت عشيرا إحدى آلهة الأموريين ومنهم الكنعانيين ، ومن هنا جاء اسم عبدي ـ عشرتا في رسائل العمارنة .[2]

هذان الإلهان الهامان في عبادة الكنعانيين ، منشؤهما من عبادة الظواهر الطبيعية ، وهما : إله السماء (الأب) وإلهة الأرض (الأم) . لقد عبد إله السماء في أوغاريت تحت اسم (ايل) والإلهة تحت اسم عشيرة أو عشيرات (عشتار) ، وكان ايل الإله الأسمى عند معظم الأقوام التي سكنت بلاد الشام ولا سيما الكنعانيين (كما اقتبسه كتبة التوراة ، بشكل واسع) ولقب باسم (عليان)

---

(1) Ibid P. 241 - 249

(٢) موشيه ديفيد قسوطو الآلهة عنات (عبري) ١٩٥٨ ص ٤٢ـ٤٥

وعبد تحت اسم (بعل) أيضاً . كما عبد الموسويون الإله (مولك) « مولوخ » وقد ورد اسمه في التوراة (الملوك الأول ١١ : ٥ ، الملوك الثاني ٢٣ : ١٣) باسم ملكوم وقد وجد المنقبون بقايا أطفال في مواقع زيارته ، حيث مارس الموسويون عادة وأد الأطفال وتقديمهم ضحايا لهذا الإله كما ورد في (الملوك الثاني ٢٣ : ١٠) ، واسم المكان الذي كانت تمارس فيه هذه الطقوس هو وادي بني هنوم أو وادي هنوم الذي يقع جنوبي القدس وغربها ويعرف باسم (وادي ربابه اليوم) ، ثم أخذ الناس برمي القاذورات والفضلات وإحراقها في هذا الوادي وأخذ من ثم اسم « جهنم » وأطلق على موقع العقاب[١] . أما الإلهة الأم فقد ذكرت وعبدت بصيغ مختلفة من اسم (عشيرا) وكذلك (عشتاره) و(عشاره) وسميت بالتوراة (عشتوريت) وهي عشتار عند البابليين . وعبدها الرومان تحت اسم (افروديت) واليونان (فينوس) ودعيت في بلاد الشام أيضاً باسم (بعله) « السيدة » وباسم ملكه أي (ملكة السماء) وعناة أو عاناة حيث ورد ذكرها في لوح من أوغاريت ، وهي «أخت عليان بعل » ومن صفاتها الحب والحرب .

تأثر الأراميون بديانة القبائل التي سبقتهم بالخروج من جزيرة العرب كالأكديين وبشكل خاص الأموريين وفرعهم الهام الكنعانيين . وكان أعظم إله خصوه بالعبادة الإله (حدد) أو (هدد) أو (أدد) أو (أدو) وهو أحد أهم الآلهة الأمورية والكنعانية ومن أهم القابه (رمون) و (رمان) أي المرعد . وهو الإله الخاص بالرعد والزوابع والأمطار . وقد أقيم معبده الرئيس في مدينة « منبج» شمالي سوريا وشيدت له مجموعة معابد في عدة أنحاء من بلاد الشام واختلطت عبادته مع عبادة إله الشمس ويقال أنه هو نفسه الإله « جوبتر » المعبود في بعلبك ، وصار في العهد الروماني « جوبر » الخاص بمدينة دمشق . وجد في (سمأل) (زنجرلي) تمثال ضخم ـ نحو تسعة أقدام ونصف ـ أقامه الملك بنمو الأول Penammu في القرن الثامن ق . م . وعبدت مع الإله هدد في منبج وفي

(١) العهد الجديد انجيل متّى ١٠ :٢٨، ٢٣ : ١٥

المواطن الأرامية الأخرى زوجته الإلهة ـ اترغاتس) Atargatis حيث نعتت بالإلهة السورية ووصفت بأنها (الإلهة ـ الأم) كما عبدت في عسقلان (فلسطين) .

بعد خمس سنوات على اكتشاف ألواح أوغاريت نشر M. Virolleaud لوحاً من الشعر يحكي « ميلاد الإلهة الكريمة الجميلة » ، كما نشر أيضاً أسطورة «كيريت» Keret Epic [(١)] ، وبناء على هذه الألواح يستدل مدى تأثير الآداب الكنعانية (الفنيقية) بالتوراة . فالزعيم الصيدوني كيريت قد أشار إلى قدسية إله القمر (تارح) . . ومن المعروف أن تارح ورد بالتوراة جد ابراهيم . كما أشارت أبيات الشعر ٦١ ـ ٦٨ من اللوح إلى أن الإله (ايل) قد أغوى امرأتين ، فانجبتا الإلهين شحار Shahar وشاليم Shalim .

لقد كان لكل مكان في كنعان إله أو سيد يدعى (بعل) ، ولما جاء الموسويون أخذوا هذا الإله وعبدوه تحت اسم « يهوه » . ومما لا شك فيه أن آلهة الأسفار الخمسة (الأولى) مأخوذة من الكنعانيين . وبذلك أصبح (يهوه) «البعل» أو سيد الصحراء ، ثم استعمل بعد ذلك بعل ويهوه بنفس المفهوم . [(٢)]

عندما اكتشفت الألواح الفخارية عام ١٩٢٩ في أوغاريت (رأس شمره) ، وقد ورد في إحدى القصائد ما يدل على المعتقد الديني حول النزاع بين إله النبات (عليان بعل) وخصمه الإله (موت) . وقد وجد الباحثون التشابه الكبير بين أدب أوغاريت وسفر أيوب : ومما يلفت النظر تطابق المفردات والأفكار والأدوات الشعرية والتركيب الأدبي بين معظم الأدب الأوغاريتي والمزامير التوراتية ، فنجد في الأوغاريتية أن الإله (بعل) يوصف « براكب الغيوم » وكذلك يوصف الله في المزمور ٦٨ : ٤ . وفي إحدى نصوص أوغاريت يوصف الرعد بأنه صوت بعل وفي (سفر أيوب ٣٧ : ٢ ـ ٥) ، المزمور ٢٩ : ٣

---

(1) W.F. Albright , B.A.S.O.R Number 71 October 1938

(٢) فيليب حتي تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين . ترجمة جورج حداد ص ٨٧

ـ ٥ نجد أنه صوت يهوه . وهذا المزمور بكامله من أصل كنعاني ظاهر [1] . وفي الأدب الكنعاني والتوراة تسمى لوياثان Leviathan « الحية المتحوية » (اشعيا ٢٧ : ١) فبعل يقتل لوياثان وكذلك يفعل يهوه .

الصفات البارزة في عبادة الخصب الكنعانية متمثلة بالحزن على موت إله النبات والقيام بطقوس هدفها تمكينه من الفوز على خصمه (إله الموت والعالم الأسفل) حتى يضمنوا كمية كافية من المطر الضروري لإنتاج موسم العام الجديد والفرح عند عودة الإله للحياة . وقد كانت أسطورة تموز (وهو في البابلية دموزي Dumu - zi) والذي يسميه الكنعانيون الإله (أدون) ويعني السيد. وقد اقتبسه اليونان وجعلوا منه (أدونيس) . ثم أصبح أدونيس أشهر الآلهة السورية . وقد جعل الفنيقيون حادثته مع الإلهة عشتار أو سيدة بيبلوس عند نبع النهر الذي يسمى اليوم نهر ابراهيم في لبنان ، ففي هذا المكان جرح تموز ـ كما تقول الأسطورة ـ بينما كان يصطاد الخنزير البري ، وحمله وهو يشرف على الموت إلى حبيبته . ومنذ ذلك الوقت والنهر يصطبغ باللون الأحمر في أحد الفصول ، وهو لون دمه ، كما يعتقدون. وبينما كان تموز في العالم الأسفل تدخلت عشتار واستعادته ونشأت الطقوس التي تحتفل بذكرى موته .

إنَّ ديانة كنعان مثلها مثل ديانات القبائل المهاجرة من جزيرة العرب تقوم على عبادة الطبيعة حيث كانت تضم إلهين رئيسيين يعرفان بأسماء مختلفة : السماء (الأب) والأرض (الأم) وفي أوغاريت كان إله السماء يعرف باسم (ايل) فيما الإلهة الأم تسمى (عاشره) وبعده يأتي (عليان) والإله مولخ Mo-loch الذي كانت تقدّم لها الضحايا من الأولاد .

رفيقة ايل تسمى عاشره في أوغاريت كما توجد آلهة أخرى تسمى عشتروت كما وردت في اثار أوغاريت وتل العمارنة . وهي عشتار عند الأشوريين والبابليين. وسميت بالتوراة عشتوريت ، وكانت تسمى أحياناً بعله

(١) المصدر السابق ص ١٢٤

(أي سيده) . وقد وجدت كتابة تعود إلى القرن الثالث عشر ق . م تسمى عنات فيها باسم (سيدة السماء) .

قصة بعل في أوغاريت وأنات Anat وآبائهما وأخوانهما تظهر بوضوح أن (ايل) الإسم المهم في (البانثيون) الكنعاني [١] ربما لا يكون إسماً لإله معين . وبذلك نصل إلى نتيجة منطقية مؤكدة أن العبادات القديمة الواردة في التوراة موجودة على مواد منقوشة في فنيقيا والمستعمرات الفنيقية[٢] .

إن تنامي قوة الفنيقيين التجارية والسياسية أدّت إلى غلبة بعل وأشياعه على أيل وأتباعه وبالتالي السيطرة على معبد الكنعانيين (البانثيون)[٣] . صحيح أن وجود ألواح من أوغاريت تشير إلى رئاسة ايل للبانثيون لكنها تظهر ذلك الإله في حالة خرف وعجز ، وربما ذلك بتأثير الأوغاريتية المتأخرة . وقد انحازت مجموعة من الباحثين إلى جانب إيل ، عندما ظهرت ألواح أوغاريت ، واعتبروا أن حيويته كبيرة ويفسرون ذلك أن عدة عبادات متقنعة بأسماء أخرى كانت معروفة في أوغاريت في الألف الثاني قبل الميلاد . كذلك اسم (عشيرا) والذي قلما ظهر في النقوش وسط فنيقيا خلال الألف الأولى ق . م . بينما الإسم (اتيراتو) Atiratu يردد في آلاف من النقوش الفنيقية في المستعمرات غربي البحر المتوسط وهي مكرسة لعبادة الآلهة (تانيت) Tannit باعتباره لقب عشيرا . ثم بدأ التناقض في تأثير عبادة أنات بعد خراب أوغاريت ، وهذا الإسم أنات Ata) ظهر في أحد ألواح سوريا ، ونفس الشيء ربما حصل مع (ايل) فقد ساد في البدء في أوغريت ثم اضمحل لتنتقل السلطة إلى بعل - هدد[٤] .

قامت بعثة آثارية إيطالية تابعة لجامعة روما بقيادة البرفسور Paolo Matthiae بالتنقيب في منطقة تل مرديخ Mardikh الواقعة بين حماه وحلب شمال

---

(١) هو معبد مكرس لعبادة جميع الآلهه أو هو مجمع آلهة .

(2) R.A. Oden , Biblical Archeologist Vol 39 No 1 March 1967

(3) Ulf Oldenburg , The Confict Between El And Baal In Cananite Retigion 1969

(4) R.A. Oden , Biblical Archaeologist Vol 39 No 1 March 1976 P 32

سوريا، وكانت عاصمة المنطقة هذه إبلا Ebla التابعة لامبراطورية أكد والتي دمرها نارام ـ سن Naram - Sin . وقد عثرت البعثة على ١٥٫٠٠٠ لوح مكتوب باللغة الكنعانية وبالخط المسماري، وكان لهذا المكتشف أثر كبير في إلقاء الضوء على ديانات المنطقة ومجريات الأحداث التاريخية. وفي عام ١٩٦٨ اكتشفت البعثة تمثالاً يحمل اسم ابيت ـ ليم Ibbit - Lim حاكم مدينة ابلا وهو يقدّم العطايا للآلهة عشتار، ثم وصلت البعثة عام ١٩٧٤ إلى غرفة الأرشيف الملكي، والمخطوطات هذه تشير إلى أنها اللغة الكنعانية القديمة (١).

احتوت ألواح ابلا على أسماء حوالي ٥٠٠ إله، لكن قبل كل شيء توضحت العلاقة بين ايل Il ويهوه (Ya)w . وكان دور ايل أنه يمثل الرب عموماً god ومع ذلك هناك عبادات محددة للإله ايل Il / El في الواح أوغاريت. فيهوه (Ya) لا يزال محبباً بطريقة مختصرة، كما يرد في الألواح En - na - Il / En - na - Ya ، Mi - ka - Il / M - Ka - Ya ، Is - ra - Il / Isra - Ya ، وفي الواح ابلا يستعمل ايل Il مرادفاً ليهوه Ya كعبادة محدده، وقد تم اختصار اسم يهوه Yaw إلى Ya بعد هجرة القبائل العربية القديمة من الجزيرة العربية وإقامتها في بلاد الرافدين وبلاد الشام(٢).

هناك عبارات أخرى تقرأ في ألواح ابلا تشير إلى الإله (داجون) Degon " of Tuttul " ، " Dagon on Sivad " وهنا يجدر الانتباه إلى وجود داجون الكنعانيين " Dagon of Canáan " والذي يعرف بداجون الفلسطينيي " Dagon of Philistines " ، ثم يأتي دور الإله راساب أو رشاب، أو رشف Resef في الوثائق المتأخرة. وهذا الإله يأتي بالدرجة الثانية في ترتيب البانثيون وهي العبادة التي كانت سائدة في ابلا.

مجموعة من المكتشفات وجدت في قطنا و Alalakh في سوريا وتعنك ونابلس وغيرها في فلسطين تضمنت ألواحاً تؤشر الديانة في سوريا ووادي

---

(1) Giovanni Pettinato , Biblical Archaeologist Vol 39 No 2 May 1976
(2) Ibid

الرافدين في القرن الثامن عشر ق . م ومن خلالها تعرفنا على الطقوس الدينية وأسماء بعض الآلهة [1] .

ومن خلال علاقة مصر ببلاد الشام ، وبالإشارة إلى حركة الأشخاص والحكام المذكورين في الآثار المصرية يمكننا معرفة ديانة الكنعانيين ، فقد وجدت القصص الأسطورية الكنعانية مدونة على هذه الآثار . [2] ففي زمن الأسرة الثامنة عشرة ٢٠٠٠ - ١٨٠٠ ق . م وجدت آثار عليها أسماء أشخاص أضافت مادة معرفية للعبادات في فلسطين وسوريا . كما ألقت الوثائق الآرامية في سوريا وخاصة الحجر المكتشف في سمأل (زنجرلي) والذي يعود إلى الفترة ٩٠٠ - ٦٥٠ ق . م الأضواء على الديانة في المنطقة . أما الكتابة الآرامية على أوراق البردي في مصر والتي تعود إلى ٤٠٠ ق . م تعطي معلومات كبيرة عن الديانة اليهودية والتي بدأت بالظهور ذلك الوقت .

انتقلت عبادة (أتون) إلى فلسطين بعد أن أشاعها امنحوتب الرابع (أخناتون) ، وقد تكون هذه العبادة قد انتقلت إلى بلاد الرافدين عبر أرض كنعان ، فأخذ الموسويون عباداتهم من أرض الرافدين أو مصر مباشرة أو عن طريق كنعان . فإذا قارنا بين نشيد (أتون) المنسوب إلى أخناتون وبعض المزامير [3] نرى الاقتباس واضحاً بينهما . . ولما كان اخناتون قد سبق الموسويين بحوالي مائة سنة فلا بد أن الاقتباس قد تم من قبل كتبة المزامير والتي تم إنجازها بعد اخناتون بحوالي ٨٠٠ سنة .

---

(1) W.F. Albright Archaeology And The Religion Of Israel P. 38
(2) W.F. Albright Archaeology And The Religion Of Israel
(3) G.A.F. Knight . Nile And Jordan P 178

نشيد اتون

الشروق جميل في أفق السماء فيا
آتون ابدأ الحياة
عندما ترتفع شرقاً فإن أفق
السماء يملأ الدنيا جمالاً
لهذا يكون الفن جميلاً . عظيم
الألقاب عال عن الأرض . شعاعك
يحيط بالكونّ وكل ما صنعت

وعندما تغيب يكون أفق السماء
والعالم ملعون بالظلام
كأنه الموت
كل أسد يخرج من عرينه ، كل الأفاعي
اتخذت الظلام بيتها والعالم
في صمت

نشيد اتون

يضيء الكون بإشراقك في الأفق
وعندما تضيء الشمس كأتون نهاراً
ينقشع الظلام
وهكذا يقوم الرجال بأعمالهم

السفن تبحر أعلى النهر وأسفله
كل طريق عال مفتوح للنزول
الأسماك تتقافز ونورك
في قلب البحر العظيم

المزامير

يا ربُ الهي ، قد عظمت جداً ، مجداً وجلالاً
لبست . اللابس النور كثوب ، الباسط السموات
الصانع ملائكته رياحاً . وخدامه ناراً
مُلتهبة ، المؤسس الأرض على قواعدها فلا
تزعزع إلى الدهر والأبد
(المزمور ١٠٤ : ١-٩)

صنع القمر للمواقيت ، الشمس تعرف مغربها
تجعل ظلمة فيصير ليل ، فيه يدب كل حيوان
الوعر . الأشبال تزمجر ولتلتمس من الله
طعامها

(المزمور ١٠٤ : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١)

المزامير

تشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربض .
الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى
المساء
(المزمور ١٠٤ : ٢٣ ، ٢٤)

النازلون إلى البحر في السفن ، العاملون
عملاً في المياه الكثيرة ، هم رأوا
أعمال الرب وعجائبه في العمق
(المزمور ١٠٧ : ٢٢-٢٣)

محاولات كثيرة سعت إلى اكتشاف سر (سفر أيوب) وأحد الأفكار المرجحة تؤكد على التأثير المصري وبصمات الثقافة المصرية على هذا السفر ، بينما يرى آخرون أن أرض الكلدانيين هي مكان ولادة السفر في حين يؤكد غيرهم أن الكنعانيين هم المصدر الذي اقتبس عنه كتبة هذا السفر . والأرجح أن أحد اليهود « وبعد ولادة الديانة اليهودية في السبي » استوطن مصر خلال الفترة الفارسية كتب سفر أيوب هناك متأثراً بالثقافة البابلية والأشورية والكنعانية وبالتالي المصرية ، وهذا ما نلحظه في سفر أيوب ذاته . فأول إشارة إلى تأثير مصر نشاهدها ونحن نبحث في وجود بلاد عوص Uz التي يقول السفر أن أيوب كان يعيش فيها ، فهي تقع تجاه مصر أكثر مما تقع تجاه الكلدانيين ، وكانت تقع على الحدود المصرية جنوب أدوم (ارميا ٢٥ : ١٩ : ٢٠) وبذلك تكون عوص قرب مصر وليست قرب وادي الرافدين . وهناك إشارة في سفر أيوب (١ : ٣) تشير أن عوص في الشرق وبذلك لن تكون إلاّ شرق مصر ، ففلسطين تقع غرب بلاد الرافدين وليس شرقها . وبذلك تكون مغالطة جغرافية قاتلة إذ تؤكد التوراة وجود أيوب في نينوى (العراق) (أيوب ١ : ١ ، ٣ : ١) .

اكتشف كذلك ايرمان Erman نصاً مكتوباً بالأرامية في منطقة الفنتاين في مصر يقول : « النوم العميق يعم الناس ، خوف شديد انتابني ، اضطربت ، اصطكت عظامي ، ثم عبرت روح من أمامي فتوقف شعر جسدي ، استيقظت لكن لم أتيقن من وصفها ثم غابت عن عيني ، المكان صامت لكني سمعت صوتاً» . وهذا النص يتطابق تماماً ما ورد في سفر أيوب (٢٦ : ١٣ـ١٦) .

عثرت بعثة التنقيبات الآثارية التابعة لجامعة بنسلفانيا على ١٣٥ سطراً أمكن جمعها من ستة ألواح من الطين باللغة السومرية في مدينة (نفر) التي تبعد زهاء ١٠٠ ميل جنوب بغداد ، فاتضح أنها أول مقالة مدونة تعالج مسألة عذاب الإنسان وخضوعه وهو موضوع اشتهرت به الآداب العالمية ، والفكر الديني عن طريق سفر أيوب في التوراة . إن هذه القصيدة السومرية تمثل أول محاولة مدونة للإنسان في معالجة تلك القصة وهي أقدم من سفر أيوب بحوالي ألف سنة .

والفكرة الأساسية التي تعرض لها الشاعر السومري هي : في حالات العذاب والمصائب ليس للضحية المعذبة مهما تراءى له أنه لا يستحق ما حل به سوى سبيل واحد يسلكه ، وهو أن يمجد ربه ويتابع البكاء والضراعة والاستغفار حتى يستجاب له [١]، كما أن التراث السومري والمدونات السومرية تشير إلى وجود نماذج هائلة من الحكم والأمثال ، مدونة بالسومرية وترجمتها الأكدية ، وهي ما اقتبسها كتبة التوراة وصاغوها على أنها المزامير والأمثال التوراتية .

ومع وجود أدلة على اقتباس كتبة المزامير من هذا التراث أو غيره يظل الاقتباس من مصر أكثر رجحاناً ، فهناك دليل على تأثير التراث المصري على كاتب سفر أيوب : فالمصريون كانوا يعتبرون الفضة أثمن وأندر من الذهب ويأتي الحديد في المرتبة الثالثة والنحاس يحتل المرتبة الرابعة وبهذه الصيغة ترد هذه المعادن في هذا السفر (أيوب ١٨ : ١ ـ ٢)

إن كاتب سفر أيوب ربما يكون قد عاش في الفترة الفارسية وتأثر بالأفكار الفارسية خاصة كتاب الشيطان الذي نقل من (سوسه) إلى (ممفيس)[٢] .

اكتشفت كتابات على البردي تعود إلى ٤٠٠ ق . م تحمل اسم Kegemni[٣] وتضمنت الحكم والنصائح التي استعارها كتبة التوراة ونسبوها إلى سليمان أو غيره . ومقارنة بسيطة توضح مدى الاقتباس الذي وقع :

---

(١) صموئيل كريمر من الواح سومر ترجمة طه باقر ص ٢٠٧ـ٢٠٩

(2) G.A.F. Knight , Nile And Jordan P. 405

(3) Ibid

الحكمة المصرية	الأمثال التوراتية
١ـ كل مستمع إلى حكمتي يسلم	أما المستمع لي فيسكن آمناً ويستريح من خوف الشر (أمثال ١ . ٣٣)
٢ـ بركاتي للباحث عن الحقيقة	بركات على رأس الصديق ، أما فم الأشرار فيغشاه ظلم (أمثال ١٠ : ٦)
٣ـ وأفتح كنوز (حكمتي) له	فأدرت محبتي رزقاً وأملأ خزائنهم (أمثال ٨ : ٢١)
٤ـ حكمتي تأخذ مدى واسعاً من السلام	الحكمة بنت بيتها ، نحتت أعمدتها السبعة (أمثال ٩ : ١)
٥ـ العهود تشحذ بالسكاكين وتبعد التراخي	الرب لا يجيع نفس الصديق ، ولكنه يدفع هوى الأشرار ، العامل بيدٍ رخوه يفتقر . أما يد المجتهد فتغني . (الأمثال ١٠ : ٣ـ٤)
٦ـ إذا جلست مع مجموعة من الناس فلا تشتهي طعامهم الذي يحبونه ، فلحظات الكرب قصيرة والحسد مؤلم .	إذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ما هو أمامك تأملاً وضع سكيناً لحنجرتك إن كنت شرهاً ، لا تشتهي أطايبه لأنها خبز أكاذيب (أمثال ٢٣ : ١ـ٣)
٧ـ الرجل الذي يملأ بطنه هو الذي عادة لا يستطيع ملء بطنه في بيته	لا تكن بين شاربي الخمر ، بين المتلفي أجسادهم لأن السكير والمسرف يفتقران . والنوم يكسو الخرق (أمثال ٢٣ : ٢٠ـ٢١)
٨ـ كن حذراً عن المنازعات ، فالشخص لا يعرف متى يحل عقاب الله .	لا تبرز عاجلاً للخصام ، لئلا تفعل شيئاً بالآخر حين يخزيك قريبك . (أمثال ٢٢ : ٨)

تغلغلت كذلك طقوس الهة الكنعانيين والبابليين والأشوريين إلى الديانة اليهودية بحكم نشوئها - أي اليهودية - في بابل [1] : وكذلك نقرأ عن عبادة الشخوص الأوائل للتوراة للشمس ، كما أطلقوا على الألهة عشتار اسمها البابلي (ملكة السماء) وقد تأثر سكان يهوذا في بابل برصد النجوم ، فصب سفر اشعيا جام غضبه عليهم (اشعيا ٤٧ : ١٣ . . .) . وبالرجوع إلى التوراة (الملوك الثاني ١٧ : ٣٠ـ٣١) نجد عدداً من الآلهة المعبودة في وادي الرافدين عبدت من قبل « الشعب المختار » ومنها : ساككوت - بينوت والإله البابلي نرجال . وصفحات العهد القديم والأنبياء مليئة بالخلفيات التنجيمية وأنواع من العبادات وصلت من بابل إلى كنعان[2] .

يقول الباحث (جاسترو موريس) : من الواضح أن الأفكار التوراتية اعتمدت على البابلية والأشورية ، فالتعمق بدراسة الحضارة البابلية - الأشورية ستجعل صورة الإنجازات الواردة في التوراة باهتة بالمقارنة مع حضارة وادي الرافدين . وستطغى - هذه الحضارة - على أي فهم لأحداث التوراة ، وهي التي تجعلنا قادرين على امتلاك مفتاح حل الإشكالات التي تعترض طريقنا أثناء دراسة الأفكار الدينية اليهودية : وهي التي تجعلنا ، من جهة ثانية ، نمتلك المواقف الدفاعية في فهم الخاصية الغامضة لعموم العهد القديم واختلاط السطحي والأساسي من العناصر التي حملت إلى تاريخنا عبر التوراة ، والتي كان القصد منها الإيمان المسبق بأطروحات التوراة لتكون مرتكزات للأفكار التي يرسمها العهد القديم ضمن أضواء كاذبة وطرق كاذبة مخادعة[3] .

كتب الباحث التوراتي (جوزيف أوفورد)[4] Joseph Offord مقارنة مطولة بين الكثير من الأفكار الواردة في الكتابة المسمارية ، سواء أكانت سومرية أو أكدية ، وما يشابهها في التوراة ، ولما كان السومريون والأكديون قد سبقوا

---

(1) John Mckay , Religen In Judah Under The Assyrians 1973 P 1
(2) Jastrow Moris , Hebrew And Babylonian Traditions 1914 P. 32
(3) Ibid
(4) Joseph Offord , P.E.Q 1916

الديانة اليهودية وكتابة التوراة بآلاف السنين ، فمن المنطقي أن يكون كتبة التوراة قد استقوا معلوماتهم وأفكارهم ممن سبقوهم . فعندما اكتملت قراءتنا للمخطوطات المسمارية والمواد المتيسره ، وبمقارنة الدلالات اللغوية نجد الصلات وثيقة بين هذه المخطوطات وما جاءت فيه التوراة فالأسماء الدينية الواردة في التوراة تقودنا إلى مصدر واحد طبيعي السمات وإنساني المظهر . ومن الأفكار الموثوقة المقتبسة تلك التي تتعامل مع الله « كراع لجمهوره » . والتي وجدت في عدة حوليات مسمارية مثل : Aššur - re - sunu أي (أشور راعيهم) و Shamash - re - ua أي الإله شمشي يرعاني . وقد ظهر من الأسرة البابلية الأولى ملوك يحملون أسماء تعطي المعنى السابق Shamash - re - u ، Su - re - u .

الاعتقاد بالله كحام ، طبيعي ، يتضمن الإحسان تجاه المخلصين ، فقد وردت مفردات تحمل معنى القوة وتؤكد هذا المدلول : الحامي ، الظل ، الصخرة، التل ، الجبل .

حملت التوراة أسماء : شاميريا (أخبار الأيام الأول ١٢ : ٥) والذي يعني سيدي حاميّ واسم عزاريا الذي يعني (الذي يساعده يهوه) وهذا المعنى يمكن استخراجه متضمناً في (المزمور ٣٣ : ٢٠) إنه « مساعدي وحاميّ » ، وبنفس المعاني ترد في السومرية القديمة حيث ترى تعبير Utu - ur - ra أي (أور حاميّ) Bel - shum - uzur أي (بعل حامي الذرية) أو Shamash - abl - UZUR أي (يا شمش احمي الولد) . ويبدو الاحتمال وارداً أن اسمي (ابشائيل « أي الإله ايل قوتي » و (عزريا) أي « ايل يساند » مشتقان من اسم (ايلو - ناصر) البابلي الذي يعني « الإله ايل حامي لي » وهي تتطابق مع اسم (اشور - جارنيليا) Ashur - garnelia أي « اشور نصيري » . وما جاء في سفر صموئيل الثاني ٥ : ١٦ اسم (اليداع) ايل - يداع والذي يعني « ايل يهتم به » .

فضيلة الإله الحامي تكمن في قوته واستقامته . فكانوا يسمون (ايو - اوم - ايلو) Iau - um - ilu وهو نفسه (يوئيل) التوراتي الذي كان يأتي في البابلية

بصيغة (الإله نيريغ الدافع) Nirig - ellata - za وهكذا أيضاً ترد فكرة - Nergal tukia - tue أي « يثق بقوة نرجال » وترد الجملة البابلية Ilama - tukak أي « أنا أثق بالإله » Ashur - udannin - aplu التي تعني « أشور يشجع الإبن » بما يدل على الثقة المطلقة بآلهتهم .

فكرة حفاظ الله « يهوه » على قوة عبيده كالقلاع الراسخة واضحة في المزمور ١٩ : ٥ كما ترد في البابلية القديمة Urkittu - duri أي الإله « أوركيتو حصني » و Urkjuti - duri أي الإله « أور قلعتي » . أو Bel - emenuri أي الإله «بعل قلعتي » .

والصخور من مظاهر القوة لذا نجد أسماء في التوراة تحمل هذا المعنى مثل - زورئيل) Zuriel أي الإله « ايل صخرتي » و (ايل زور) Elizur أي «ايل صخرة» . وفي البابلية مثل هذا التعبير Suri - addana أي « صخرتي ملائمة» .

الظلال ، ظلال الصخور ، هي ملجأ العابدين وملاذ التائبين . ففي التوراة، يرد اسم (بعلائيل) (خروج (٣١ : ٢) والذي يعني « يجلس في ظل (الإله) ايل » وزفائيل Zephabial أي « ملجأ ايل » وجاء في سفر (العدد ٣ : ٣٠) اسم (الصافان) Elizaphan و (اليداع) وهما يشيران إلى أن الإله ايل يستطيع تضليل الإنسان كما العصفور الضعيف يحتضنه العش ، وهذا يذكرنا باسم أكدي (ايتي - بعل - جيني) Itti - Bel - ginni أي « عشي مع بعل » والذي يعني أن العائلة تحت حماية الإله بعل .

استعارت التوراة المضامين التي تدخل في صلب الديانة البابلية القديمة مثل Add - Milki أي الإله « أدد رئيسي » . وكذلك Ili - maliki أي ايل « الهي رئيسي» . وهي طبق الأصل كا جاءت في اشعيا ٩ : ٦ حيث يذكر الإله باسم الرئيس .

بعض الأسماء التوراتية تطري المعبود مثل : « ميخا » (الملوك الأولى ٢٢ : ٨) و (أخبار الأيام الأخر ١٨ : ٧) والذي يعني « الذي يحب يهوه »

و(ميكائيل) الذي « يحب ايل » وهذه الأسماء تطابق أسماء وردت في البابلية : (أبا ننجر سوكيم) Aba - Ningir - Sukim أي « الذي يحب ننجر سوكيم » و(مانو - كي - عشتار) Mannu - Ki - Ishtar « الذي يحب عشتار » . كذلك اسم الياهو التوراتي « ايل هو » بينما في السومرية Uttu - me - ne أي « أوتو هو » .

إن فهم الله على أنه نور الهداية أو الهادي لطريقنا مألوف لدى البابليين ، فقد وجدت هذه المعاني منقوشة في الآثار البابلية والسومرية مثل (ايلو - نوري) Ilu - Nuri أي الإله « ايلو نور لي » . و (بعل - نوري) Bel - nuri أي الإله « بعل نور لي » . وهذا يماثل ما ورد في المزمور ٢٢ : ١ .

ترد في التوراة أسماء مثل (نورا) Nuriah أي « نور يهوه » وتساوى لدى الأشوريين (نور - ايلو) Nur - ilu أو (نور - أور - ريا) Nur - ur - riya و (نور - ايليشو) Nur - ilishu والذي يعني « الههُ نور » ونظراً لشيوع عبادة النور استعمل البابليون أسماء مثل (بعل - لامار) Bel - lamar أي « يمكنني أن أرى بعل » ، تماماً مثلما جاءت رغبة أيوب حيث يقول : « وبعد أن يفنى جلدي هذا سأرى يهوه» (أيوب ١٩ : ٢٦) .

وابوة الله معروفة في التوراة حيث ورد اسم (ابائيل) و (اليآب) Eliab (العدد ١ : ١٩) وهي فكرة دينية جاءت أول مرة عند البابليين ، وأشارت إليها سلسلة أسماء ، فالإسم (اليآب) هو استخلاص مؤكد من الإسم الأشوري (ايلو - آبي) Ilu - abi والذي يعني الإله « ايلو والدي » . و (أشور - باني) Assur - bani و (بعل - باني) Bel - bani أي « أشور (أو بعل) خالقي » . وإذا كان الإله هو الخالق الأبوي للإنسان ، فالإله نفسه غير مخلوق في الديانة السومرية يؤكده النص : Ba - u - da - me - a والذي يعني أن الإله (با) ليس أب . والإله أشور يقول أنه خالق نفسه . كذلك الإله إيل في سفر العدد ٣٤ : ٢١ حيث يأتي اسم (الياداد) Elidad أي « الإله ايل صديقي » وهي تساوي لدى البابليين (ايلو - تابي) Ilu - tappi أي الإله « ايلو - صديقي » .

مجدّ السومريون والبابليون آلهتهم ، واعتبروا أنفسهم أبناء الآلهة أو

عبيدها، ففي سومر وأور اسم (أور ـ بعيو) Ur - Bau أي «المنذور لبعيو» واسم (عبد ـ ايلي) Abd - ili البابلي الذي يتطابق مع الإسم التوراتي (عبد ـ ايل) Ab-diel : وقد ورد النص التالي لدي البابليين : Ninmar - mah - kal - la أي «ننمار يرفع الرجل الوضيع » ، وهذا يتطابق تماماً مع ما جاء في سفر (حزقيال ٢١ : ٢٦) : «هكذا قال السيد الرب . . أرفع الوضيع واضع الرفيع » .

ويجب ألاّ نغفل التشابه بين الإله (سن) Sin البابلي والذي جاء في النص المسماري Sin - be - el - sa - ne - en وبين كلمة (شمايم) سماء التوراتية (سفر التكوين ٢٤ : ٧) . كذلك فإن العبارة المسمارية Ilu - siru تتساوى تماماً مع (ايل عليون) التوراتي . أما عبارة (أنا الموجود) الواردة في سفر الخروج فتكاد تكون نفس العبارة البابلية Ibassi - ilu والتي تعني حرفياً «ايلو يكون » . كما ورد اسم آخر هو La - we - ilu وهو Yau - ilu حيث يقترب المعنى من « ياه هو الله» أو « يا هو هو الله» القريبة من « يهوه هو الله » . وهذه النصوص ترجع إلى حمورابي.

كثيرة من الأسماء الواردة في التوراة كان يعتقد ـ قبل الاكتشافات الآثارية ـ أنها توراتية حتى بدأت تتسرّب المعلومات كلما اكتشفت مواقع آثارية جديدة ، فأصبح اسم ابراهيم ويعقوب أسماء لأماكن جغرافية في لوائح ماري . كذلك اسم (ازنيا) أي « الله يسمع » الواردة في (نحميا ١٠ : ٩) واسم (اسماعيل) أي الإله « ايل يسمع » كلها أسماء وردت في التراث البابلي والسومري وبالخط المسماري قبل وجود ابراهيم وذريته ـ حسب رواية التوراة ـ ففي (سبـــار) Sippara عثر على نص يحمل اسم Isma - ilum أي الإله « ايل يسمع » و Sin - Sheme أي الإله « سن ـ اسمع » . ومن المتشابهات المؤكدة بعض أسماء مثل «ابشوع » أي « أب السعادة» (أخبار الأيام الأولى ٨ : ٤) وقد ظهر الإسم في الأسرة البابلية الثامنة بصيغة Abi - e - shukh . كما تتشابه الشخصية البابلية البارزة (أبي ـ شوم) Ebi - shum و (ايشوع) . أما (ايمالك) التوراتي فيشبهه Abi - sarru السومري .

كما وجدت مسلة اسطوانية في وادي الرافدين تعود إلى فترة (نارام - سن) (٢٢٦٠ - ٢٢٢٣ ق . م) تحمل اسم شخص يدعى (اسر - ايل) Isre - il مما يدل على استعمال الإسم قبل فترة طويلة من وجود التوراة وشخوصها وأحداثها فهذا التاريخ يسبق (ابراهيم) إذا راعينا معاصرته لحمورابي - حسب ما تقوله التوراة - بحوالي ٧٠٠ سنة . وتؤكد ذلك الأسماء التي قرئت على مسلة (مانشيتوسو) Mainishtusu والمكتوبة بالخط المسماري مثل (اسماعيل) - Isma el بينما على لوح آخر من (سبار) نجد اسم (اسماعيليوم) - Ism mi - i lum[1] .

دليل آخر على اختلاف التوراة وأحداثها وتناقضها مع اطروحاتها . فموسى كما تقول التوراة سمى ابنه ((اليعازر) والذي يعني الإله « ايل يساعد» ، وتؤكد التوراة أن موسى سمى ابنه بهذا الإسم لأن الله ساعده . لكن الإسم كان مستعملاً قبل موسى بفترة طويلة في بابل Ili - ha - zi - ri وليس من المعقول أن ينقل موسى الإسم البابلي وثقافته مصرية والأصح أن كتبة التوراة هم الذين نسبوا الإسم له .

تداخل الثقافات الثلاث ، المصرية ، البابلية ، الكنعانية ، واختلاط العادات جعلت كتبة التوراة يتخبطون في اختياراتهم للشخوص الواردة في «الكتاب المقدّس » كما جعلت كثيراً من الباحثين يفسرون القضايا المطروحة حسب فهمهم العام للتوراة ، فلقد أرسل ملك أشور الكهنة إلى فلسطين الذين ابتنوا معابد آلهتهم المتعددة على الجبال كما تذكر التوراة ذلك (الملوك الثاني ١٧ : ٢٨ - ٣٠) وقد قدّس أهل حماه آلهتهم (اشيما) ، والتي يقول الدكتور هومل Hommel ان عاموس ٨ : ١٤ كان يقصدها عندما ذكر الآلهة عشرت Ash-rat .

وعبادة (اشيما) ارتبطت مع الآلهة السورية (سيما) Sima إبنة هدد و اتراجاتس Atragates وقد ذكرت بعض المخطوطات من سوريا وجود اسم

(1) Joseph Offord P.E.Q 1917

(سيميا) Simae كما تذكر اسماً آخر هو (عبد ـ سيما) وجاء في مخطوطات حوران اسم (امت ـ سيما)[1] .

الثالوث السامري بيت ايل ـ عنات ـ اشيما يمكن أن يتطابق مع الثالوث السوري هدد ـ أترجاتس ـ سيما ويشير الدكتور Ungnad إلى احتمال ارتباط عبادة (سيما) مع (اشيما) و (اشم) Asm ، وهو يعتقد أن أفضل نسب بين (اشم) يمكن أن يكون (اشوم) Asum وهي العبادة البابلية للنار التي تتساوى مع الكلمة العبرية (ايش) « النار » المذكورة في الملوك الأول ١٨ : ٣٨ وحبقوق ٣ : ٥ .

كانت عنات Anath الا ٓلهة الفلسطينية وهي أناتوت Anathoth وبيت عنات . وبيت عنان وبيت عنوت في (يشوع) أصبحت (بتل) Bethel ، وهي نسخة مؤنثة من (أناتو) Anatu أو (أنوم) Anum إله الجنة البابلي ، وقد اعتبرها كثير من الباحثين عبادة سومرية استناداً إلى المخطوطات الفنيقية ، وعبادة هذه الآلهة عرفت تماماً لأرميا[2] ، الذي اعترض عليها . فاحتجوا عليه قائلين لقد قدمنا الأضاحي وسكبنا الخمر تقدّمة إلى (ملكة السماء) . وعبادة ملكة السماء تعبّر عنها وثنية النساء في ارميا ٨ : ١٨ حيث يقول : إن النساء عملن فطيراً قدمنه إلى ملكة السماء .

الأنبياء

لعل أهم الذين أثروا في بلورة الديانة اليهودية هم الأنبياء ، والنبي يعني المتكلّم عن الله أو المخبر عن الله ، والأنبياء في التوراة كثر ، لكن ليس من دليل غير التوراة على وجودهم . والأنبياء الموجودون فعلاً هم الذين عاشوا في السبي أو بعد عودتهم إلى فلسطين مع الجيش الفارسي . وقد تشكّلت الديانة اليهودية خلال قرنين بعد سقوط بابل على يد قورش الفارسي ، عن طريق أنبياء

(1) Joseph Offord P.E.A 1915

(٢) ارميا ٤٤ : ١٥

السبي والكتبة ، وهؤلاء أعطوا أدواراً لشخوص مخترعة سموهم أنبياء في فترات زمنية متباعدة ، وكان دور هؤلاء « نقد » سلوكية العامة والخاصة ، وليكون هذا النقد بمثابة دروس وعبر وتاريخ تبنى عليها الديانة الجديدة . وقد تطور التفكير عند الأنبياء المتأخرين بحيث تشكّلت هوة بين الكتابات وأنبياء المرحلة الأولى وكتابات وأنبياء المرحلة المتأخرة . ومما يميز المرحلة الأخيرة عن الأولى أنها اتسمت بالوعي الديني ، فكانت أكثر تسامياً بالصفات الإلهية ، وأعاد أنبياؤها صياغة العلاقة بين الإله والإنسان ، وبين الإنسان والإنسان .

إن هذا التطور في الموقف الديني من المرحلة البدائية الفجة إلى المرحلة المتسامية نسبياً يلقي الضوء على النفسية المنكسرة لهذه الشريحة من البشر ، فبعد أن كانت تعاليم يهوه تحض على سفك الدماء وقتل الناس وبقر بطون الحوامل وحرق المدن والتنكيل بأهلها ، وهي ردات فعل أولية على بداية مرحلة السبي فإن المعاملة الإنسانية التي عوملوا بها والدور الذي لعبه كثيرون ومنهم «النبي » دانيال واقتطاعهم المناطق الزراعية وإسناد الوظائف الإدارية الهامة لهم والسماح لهم بحرية العبادة . خفف من غلواء حالتهم النفسية . ومن جهة ثانية اطلع أنبياء مرحلة السبي على مجمل الديانات المحيطة وعلى تطورها واستفادوا منها ، فلم يبق تفكيرهم محدداً ضمن إطار ديني واحد بل تجاوزوه إلى ديانات ما بين النهرين ووادي النيل وبلاد الشام حتى تمكنوا من تهذيب أخلاقهم الدينية وصولاً إلى مصطلح « التوحيد » بعد أن تجاوزوا مصطلح « التفريد » الذي أعطوه لإله موسى وداود مثلاً ، والذي كان شائعاً في الديانات الأخرى فما هو منسوب إلى إله موسى أو داود هو ما عرف لدى الحضارات القديمة حيث كان يخص إلهاً واحداً من بين مجموعة الهة بالتقديس والتعظيم دون نبذ عبادة الآلهة الأخرى . والواقع أن أهم ما يميز مبدأ الوحدانية الصرفة هو أن لا تساهل بوجود آلهة أخرى أو عبادتها ، بل يعمد أصحاب الأديان الموحدة إلى اضطهادهم وجواز قتلهم إن لم ينبذوا الشرك . والتفريد هو مرحلة متطورة بين الشرك والوحدانية الصرفة ، وقد ساعد في تسريع عملية التطور هذه أن أنبياء السبي لم

يقروا بتفوق الإله (أشور) كما هو العرف عند الشعوب القديمة التي كانت تسقط القوة على إله الشعب المنتصر والضعف على إله الشعب المنهزم ، بل لم يعترفوا بوجود الإله (أشور) ولا بغيره من آلهة الأقوام الأخرى ، وعللوا ما كان يقع عليهم من محن أنه ناشئ عن ذنوبهم وآثامهم وعدم رضى إلههم (يهوه) ، ويعتبر هذا المنطق من أبلغ التبريرات لتحويل الهزيمة إلى نصر .

كان الهدف الأول والأهم لأنبياء السبي اختراع (أنبياء) من شخوص معروفة أو ليس لهم وجود إطلاقاً لترسيخ أفكارهم وإطروحاتهم وأعطائها البعد والامتداد التاريخي ، فالكتبة هؤلاء أشاروا إلى ثلاثة أنبياء هم عاموس وهوشع وأشعيا في فترة زمنية واحدة ، وإذا شهد هؤلاء الثلاثة تدمير (السامرة) فقد شهد (ارميا) تدمير القدس وله نفس الأطروحات . . فلماذا هذا التكديس في الأنبياء؟!

مما لا شك فيه أن وجود عدد من أنبياء السبي في بابل وتبوؤ بعضهم مراكز هامة في الدولة (دانيال ١ : ٣ـ١٠) مثل دانيال وعزرا وحزقيال ومع وجود الوثائق التي تعود إلى فترات سابقة بحكم علاقاتهم مع مصر أولاً ثم البابليين ووجود مثل هذه الوثائق في البلاط البابلي ، والجو النفسي العام ـ السبي والحرية الممنوحة لهم ـ أتاح فرصة نادرة للكهنة والأنبياء للإيحاء بما يريدون ، خاصة أن هذا الإيحاء ربط مباشرة بالقوى الغيبية أو القوى الميتافيزيقية غير القابلة للتدقيق والتمحيص أو حتى التساؤل عنها . ولذلك ظهر من أسفار التوراة أول ما ظهر أسفار (الأنبياء) سواء الأنبياء المعاصرون للمرحلة أو الأنبياء الشخوص المتخيلة التي كتبها الأنبياء « المعاصرون للسبي وما بعده » . وعندما بدأ قوروش الفارسي يستعد لزرع العيون له في فلسطين سارع اليهود إلى كتابة الأسفار الخمسة (التكوين، الخروج ، اللاويين ، العدد ، التثنية) ليؤكدوا «حقهم التاريخي » بالرجوع إلى فلسطين وقد ساعدهم في ذلك اطلاعهم على النصوص العراقية القديمة ومعرفتهم أنساب ملوك مصر من المصدرين ، المصري (بحكم ارتباطهم كعملاء للفرعون وهم في فلسطين) أو من خلال

الوثائق التي لا بد أن تذكر مجريات الأحداث المحيطة ببلاد الرافدين .

عاصر نبيان من أنبياء التوراة فترة السبي هما : حزقيال ودانيال ، وكان نبوخذ نصر قد استقدم دانيال إلى بابل في أول سنة من حكمه (٦٠٥ ق . م) أي قبل السبي الأول البابلي بثمان سنوات ، ورشح للخدمة في القصر الملكي وسماه نبوخذ نصر باسم (بلطشاصر) ، وبعد انتقال الحكم إلى الفرس الأخمينيين تقلد دانيال أسمى المناصب . ويعتقد أن مدفن دانيال يقع في مدينة الشوش الواقعة غرب ديزفول على الضفة اليسرى لنهر الكرخة في ايران .

كما ظهر في بابل وفي عهد (ارتحشستا) الأول (٤٦٥ ـ ٤٢٥ ق . م) نبيان آخران هما عزرا ونحميا ، فكان عزرا كاهناً لقّب بالكاتب لأنه كان موظفاً في بلاط الامبراطور الفارسي ارتحشستا الأول وكان كاتباً دينياً ماهراً لذا سمي «عزرا الكاهن ، كاتب شريعة إله السماء» وقد طلب عزرا من الامبراطور السماح له بالهجرة إلى القدس ، فغادر بابل سنة ٤٥٨ ق . م ، وقد قام عزرا بعد وصوله إلى القدس بقراءة بعض فصول التوراة التي كتبها في بابل بإحدى اللهجات الأرامية التي اختارها لتكون «اللغة المقدسة» مفسراً لهم النصوص بالأرامية التي يعرفونها ، كما أنه حمل معه الخط الأرامي (المربع) الذي سمي تالياً الخط العبري . وقد مات عزرا أثناء عودته إلى بلاد فارس ودفن في منطقة بين القرنة والعمارة في العراق .

أما (نحميا) الذي عاصر عزرا في عهد ارتحشستا الأول فقد كان يعمل ساقياً في بلاط الملك الفارسي في (الشوش) عاصمة الفرس (نحميا ١ : ١١) فرجا الملك السماح له بالذهاب إلى القدس فأذن له وعينه حاكماً على إحدى ولايات فلسطين التابعة لفارس .

لقد أثر الفرس في الديانة اليهودية تأثيراً عميقاً ولا سيما في النظرة الفارسية الدينية (الثنائية الخير ـ الشر وفكرة الحساب ومبدأ العقاب والثواب والملائكة والشيطان .

لفظة نبي وفكرة النبوة ومدلولاتها وردت في التراث الكنعاني قبل وجود

التوراة بمئات السنين مما يشير إلى اقتباسها من قبل كتبة التوراة ، فقد كانت مستعملة عند البابليين ويطلقون على الأنبياء اسماً محدداً يتضمن هذا المعنى هو «موخوخو » ، كذلك وجدت في الواح (ماري) كلمة موخوخو بمعنى رسول الإله كما وردت في إحداها كلمة نبوة (موخوخوتوم)[1]

تقوم الديانة اليهودية على مصدرين : التوراة (العهد القديم) والتلمود ومعناه التعاليم أو الشرح والتفسير وتتكون التوراة من ٣٩ سفراً وتقسم إلى ثلاثة أقسام .

الأول : ويتألف من خمسة أسفار هي : التكوين ، الخروج ، اللاويين ، العدد، التثنية ، وقد أطلق على هذه الأسفار اسم « كتب موسى الخمسة » .

الثاني : الأنبياء ويشمل علي مجموعتين : الأولى خاصة بالأنبياء الأول والثانية بالأنبياء المتأخرين ، والأولى تحتوى على سفر يشوع ، سفر القضاه ، سفر صموئيل الأول والثاني ، سفر الملوك الأول والثاني وسفر الأخبار ، الأول والثاني . والمجموعة الثانية الخاصة بالأنبياء المتأخرين تتألف من أربعة عشر سفراً هي : اشعيا ، ارميا ، حزقيال، يوئيل ، عاموس ، عوبديا ، يونان ، ميخا ، ناحوم ، حبقوق ، صفنيا ، حجي ، زكريا ، ملاخي .

الثالث : الكتابات وتتألف من اثني عشر سفراً وهي : مزامير داود ، أمثال سليمان ، أيوب ، نشيد الانشاد ، راعوت ، هوشع ، مراثي ارميا، الجامعة ، استير ، دانيال ، عزرا ، نحميا .

---

(1) Giovanni : Pettinato Biblical Archaeologist Vol 39 No 2 May 1976

الكهنة :

اقتبست الديانة اليهودية أول ما اقتبست نظام الكهنة من الديانات المحيطة وطورته ليصبح معها دور الكاهن ، الإشراف على تطبيق الشرائع والشعائر ، وبذلك أصبح الواسطة بين الإله والإنسان ، أي أنه يقوم بدور النبي والحكيم بصورة غير معلنة . . فإذا كان النبي هو صاحب التشريع والحكيم هو المفسر لهذا التشريع فإن الكاهن هو المشرف الاجتماعي إضافة إلى تفسير وحماية التشريع . ولكي يكون أتباع هذه الديانة تحت سياط اللوم و « التوجيه » والعقاب الدائم أسبغ على هذه المهنة سمات التقديس بنسبها إلى هارون وأبنائه «اللاويين»(١) .

تأثرت الديانة اليهودية بديانات مصر وكنعان في موضوع الكهنة ، ففي مصر ومنذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد لعب الكاهن الأعظم لآمون في طيبة مركزاً سياسياً هاماً . وفي بداية القرن الحادي عشر ق . م وضع الكاهن الأعظم (هريهور) Hrihor أسس الكهنوتية المنظمة في النيل الأعلى .

إضافة إلى ذلك فقد كان في أوغاريت كاهن عظيم (رابو كاهينيما) ، ويعتبر رئيساً للكهنة . وهذا الإسم يشبه الإسم الأرامي (كهانا رابا) وهو في العبرية الكاهن الأعلى . وقد كان اللفظ نفسه تقريباً (راب كهونيم) يستعمل في القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق . م حيث يطلق على رئيس الكهنة في المخطوطات الفنيقية . فهل يمكن الاعتراف بحقيقة أن مصادر العهد القديم عن الكاهن الأعظم مأخوذة ببساطة من (هاكوهن) « الكاهن » في الفنيقية والأرامية؟ سؤال طرحه الباحث وليم أولبرايت(٢) .

---

(١) الخروج ٢٨ : ١

(2) W.F. Albright , Archaeology And The Religion Of Israel P 107 - 108

الهيكل

الهيكل هو البيت الكبير الذي اعتقد الإنسان في بلاد الرافدين ضرورته لسكن الآلهة ، فمكان إقامة الآلهة في السماء ، وإذا رغبت النزول إلى الأرض فلا تكون إقامتها إلاّ في بيوت كبيرة (الهيكل) . لذا فتقديس الهيكل في الديانة اليهودية ليس من إبداع مؤسسي هذه الديانة بل هو مقتبس من الشعوب المحيطة ففي نفر - بابل ونينوى - أشور كان تقديس الهيكل منذ الألف الثاني قبل الميلاد . وفي (ماري) أظهرت اللقى أن هيكل (سن) في حران وقطنا كانا ذو شهرة منذ ١٨٠٠ ق . م . ولم يكن الاهتمام بالهيكل في سوريا فقط أوالعراق بل في مصر أيضاً ، إلى درجة أن هيكل بعل في بيبلوس تسلم النذور المصرية بكميات كبيرة في العصر البرونزي [١] .

أسفرت التحريات الحديثة في بلاد الشام إلى الكشف عن المعابد القديمة وبعضها يرجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد كتلك التي عثر عليها في أريحا ومجدو وكانت بأبسط صورها مكونة من حجرة واحدة وباب ، ولكن طورت أبنية المعابد بعد منتصف الألف الثاني ق . م وازدادت مرافقها وأجزاؤها ، وتمثلها المعابد التي اكتشفت في بيسان وأوغاريت ، وتشترك مثل هذه المعابد جميعها بعناصر أساسية : (١) مذبح من الحجر (٢) النصب المقدس (٣) وبجانبه العمود المقدس (٤) الحجرات تحت أرضية المعبد . وإلى جانب المعابد المبنية استعمل الكنعانيون معابد محلية في العراء وعلى قمم الجبال والتلال لا تحتوي إلاّ على مذبح الحجر وعمود الحجر المقدس .

يعتبر المذبح أهم أجزاء المعبد وقد اقتبس كتبة التوراة سماته من الديانات المحيطة ، وسمت الحجر المقدس - على طريقة الآخرين - بالتمثال والعمود (الملوك الثاني ١٠ : ٢٧) ، (التكوين ٣٢ : ١٤) ، (صموئيل الثاني ١٨ : ١٨) وبجانبه كان العمود المقدس أو الشجرة المقدسة (اشيرا) (الملوك

---

(1) W.F. Albright , Archaeology And The Religion Of Israel P 105

الأولى ١٦ : ٣٣) ، (الملوك الثاني ٢٣ : ٦ـ٧) (اشعيا ٢٧ : ٩) . وقد اعتبر البروفسور Badé أن مذبح هيكل يهوه قد اقتبس كلياً من مذبح هيكل عشتارت ، تؤكد ذلك الآثار المكتشفة في رأس شمره والتي أشارت إلى الإسم الديني (يو ـ ايلات)[١] .

تقول التوراة أن سليمان بنى الهيكل في السنة الرابعة لحكمه ليضع فيه تابوت العهد وكان اتجاه المعبد نحو الشرق حيث يمكن ـ على حد تعبير التوراة ـ رؤية الشمس المشرقة بين أعمدة المعبد . وهذه الأعمدة تذكرنا بالأعمدة الأشورية ، وهو يماثل في تصميمه المعابد السورية (الكنعانية) المعروفة من أوغاريت وقطنا ودمشق ، ومن الظواهر المعمارية التي يذكرها العهد القديم عن المعبد أنه بني من أرز لبنان ، أي على الطريقة الفنيقية (ملوك الأول ٦ : ١٤) وتذكر التوراة اسم (حيرام الصوري) (الملوك الأولى ٧ : ١٣) حيث بنى لسليمان الحوض المسبوك من البرونز (الملوك الأولى ٧ : ٢٣) بقطر عشرة أذرع وعمق خمسة أذرع ويستوعب عشرة آلاف غالون ماء ، ويرتكز على اثني عشر ثوراً برونزياً ، والذي فسر على أنه رمز فنيقي للكون ، وهو بالتأكيد على غرار المعابد البابلية التي ترمز إلى (ابسو) أي ماء الأعماق .

عثر أثناء التنقيبات في (تل الناشبة) في فلسطين على مذبح كنعاني يماثل مذبح بنيامين التوراتي ويدل السور حول التل دون أدنى شك أنه كنعاني البناء[٢] . فالمذابح في فلسطين يرقى وجودها إلى العصر البرونزي الوسيط أي قبل وجود الموسويين بمئات السنين . كما أن مذبح بيت شان مبني على النمط المصري[٣] .

---

(1) Herbert Gorden May , Culture And Conscience P 90
(2) J. Garrow Duncan , Diggin Up biblical History P 218
(3) Raphael Giveon P.E.Q Jan - June 1961

تابوت العهد

بعد أن كتب الله الوصايا بخط يده (خروج ٣٢ : ١٥ ـ ١٧) وأعطاها لموسى كما تدعي التوراة وفيها نقش « العهد » مع « شعب الله المختار » ارتأى هؤلاء وضعها في خزانة يحملونها في ترحالهم سموها تابوت العهد . وتابوت العهد كعبادة متنقلة كانت صورة مطابقة لما جاء في الديانة المصرية ، فتابوت المصريين غالباً ما يتضمن شعارات ورموز دينية وغالباً ما أخذ شكل القوارب ، ولكن القاعدة العامة أنه يأخذ شكل صندوق أو خزانة ـ فكان تابوت العهد الموسوي قد صنع ليحمل في موكب أو على اكتاف الكهنة وطوّق بالأعمدة والأضلاع ، فالفوارق بين النوعين المصري والموسوي معدومة والسمات المشتركة ليست عارضة ، لذا من الجائز القول أن تابوت العهد الموسوي نسخة طبق الأصل من تابوت العهد المصري إلى درجة أن الكهنة التوراتيون أخذوا بطرق وقواعد الكهنة المصريين حتى في لباسهم وطرق تنفيذ شعائرهم[1] .

يوم السبت

أساس الفكرة الدينية اليهودية بالنسبة ليوم السبت تذكرها التوراة : « وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل ، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل » (التكوين ٢ : ٢) لكن بالرجوع إلى التراث البابلي فإن « يوم الراحة» يسمى « شباتوم Shabattum) ويتضمن نفس المفهوم التوراتي ، ولما كان البابليون أقدم من موسى والموسويين فلم يعد مجالاً للشك أن كتبة التوراة اقتبسوه منهم .

المقارنة بين شباتوم البابلية و « سبت » التوراتية تبدو ضرورية . فعدة الواح من مكتبة نينوى (مكتبة أشور بانيبال) تشير إلى جملة « يوم راحة للقلب » day of rest of the heart وهي جملة متكررة وواضحة تشير إلى التوقف عن

(1) Werner Keller , The Bible As History P. 100

مـواصلة الجهـد والعـمل وهذه الجـملة توضـحـهـا جـملة « اجـعل القلب في راحة» May the heart be in resty وهي تعني ليكن الكائن الحي هادئاً . القلب والكائن الحي اسـتـخـدمـا من قبل البابليين والأشوريين وكتبة التوراة ليأخذا مقعدهما في العقل والحياة ، إنهما يظهران أن « راحة القلب » تعني راحة العقل والنفس . وأن « هدوء الكائن الحي » ترادف راحــة القلب لتـصل إلى هدوء الكائن الحي الذي يعني التوقف عن الحركة . وهذا يؤكد وجود يوم لراحة البابليين ، فشباتوم البابلية تكون أساس (شبت) أي سبت التوراتية [1] .

الموت ومصير الروح

اكتسبت فكرة الحساب بعد الموت أهمية كبيرة في العقائد الدينية عند العديد من أقوام الشرق الأدنى ، حيث كانت هذه العقائد واضحة ومؤثرة في حضارة مصر القديمة وحضارة وادي الرافدين . فقد وردت الكثير من الإشارات عن توقع المصري القديم للحساب بعد الموت منذ عصر الأهرام حيث نجده يؤكد مراراً على براءته من المعاصي والسوء ، مثل : لم ارتكب أي عمل سيء نحو أي شخص ، وكان جلياً أن مثل هذه الأخلاق تعتبر ذات قيمة في نظر الآلهة ويمكن أن تؤثر تأثيراً مادياً على سعادة الميت في الحياة الأخرى ، فهناك عقاباً منتظراً لكل من ارتكب اثماً . وقد اعتبر الوصول إلى حياة النعيم بعد الموت مرهون بحياة المتوفي الدنيوية الخلقية . حتى الفرعون الإلهي الذي كان فوق وصاية الحكومة الأرضية كان خاضعاً للإلزام الخلقي هذا [2] ، بعد أن كان الملك في نصوص الأهرام يعرض كصاعد إلى النعيم وهو يحظى بكل مباهج الخلود كـإبن للإله (رع) ، ويقـوم الإله (أوزوريس) بدور القـاضي في يوم الحساب في ردهة الحقيقة يعاونه اثنان وأربعون إلهاً وهم يمثلون أقاليم البلاد كلها ، ويقف وراء أوزريس في المحكمة الإلهتان (ايزيس) و(نيفتس) ، وإلى

---

(1) Jastrow Morris , Hebrew And Babylonian Traditons 1914 P. 137

(٢) نائل حنون عليوي عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين ص ١١٦

جانب الردهة يصطف تسعة آلهة يمثلون تاسوع (هليو بوليس) برئاسة إله الشمس (رع) وفي الوسط ينتصب ميزان (رع) الذي توزن فيه العدالة ويقوم على إدارته (أنوبيس) ويقف إلى الخلف منه الكاتب الإلهي (تحوت) وهو يشرف على عملية الوزن وفي يده القلم ولوح الكتابة وتقبع خلفه ماردة مروعة يطلق عليها « الملتهمة » لها رأس تمساح ومقدّمة أسد ومؤخرة فرس النهر ، وهي تنتظر التهام الروح المدانة . وحين يدخل الميت إلى الردهة يوضع قلبه في كفة من الميزان بينما توضع في الكفة الأخرى ريشة ، رمز الحق والاستقامه ، ثم يعلن تحوت الحكم على الميت(١) .

لقد اعتقد المصريون القدماء بأن الإنسان مكون من عنصرين متمايزين هما الجسم والروح ، واعتقدوا أيضاً بخلود الروح بعد الموت شرط بقاء الجسم سالماً وزود ببعض احتياجاته . فكان هم الديانة المصرية القديمة انقاذ روح الميت ، لذا وضعت أدعية لهذا الغرض اقتبسها كتبة سفر أيوب وأدخلوها للديانة اليهودية ومنها(٢) .

الأدعية المصرية	**ادعية أيوب**
لم ارتكب زنا	**عهداً قطعت على نفسي ألاّ انظر إلى عذراء**
لم اتعامل بالغدر مع أي إنسان	**لم أمش إلى الغش أبداً**

الانعطاف الحاد الذي تعرّضت له الديانة المصرية القديمة فيما يتعلّق بمصير الميت وقع نتيجة الأفكار التي طرحها امنحوتب الرابع (اخناتون) حيث نسخ فكرة البعث التي كانت متبعة والتي أقام الفراعنة الأهرامات لدفن الفراعنة استعداداً ليوم البعث . وقد رأى بعض المفكّرين (٣) تأثر كتبة التوراة بما جاء به (اخناتون) الأمر الذي يفسرعدم ذكر يوم البعث في كافة أسفار التوراة .

(١) جيمس هنري بريستيد تطور الفكر والدين في مصر القديمة ترجمة زكي سوس ص ٤٠٤
(2) G.A. Frank Knight , Nile And Jordan P. 390
(٣) سيجموند فرويد موسى والتوحيد

كان تأثر الديانة الكنعانية مقتصراً على مصر قبل الألف الثاني قبل الميلاد حيث شاعت « عبادة الموت [1] » فقد تم اكتشاف أعداد من القبور جرى تحنيط أصحابها على الطريقة المصرية ، ومنذ الألف الثاني ق . م بدأت تدخل البلاد صنوف من الديانات من بلاد وادي الرافدين وذات جذور سومرية أو من شمال سوريا وذات جذور حثية . وقد تواترت الاكتشافات الآثارية في فلسطين مشيرة إلى تداخل النماذج الدينية .

كانت العقيدة العامة عند سكان وادي الرافدين القدماء أن الخلود والحياة ميزة استأثرت بها الآلهة في حين أنها جعلت الموت نصيباً مقدراً على البشر وفكرة خلود الآلهة هذه أخذها لاحقاً كتاب التوراة كما يتضح من النص الآتي : « أيامي كظل مائل وأنا مثل العشب يبست ، أما أنت يا رب فإلى الدهر جالس وذكرك من دور إلى دور » . (المزمور ١٠٢ : ١١ ـ ١٢)

لم يتصور البابليون أن الموت غاية تتفرق عندها الحياة وتنعدم انعداماً كلياً أي أنهم لم يعتقدوا بالفناء المطلق وأن الموت عندهم انعدام الكائن الحي إلى جزأين وانفصال أحدهما عن الآخر وهما الروح والجسد ، فبالموت تنفصل الروح عن الجسم وتنتقل إلى طور جديد من الوجود ، إذ تنحدر الروح بعد وضع الجسم في القبر إلى عالم الأرواح ، وهو العالم الأسفل وتعيش هناك إلى أبد الآبدين حيث لا قيامة ولا رجعة عندهم . فلم تتوالد عندهم فكرة دار للعقاب ودار الثواب فيما بعد الموت ، فلم يكن ثمة نعيم وجحيم أو جنة ونار في الديانة البابلية بل للثواب والعقاب زمنيان في هذه الحياة ، ونشأ عن هذا الاعتقاد تمسكهم بالسلوك والأخلاق التي فرضتها عليهم ديانتهم والتي انعكست على عباداتهم وخضوعهم للشرائع ومعاملاتهم التجارية ، حيث تجد الآلهة تدخل في العقود والصكوك لئلا ينتقص نص العقد . وتذكر لعنات الآلهة في الشرائع على من يبدل نصوصها ويحرفها كما ورد جلياً في شريعة حمورابي .

(1) Herbert Gordon May , Culture And Conscience P. 65

ومن آثار الاعتقاد بالثواب والعقاب في هذه الحياة وانتفاء فكرة البعث والنشور أن البابليين أقبلوا على الدنيا وعملوا لها بخلاف الحضارة المصرية القديمة التي خصصت معظم جهودها لشؤون الموت ، في حين أن الصفة المادية والتنعم والمتعة في هذه الحياة قد ظهرت في حضارات العراق القديم واضحة في مقوماتها وخصائصها ؛ ويبدو أن ملوك العراق القدماء قد دفعهم الإيمان بانتفاء الخلود في عالم آخر إلى تخليد أنفسهم بالأعمال العمرانية ، وتراهم يشيرون إلى هذه المحاولة صراحة في كثير من سجلاتهم ومآثرهم ، حيث ذكر بعض أبطالهم ومنهم (جلجامش) الذي قام بأسفار ومغامرات إلى موضع قصي ليكتب اسمه في مكان مخصص لأسماء الآلهة نشداناً للخلود .

يصف اللوح الثاني عشر من ملحمة (جلجامش) العالم الأسفل ، وعالم الأرواح ، وحين يصل إلى جده (أوتو ـ نبشتم) يشرح له هذا أن الخلود فقط سمة للآلهة العظيمة .

أما العقائد الواردة في التوراة فأكثر قرباً إلى عقائد البابليين رغم ممارسة بعض الشعائر المصرية كالتحنيط الذي فعلوه بيعقوب ويوسف كما تورد التوراة ذلك . فالتوراة تذكر عالم الأموات باسم « شيئول » (وهي تعني عالم الأموات أو جهنم أو عالم الأشرار) وتعني أيضاً العالم الأسفل والقبر والموت بشكل عام . وكما هو الحال عند البابليين، لم تتصور التوراة هذا العالم إلاّ مظلماً ومخيفاً. واستعملت التوراة لفظة (موت) للتدليل على فعل الموت ، وهذه اللفظة اكتشفت حديثاً ـ من خلال الواح شمره ـ إنها خاصة بإله الموت الأوغاريتي الذي يحمل اسم (موت) وهو نفسه (موتو) البابلي . ويستنتج من التوراة أن عالم الأرواح أو عالم الموتى في أعمق أجزاء الأرض السفلى تحت البحر [1] . وأن لهذا العالم مدخل أو أبواب ، كما اعتقد البابليون ، وهناك حالات لم تذهب فيها أرواح بعض الموتى إلى «شيئول » مثل حزقيا . وبعضهم مثل الياهو صعد إلى السماء .

---

(١) التثنية ٣٢ : ٢٢ ، المزمور ١٣٩ : ٨ ، عاموس ٩ : ٢ ، أيوب ٢٦ : ٥

هل يذهب الأشرار والصالحون إلى مصير واحد في نهاية المطاف هو «شيئول» وبذلك تتساوى الأعمال الخيرة والشريرة ؟ : لقد اختار فقهاء الدين اليهودي في الإجابة على مثل هذا التساؤل بالنظر لعدم وجود نصوص صريحة في التوراة حول موضع العقاب والثواب أو دار النعيم والجحيم . وهناك بعض الشروحات اليهودية التي تشيرإلى « شيئول » وهي مقر الأشرار فقط ، فيكون هذا الموضع مرادفاً « لجهنم » (و الجدير بالذكر أن كلمة جنهم مأخوذة من «وادي هنوم » قرب القدس وهو موضع كانت تمارس فيه عادة القاء الضحايا البشرية لأحد الهة النار « مولك » ثم صاروا يرمون فيه أجسام المجرمين والقاذورات ويشعلون فيها النار منعاً من انتشار العفونة منه ، فصار بذلك مرادفاً لموضع العذاب أي جنهم) .

الطوفان

شاعت قصة الطوفان عن طريق التوراة [١] ، التي كان بطلها (نوح) ، وغدت رغم اسطوريتها تمثل حالة تاريخية لدى عموم الناس . لكن ما أن اكتشف الآثاريون البريطانيون مكتبة أشور بانيبال في نينوى ومن بينها عشرين رقيماً هي ما عرف تالياً بملحمة جلجامش حتى بات الباحثون يتساءلون حول القصة التوراتية للطوفان : ثم توالت الاكتشافات الخاصة بالطوفان لتكشف عدة قصص أخرى جميعها كانت شائعة وقبل كتابة التوراة بآلاف السنين ، والقصص هذه ترتبط ثقافياً بأكثر من قناة وحبل واصل ومتصل بين ثقافة وأخرى .

لقد كشفت حتى الآن ثلاثّ قصص بابلية عن الطوفان الأولى - حسب اكتشافها - بطلها (اوتو - نبشتم) والثانية بطلها (زيو - سدرا) والثالثة ذكرها فرير كينسكي [٢] Tikva Frymer - Kensky وبطلها يحمل اسم (ارهاسيس) الأمر

---

(١) التكوين ٦ ، ٧
(2) Tikva Frymer - Kensky , Bibleical Archaeologist Vol 40 No 4 1977

الذي يؤكد شيوع هذه القصة إلى الحد الذي وصلت معه بسهولة إلى كتبة التوراة فوظفوها في كتابة سفر التكوين .

عرفت أسطورة (آرهاسيس) منذ وقت طويل لكن البناء الأدبي للأسطورة لم يفهم حتى تمت قراءة صياغته من قبلJ. Laessoe عام ١٩٦٥ ساعد في ذلك نشر بعض الألواح البابلية المكتوبة بالمسمارية والتي تعود إلى ١٦٥٠ ق.م من قبل الباحثان Lambert و Millard مما ساعد في معرفتنا لهذه الأسطورة .

تبين هذه الأسطورة صورة الكون ووجوده قبل الإنسان ، عندما كانت الآلهة تعمل كالإنسان ، والكون مقسم بين الآلهة ، وكان انليل يحكم الأرض ، والإله انكي العالم السفلي ، وسبعة آلهة (يسمون أنو ناكي Anunnaki في الألواح) عينوا أنفسهم كطبقة حكام .

أصبحت « أعمال الآلهة ثقيلة وازعاج العمل تزايد » خاصة عندما حفروا دجلة والفرات - كما تقول الأسطورة - فتمردوا ورفضوا الاستمرار بمثل هذه الأعمال ، وبنصيحة من انكي قرر الآلهة خلق من يقوم بالعمل . فخلق انكي والآلهة الأم الإنسان من طين ومن لحم ودم الآلهة المقتولة(1) .

هذه الأسطورة تبدو أنها في حالة متطورة إلى حد بعيد وقد استفاد كاتبها من الأفكار القديمة وربطها منطقياً من خلال بداية الإنسان ، فقد كون صورة عن خلق الإنسان وسبب وجوده ، مما يدلل أنه أخذ بالمعرفة السابقة عن الطوفان ووظفها في قصة خلقه ليكمل القصة . ولما خلق الإنسان - كما ورد في أسطورةارهاسيس - حدثت مشاكل :

اثنا عشر مائة من السنين [قد مرت]

[كانت الأرض ممتدة إلى ما لا نهاية] والشعوب تعيش عليها

[الأرض] تنفخ [مثل ثور]

انزعجت الآلهة من [هياجهم]

---

(1) Ibid P. 148 - 149

[أنليل سمع] ضجيجهم

[وخاطب] الآلهة العظام

ازعاج الإنسان [أصبح مؤرقاً لي]

[ومع ضجيجهم] ، أحرم من النوم

لقد قررت الآلهة حل المشكلة بالقضاء على الإنسان ، فأرسلت الطاعون ، لكنه انتهى عندما نصح الآلهة أنكي رجلاً بمحاولة اقناع (نامتار) Namtar إله الطاعون لإبعاد هذا الوباء . فالطاعون لم يحل المشكلة - بالنسبة للآلهة - حلاً دائماً ، فبعد اثنتي عشرة مائة من السنين ظهرت المشكلة مرة ثانية ، فأرسلت الا لهة الجفاف والذي انتهى عندما رشى رجالٌ الإله هدد Adad فأرسل الأمطار . وتكررت المشكلة فأرسلت الآلهة المجاعة ، ولم تحل المنغصات . وأخيراً حث الإله أنليل الآلهة لإيجاد « حل مثالي » للمعضلة واقترح إرسال الطوفان ، فقضى الطوفان على الجنس البشري . وقد عارض انكي هذه الخطة حيث طلب من ارهاسيس بناء فلك لينجو من الطوفان ، وقد ندمت الآلهة على فعلتها بسبب جوعها وعطشها وحاجتها لقرابين الإنسان . وهناك أقام ارهاسيس القرابين ودعا الآلهة ، وأثناء ذلك قدم انكي حلاً دائماً للمشكلة ، فجعل العالم بعد الطوفان يختلف بأن استدعى (نينتو) Nintu إلى الولادة وخلقت خلقاً جديداً فتأكد أن المشكلة لن تتكرر .

القصة السومرية . ربما تكون أولى قصص الطوفان التي وصلتنا من البابليين وهي القصة التي بطلها (زيو - سدرا) . وتبدأ الأسطورة بخلق الإنسان والحيوان وتأسيس المدن الخمس القديمة ، ثم حدوث الطوفان لإفناء البشر ، ولكن ندم بعض الآلهة ولا سيما إله (اريدو) « انكي » أخبر (زيو - سدرا) أن ينقذ نفسه ويبني فلكاً ، ودام الطوفان سبعة أيام وسبع ليال ، وبعد الطوفان كوفئ (زيو - سدرا) بأن خلدته الآلهة وأسكنته في أرض الموت وإلى أرض الموت ركب جلجامش الأسفار الطويلة وحج إلى جده (اوتو - نبشتم) كي يعلمه

الخلود .

أما أشهر القصص والملاحم التي تذكر الطوفان فهي قصة « جلجامش » والتي يشكّل (اوتو ـ نبشتم) إنسان الطوفان بطلها . وهذه القصة أطول ملحمة شعرية في الأدب البابلي وقد كتبت على إثني عشر لوحاً من الطين بنحو ٣٥٠٠ سطراً وقد عثر عليها الباحثون في مكتبة أشور بانيبال في نينوى . ومحور القصة يدور حول مغامرات جلجامش وصاحبه (انكيدو) والطوفان في الأصل وقائع حقيقية حدثت في طيات الماضي البعيد في جنوب العراق تؤكده الحفريات الحديثة ، وقد أرجعه الآثاريون إلى حدود ٣٠٠٠ ق . م وهذه الوقائع كانت تروى شفاهاً فتشوهت معالمها التاريخية والحال نفسه يشمل رواية التوراة عن الطوفان التي تشبه الروايات البابلية شبهاً كبيراً يجعلها ترجع إلى أصل واحد ، أي أن قصة التوراة والقصص البابلية الأخرى تروي خبر طوفان واحد وقع جنوب العراق في العهد المسمى بعهد جمدة نصر بداية الألف الثالث ق . م حيث تؤكد ذلك دلالات التنقيبات الحديثة فقد وجدت آثار ترسبات من الطوفان تفصل بين دوري جمدة نصر وعصر فجر السلالات وذلك في مدن العراق القديمة ومنها (كيش) و (الوركاء) و (شروباك) (وهي بلدة فارة اليوم) والمدينة الأخيرة كانت موطن (أوتو ـ نبشتم) بطل أسطورة الطوفان البابلي . وقد ورد ذكر الطوفان في ثبت الملوك السومريين ، حيث رتّب الملوك إلى ملوك ما قبل الطوفان وملوك ما بعد الطوفان .

تبدأ القصة بوصف بطل الرواية (جلجامش) فتذكر حكمته وقوته ، وتصف أعماله في مدينة الوركاء وكيف أنه بنى أسوارها ومعبدها المقدّس (أي ـ أنا) وكان جلجامش على أتم ما يكون من الصورة والخلق ، فقد صنعته الآلهة أحسن صنعة وذا جسم قوي ، هائل الخلقه ، ثلثاه إله وثلثه الباقي بشر .

أخذ جلجامش أهل الوركاء بالعنف والاضطهاد ، فلم يترك ولداً لأبيه ، ولم يترك الزوجة لحبيبها .

فاستغاث الناس بالآلهة ، فاستمع الإله (أنو) لهم وقال للآلهة (ارورو)

أنت خلقت جلجامش فاصغي غريماً ونظيراً له . فامتثلت (ارورو) لأمر (آنو) فغسلت يديها وأخذت طيناً وعجنته وصنعت منه بطلاً قوياً هو (أنكيدو) وكان هذا مارداً يغطي جسمه الشعر ، لا يعرف البشر ، وقف أنكيدو على باب المدينة متحدياً جلجامش ، فنشبت معركة عنيفة بينهما ، وبعد جهد تمكن جلجامش من أنكيدو . وأعجب البطلان كل منهما بالآخر فصارا صديقين حميمين .

ثم تآمرت الآلهة عشتار على أنكيدو فمرض ومات ، فحزن جلجامش وأخذ يفكر بفكرة الخلود ، حتى استقر به الأمر إلى أن يجدّ بالسفر إلى جده (اوتو ـ نبشتم) ليسأله عن الخلود ، ولما وصل بدأ (اوتو ـ نبشتم) يروي له قصة الطوفان :

قال (اوتو نبشتم) لجلجامش : كنت أعيش في (شروباك) المدينة التي تعرفها الواقعة على نهر الفرات ، وقد عزم الآلهة على إحداث الطوفان . وكان الإله (ايا) في مجلسهم فنقل حديثهم إلى كوخ القصب (أي مسكن اوتو ـ نبشتم) وقال مخاطباً : يا كوخ القصب ، اسمع يا كوخ القصب ، وتأمل يا حائط : يا رجل (شروباك) قوض بيتك وابن لك سفينة واترك ما تملك وانج بنفسك وخذ معك إلى السفينة بذرة كل مخلوق حي . ولما سمعت ذلك قلت للإله (ايا) ، يا الهي سأعمل بكل ما أمرتني به ولكن بماذا سأجيب أهل مدينتي؟ فأجابني (ايا) هكذا قل لهم أن (انليل) يكرهني فلن أستطيع العيش في مدينتكم بعد الآن وسأنزل ألي مياه (الابسو) وأعيش مع (ايا) الهي ، أما أنتم فسينزل عليكم المطر مدراراً ، وسيمطركم الموكل بالزوابع مطراً من قمح ، فجمعت الناس حولي وشرعت بصنع السفينة ، وأقمت هيكلها ، وأنشأت فيها ست طبقات سفلى ، قسمتها إلى سبع طبقات ، وقسّمت طبقاتها إلى تسعة أقسام وجهزتها بما نحتاج إليه من المؤن . وحملت فيها كل ما أملك ، ووضعت فيها بذرة كل مخلوق حي ، وأدخلت فيها أهلي وذوي قرباي ، وحيوان البرية ووحوشها وجميع الصناع . وحلّ الوقت المعين فأرسل الموكل بالزوابع مطراً مهلكاً من السماء ، وتطلّعت إلى الجو فإذا هو مخيف لا يمكن

النظر إليه ، فدخلت السفينة وأغلقت بابها ، وعندما لاح أول خيط من نور الصباح أتت غيوم سود من الأفق البعيد ، وأرعد الإله (أدد) في داخلها ، وبلغت رعوده عنان السماء ، وانقلب النور إلى ظلمة ، وهبّت العواصف العاتية يوماً واحداً وحلت بالناس كالحرب المدمرة وانكسرت السدود ، استمرت العواصف ستة أيام وست ليال وانهمرت الأمطار ، فغطى الطوفان الأرض وذعر الناس بل والآلهة حيث انهزمّوا إلى سماء (انو) وصرخت عشتار مثل امرأة في المخاض وانتحبت سيدة الآلهة بصوت شجي وقالت : تحولت الخليقة القديمة إلى طين لأني أمرت بالشر في مجلس الآلهة ، وصار البشر الذين ولدتهم مثل بيض السمك يملأون المياه . ولما كان اليوم السابع خفت شدة العاصفة والطوفان ، وسكن البحر وهدأت الزوبعة ، ففتحت كوة من السفينة فسقط النور على وجهي ، وتطلعت إلى البحر فكان كل شيء هادئاً واستحال البشر جميعاً إلى طين . فانحنيت وبكيت . . ثم استوت السفينة على جبل نصير الذي أمسك السفينة ولم يدعها تتحرّك طوال سبعة أيام ، فأطلقت في اليوم السابع حمامة فذهبت الحمامة ثم عادت لأنها لم تجد موضعاً تحط عليه ، ثم أطلقت السنونو فذهب وعاد إليّ لأنه لم يجد مكاناً يحط عليه ، ثم أطلقت غراباً فذهب الغراب وكانت المياه قد انحسرت ، فأكل وحام وحط ولم يرجع إليّ . ثم أطلقت كل شيء إلى الرياح الأربعة وقرّبت قرباناً ، فلما شمت الآلهة رائحة القربان ، اجتمعوا حول ما ضحيت كأنهم الذباب . وقالت الآلهة عشتار : أيتها الآلهة : «كما أني لا أنسى عقد اللازورد الذي في عنقي سأتذكر هذه الأيام ولن أنساها ، فلتقترب الآلهة من القربان إلاّ (انليل) الذي أحدث الطوفان بلا روية فأهلك البشر » .

وعندما وصل (انليل) ورأى السفينة غضب غضباً شديداً لأن بعض البشر نجا من الهلاك ، وانبرى له الإله (ايا) وكلمه قائلاً : أيها البطل ، يا أعقل الآلهة ، كيف جاز لك أن تحدث الطوفان بلا روية ، فلتحتمل ولا تفرط في الشدة على المذنب فتهلكه ولا تلن له كي لا يفلت زمامه ، ثم صعد انليل إلى

السفينة وأخذ بيدي وأخرجني مع زوجتي ، فسجدنا له ، ثم وقف بيننا ولمس ناصيتنا وباركنا بقوله : لم يكن أوتو ـ نبشتم حتى الآن سوى إنسان ولكن ليكن أوتو ـ نبشتم وزوجه إلهين مثلنا ، وسيعيش أوتو ـ نبشتم بعيداً عند (فم الأنهار) فأخذوني وأسكنوني ، في هذا الموضع[1] .

يرى الباحثون أن قصص الطوفان جميعها تخبر عن حدث واحد ، والطوفان التوراتي « طوفان نوح » مأخوذ عن القصص البابلية بتغيير بسيط ورد في الأسماء التي يقتضيها التطور الحاصل . . ومع ذلك نجد أحياناً تطابقاً يصل حد اللفظة بين القصة البابلية والقصة التوراتية : فعندما أنهى (أوتو ـ نبشتم) بناء السفينة قال : « أدخلت إلى السفينة كل عائلتي وأقربائي ، الماشية من الحقل ووحوش البرية وكل أصحاب الحرف جعلتهم في السفينة » . أما نوح فتقول التوراة عنه « دخل نوح وأولاده وزوجته وزوجات أولاده بسبب مياه الفيضان . ومن الوحوش الطاهرة والوحوش غير الطاهرة ، ومن الوحوش وكل ما يدب على الأرض ، ثم دخل نوح ومن معه اثنين اثنين إلى الفلك ذكر وأنثى »[2] .

ثم يخبر (أوتو ـ نبشتم) جلجامش عما حصل له بعد انحسار الماء :

فتحت الكوة فغمر الضوء وجهي
والسفينة استقرت على جبل نصير
جبل نصير أمسك بالسفينة ومنعها من الحركة

أما نوح فتقول التوراة عنه :

وفي اليوم الأربعين فتح نوح كوة في السفينة التي عملها
واستقرت السفينة في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر
على جبال أراراط[3] .

---

(١) يمكن الرجوع إلى قصص الطوفان بتوسع في كتاب « الطوفان » فاضل عبدالواحد علي
(2) Werner Keller , The Bible As History P. 54
(3) Ibid

وكما فعل أبطال الطوفان البابلي عند انتهاء الطوفان فعل نوح حيث قدّم القرابين للآلهة فتذكر التوراة ذلك نصاً وكأنه مقطوع من لوح سومري : « وبنى نوح مذبحاً للرب ، وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة واصعد محرقات على المذبح ، فتنسم الرب رائحة الرضا . . . »(1) .

جنة عدن

شاعت قصة جنة عدن بين الناس عن طريق التوراة ، حيث تذكر أن بداية خلق الإنسان كان في جنة عدن . والجنة هذه وبدليل التوراة لا بد أن تكون بأرض وادي الرافدين أو قريبة منها حيث الإشارة واضحة أثناء الحديث عن الأنهار التي تسقي الجنة : « واسم النهر الثالث حداقل (دجله) وهو الجاري شرقي أشور . والنهر الرابع الفرات » (تكوين ٢ : ١٤) .

لقد ترك الأدب السومري أثره العميق على كتبة التوراة ، ومن المؤكد أن السومريين ما كان بإمكانهم التأثر بهؤلاء لأنهم كانوا قد زالوا من الوجود قبل ظهور التوراة وكتبتها بآلاف السنين . ولكن لا يوجد أدنى ريب في أن السومريين قد أثروا تأثيراً عميقاً في الكنعانيين كما أثروا في جيرانهم ، الأشوريين والبابليين والحثيين ، والآراميين . وأوجه الشبه كبيرة بين الروايات التوراتية والأسطورة السومرية التي تحمل اسم (انكي وننخر ساج) التي نشر نصها عام ١٩٥١ م وهي مؤلفة من ٢٧٨ سطراً منقوشة على لوح مؤلف من ستة حقول محفوظ الآن في متحف جامعة بنسلفانيا . كما يوجد نص صغير مكرر في متحف اللوفر سبق أن تعرّف عليه (ادوارد كييرا)(2). ويمكن إيجاز موضوع هذه الأسطورة السومرية عن الفردوس (جنة عدن) على النحو التالي :

كانت بلاد (دلمون) أرضاً طاهرة مشرقة ، نظيفة . أرضاً معدة للحياة . وكانت لا تعرف المرض والموت ، ومع هذا كان ينقصها الماء العذب اللازم

(١) تكوين ٨ : ٢٠ـ٢٢
(٢) صموئيل كريمر من الواح سومر ترجمة طه باقر ص ٢٤٠ـ٢٤٤

لحياة الحيوان والنبات . لذا أمر الله إله الماء السومري (انكي) الإله (أوتو) أن يملأها بالمياه العذبة ، وهكذا تحوّلت (دلمون) إلى جنة الهية خضراء .

وقد عيّن البابليون موضع « أرض الأحياء » الخاصة بالخالدين فهم في أرض دلمون ، وهذا ما تصفه التوراة ، ويطابق هذه الأرض حيث تصفها : بستان غرس في الناحية الشرقية في عدن وهو الموضع الذي تنبع من مياهه أنهار العالم الأربعة التي من ضمنها دجلة والفرات . وهو الموضع المرجح أن يكون مطابقاً لموضع دلمون ، الفردوس السومري .

ثم تذكر القصيدة السومرية العبارة التي تصف أرواء (دلمون) من جانب الإله (أوتو) بالماء العذب الذي ينبع من الأرض ، وهذا يشبه ما ورد في التوراة : ثم خرج من الأرض ضباب فسقى وجه اليابسة جميعه . (تكوين ٢ : ٤ـ٦) .

آدم وحواء

إضافة إلى الدليل الذي تقدّمه الملاحم البابلية على وجود طوفان قديم ـ أثبتته التنقيبات ـ واستغله الشعراء السومريون في رسم ملامح أساطيرهم ، ونتيجة تحليق خيالهم في رسم تفاصيل هذه الأحداث انتقلت هذه الصور من جيل إلى جيل ومن شعب إلى آخر وعبر مراحل زمنية متباعدة محدثة نوعاً من التغيير في شكل الأسطورة مع بقاء مضمونها وفلسفتها على حالة : الأمر الذي أوصل الينا ـ حتى الآن ـ أربعة ملاحم ، الرابعة والأخيرة هي أسطورة الطوفان التوراتي . وقد أوردت الآداب البابلية المنقولة عن السومرية أسطورة « ادابا » ، فتصف أحداثاً دفعت هذا الإنسان الذي كان يصيد السمك في مدينة (اريدو) والذي حباه الإله (ايا) « انكي » سعة المعرفة والسلطة دون الخلود التي تميّزت به الآلهة . وكما تذكر الأسطورة فإن (ادابا) حصل على الفرصة لنيل الخلود حين قرر إله السماء (انو) استدعاءه لمحاكمته على كسر جناح الريح الجنوبية

ولكن بعد شفاعة الأله تموز قرر (أنو) تقديم الطعام وماء الحياة (لآدابا) ليحصل على الخلود إلاّ أن أدابا امتنع عن تناولهما بناء على نصيحة الإله (ايا) بعدم الأكل في حضرة الإله (أنو) لأنه كان يتوقع تقديم طعام وماء الموت لأدابا ، ونتيجة امتناعه عن الطعام والشراب هذا أدى إلى سخرية (انو) ومن ثم حرمانه من الخلود وأعاده إلى الأرض ليموت عليها مثل البشر .

ذهب الباحث E. Ebeling أن اسم (ادابا) يتطابق مع اسم (آدام) الوارد في التوراة ، وأن ما حدث لأدابا يشابه ما جرى لآدم في « جنة عدن » .

أما حواء التي « خلقت من ضلع آدم » كما تقول التوراة فقد أخذت التوراة تفاصيلها من الأسطورة السومرية (انكي وننخر ساج) التي تتحدث عن الفردوس . ففي هذا الفردوس (جنة عدن) أنبتت الآلهة (ننخرساج) ثمانية أنواع من النباتات . وننخر ساج هي (الآلهة - الأم) العظمى عند السومريين ولعلها (الأرض - الأم) . أنبتت هذه الأنواع من النباتات بعد عملية معقدة شملت ثلاثة أجيال من الإلهات ، ولدن كلهن من إله الماء . وقد أكدت القصيدة - الأسطورة - أن ولادتهن قد تمت دون ألم عند المخاض ، ولكن (انكي) أراد أن يذوق طعم تلك النباتات . ولما علمت ننخر - ساج أنه قطف منها غضبت ونطقت بلعنة الموت على الإله (انكي) ولكي لا تغير في قرارها ابتعدت عن مجمع الآلهة واختبأت . وبدأت صحة (انكي) تتردى ومرضت ثمانية من جوارحه ، ولما كاد (انكي) يشرف على الموت حزنت الاآلهة عليه ، حتى انليل - إله الهواء - ملك الآلهة السومرية لم يستطع عمل شيء (لانكي) . فجاء الثعلب وقال للإله أنليل أنه قادر على حمل الآلهة (ننخر - ساج) إلى العودة ، إلى مجمع الآلهة وتشرف على علاج إله الماء المشرف على الموت .

وبمقارنة ما جاءت به هذه الأسطورة مع ما ورد في التوراة نطلع على عملية الاقتباس ذاتها فولادة الآلهات التي كانت تتم دون ألم تلقي ضوءاً على اللعنة التي لعنت بها حواء وبذلك أصبحت المرأة تلد - بناء على اللعنة - الذرية بالغم والأسى ، كما أن أكل الآله (انكي) من النباتات الثمانية يذكرنا بأكل آدم

وحواء - في التوراة - من شجرة المعرفة واللعنة التي حكم على كل منهما من جراء ارتكاب تلك الخطيئة .

ولعل أهم نتيجة يمكن الوصول إليها من التحليل المقارن ذلك التفسير الذي تقدّمه لنا هذه الأسطورة السومرية لتلك الفكرة التوراتية التي تعد من أكثر الأمور المحيرة في قصة جنة عدن الواردة في التوراة ونعني بذلك العبارة المشهورة التي تصف خلق حواء « أم جميع البشر » من ضلع آدم . فلماذا خلقت من الضلع ؟ وما هو الذي دفع كاتب هذا السفر أن يختار الضلع دون سائر أعضاء الجسم الأخرى لتخلق منه المرأة التي يعني اسمها حواء - بحسب تفسير التوراة - تلك التي تحيي ، أي تسبب الحياة ؟ إن سبب ذلك يتوضح بمجرد الإطلاع على النص السومري لأسطورة (دلمون) - أي الفردوس - ففي هذه الأسطورة ، كان أحد أعضاء الإله (انكي) الذي أصابه المرض هو الضلع والكلمة السومرية التي تدل على الضلع هي (تي Ti) ودعيت الآلهة التي خلقت من أجل شفاء الضلع - أي ضلع الإله انكي - باسم (نن - تي) أي « سيدة الضلع » ولكن الكلمة السومرية (تي) تعني أيضاً (احيا) أو « جعله حياً » وعلى ذلك يعني اسم الآلهة (نن - تي) السيدة التي تحيي أو سيدة الضلع . فاستغلت التوراة وكتبتها هذه الأساطير ووظفوها على أنها تراث توراتي .

الفرق الدينية اليهودية

بدأت الفرق الدينية اليهودية بالظهور بعد أن وجدت الديانة اليهودية فعلياً زمن المكابيين في القرن الثاني ق.م ، وبحكم اتساع هذه الديانة أخذت الاتجاهات المتضادة تتبلور فكرياً وسلوكياً ومنهجياً فارتأى زعماء اليهود تشكيل المجمع الديني اليهودي الأعلى « السنهدرين » في القدس ، لكن الغاه الرومان سنة ٧٠ م فانتقل أعضاؤه إلى قرية (يبنه) قرب يافا ومنها إلى طبريا . وفي عهد الامبراطور (اتنونيس بيوس) (١٣٨ - ١٦١ م) أعيد تشكيل السنهدرين في

الجليل ، وظل منصب رئاسة السنهدرين وراثياً في عائلة هلل أكثر من ثلاثة قرون .

كانت صلاحيات السنهدرين تضيق وتتسع من وقت لآخر حسب أهواء الرومان بعد احتلالهم بلاد الشام سنة ٦٤ ق.م . والسنهدرين هو الذي حاكم المسيح بن مريم وقضى بصلبه سنة ٢٩ للميلاد (مرقس ١٤ : ٥٣-٦٤ ، متى ٢٦ : ٥٦-٦٨) وكان يتألف حين ذاك من ٧١ عضواً .

لكن نتيجة انتشار الثقافة اليونانية بين اليهود نشأت طائفتان يهوديتان هما :

الصادوقيون : نسبة إلى عائلة الكهنة Zadokites وقد كان أغلب أعضاء هذه الفرقة من الكهنة والطبقة الارستقراطية ، لذا لم يكن لهم أتباع من العامة ، وكانت صلاتهم قوية مع الحسمونيين - المكابيين - وقد تمسكت هذه الفرقة بحرفية التوراة ، وقالت : إن أي كلمة لم تجئ في النصوص « المقدّسة » تعتبر لاغية ، ونتيجة تمسكها بحرفية التوراة أنكرت وجود حياة أخرى أو يوم قيامه .

الفريسيون : هم فرقة دعت إلى استعمال التأويل لمواجهة الثقافة الهلنستية ولذلك أقصوا عن مجلس السنهدرين مدة ربع قرن . وظل الصادوقيون يناصبونهم العداء .

وبعد استيلاء الرومان على فلسطين والقضاء على المكابيين تولت قيادة اليهود عائلة هيرود فانشقت طائفة الفريسيين إلى اتجاهين .

أ. المتحمسون : Zealots وهي فرقة كانت تدعو إلى رفض الثقافة الهلنستية - الرومانية وبرزت من هذه الفرقة مجموعة متطرفة تدعى (أصحاب الخنجر) .

ب. الزاهدون أو المتنورون ويسمون الأسينيون Essens . وكانوا على عكس المتحمسين ، مسالمين إلي أقصى حد ومغالون جداً في

تدينهم وقد عاشوا في قرى خاصة قرب البحر الميت ومن هؤلاء ظهر يوحنا المعمدان ويسوع بن مريم .

القراءون : ظهر مذهب القرائين كرد فعل على وجود دين جديد (الإسلام) لتطوير بعض المفاهيم الدينية ، لذا رأى أتباع هذا المذهب إمكانية مخالفة نصوص التلمود . وكان (سيرونيوس) زعيم يهود سوريا أول من جاهر بهذه الآراء ثم تبعه (عوبيديا) من يهود أصفهان ، لكن المؤسس الحقيقي لهذا المذهب هو (عناد بن داود) الذي عاش زمن أبي جعفر المنصور . وبعد ذلك شهدت هذه الفرقة عدة اتجاهات :

أ ـ طائفة الأكبرية أسست قرب بغداد حوالي عام ٨٤٠ م ومذهبهم قريب من السامرية .

ب ـ طائفة التفلين أسست ونشأت في بلاد فارس .

جـ ـ الطائفة البعلبكية ومؤسسها موسى البعلبكي .

الرابانيون : يشكلون عامة اليهود أو قادتهم ويؤمنون بالتوراة والتلمود .

السامريون : وتقيم هذه الطائفة في مدينة نابلس وهذه الطائفة لا تعترف إلاّ بأسفار موسى الخمسة ، ويعتقد أنهم من بقايا الجماعات التي نقلها الأشوريون من بابل وعيلام وسوريا وبلاد العرب ليحلوا محل الموسويين الذين نقلوا إلى نينوى . فاختلطوا مع باقي السكان واعتنقوا لاحقاً اليهودية بعد تأسيسها . وقد قاموا بثورات زمن الامبراطور (زينو) (٤٧٤ ـ ٤٩١ م) فطردهم من مقرهم على جبل (جرزيم) ، ثم ثاروا زمن الامبراطور (جوستنيان) فنكل بهم ، فهرب بعضهم إلى ايران واعتنق القسم الآخر المسيحية . وبعد الفتح العربي عاد السامريون إلى نابلس وعاشوا في أمان . وهم يؤمنون بالتوراة فقط

وينكرون التعليم الشفوي . ولا يزيد عددهم اليوم عن ٢٠٠ شخص .

السباتيون واتباع فرانك : وهي فرقة ظهرت شرق أوروبا بداية القرن السابع عشر للميلاد وادعت مجيء المسيح لكنها انقرضت مع مرور الزمن ووقوف الحاخامات اليهود ضدها وسموا المسيح بن مريم « المسيح الكذاب» .

الحاسديه . الأنقياء : أسس هذه الحركة (اسرائيل بعل شمعون) (١٦٩٩ ـ ١٧٦١ م) في أوروبا الشرقية كرد على فرقة « المسيح الكذاب » وقد تبنت تالياً فلسفة وحدة الوجود الصوفية ثم تفرعت إلى ثلاثة شعب :

أ ـ الفرقة الأوكرانية : وهي تؤمن بتعاليم الحاسديه الأصولية (أي الحاسديه التي ظهرت زمن المكابيين)

ب ـ فرقة الهاباد : وهي أقرب إلى النهج الفلسفي أو فلسفة الدين .

جـ ـ الفرقة البولندية : وهذه الفرقة رفعت الوسيط (الحاخام) إلى درجة أعلى من الإنسان العادي وأعطته ميزات تجعله وسيطاً لله . وقد انتشرت هذه الفرقة بسرعة بداية القرن التاسع عشر الميلادي .

ومن الفرق التي لها حضور نسبي بين اليهود الفرقة المعروفة اليوم باسم (ناطوري كارتا) وهي امتداد للفرقة الحاسدية الأصولية . كذلك هناك شبه فرق دينية بدأت بالتبلور نتيجة تعمّق الخلافات الدينية مثل الاتجاهات الدينية عند يهود الفلاشا الذين لا يعترف بتدينهم عند الكاهن الأعلى في (إسرائيل) .

الفصل الثامن

اللغة العبرية وتطورها

إذا وجد الباحثون صعوبات في فهم ومعرفة أصول الديانة اليهودية وجذورها ووصلت بهم إلى ما يمكن تسميته « إشكالية حكم » ، فإن إشكاليات أعمق وأكثر عمومية تلف اللغة العبرية ، فمتى بدأت اللغة العبرية ، وما هي اللغة التي تحدثها موسى والموسويون ، والمباحثات أو المفاوضات بين موسى وهارون من جهة ـ كما تدعي التوراة ـ وفرعون من جهة أخرى ، هل تمت بلغة معينة بين طرفين أم خضعت لوسيط مترجم ؟! ثم الألواح التي كتبها الله بخط يده وأعطاها لموسى ـ كما تقول التوراة ـ لم تشر إلى كنه اللغة تلك ولم تميزها أو تدلل على مضمونها .

ثم لماذا لم تذكر التوراة ، بكل أسفارها ، اسم « اللغة العبرية » بينما أشارت إلى لغة كنعان نصاً ، حين أفادت أن الموسويين تحدّثوا بلغة كنعان «سفت كنعن » وذكرت كذلك البابلية والأرامية .

الأسفار المتأخرة من التوراة والتي كتبت بعد القرن الرابع قبل الميلاد لم تشر إلى العبرية كلغة قومية وإنما أشارت إلى ما سمته « اللغة المقدّسة » وهذه الإشارة تحتمل أكثر من وجهة نظر . وحتى الحوار الذي تذكره التوراة بين القائد الموالي للأشوريين (الربشاقي) وبين رجال حزقيا لم يرد في أي نص أو ضمن أية حولية لسنحاريب . والذي حصل هو المزاوجة بين الرواية كما أوردتها الحوليات وما ورد في التوراة ، فالحوليات تذكر أخبار الحرب ، بينما الباحثون الغربيون ذوي الخلفية التوراتية يفسرون النصوص المسمارية تلك على ضوء ما ورد في التوراة . ومن أهم الكتّاب الذين درسوا حملات سنحاريب الباحث

(لوكنبل) D.D Luchenbill،[1] لكن قراءة ولو سريعة إلى كتاب سنحاريب الذي أعده هذا الباحث ، سنرى مدى اعتماده على التوراة في تفسير الأحداث وبذلك يبتعد عن الموضوعية . فعلى سبيل المثال يرد بالنص الأكدي ـ كما جاء في الكتاب المذكور آنفاً ـ جملة « حزقيا من يهوذا » فيترجمها الباحث إلى الإنجليزية Hezekia the Jew (حزقيا اليهودي) ومن المؤكد أن المعنى في العبارتين مختلف تماماً . فالنص الأكدي يشير إلى حزقيا من يهوذا كمكان جغرافي معروف وهو الإسم المرادف لمنطقة (أورشليم) بينما النص الإنجليزي فيربط حزقيا بالديانة اليهودية وبذلك يضع الكاتب النص في إطار المفارقات التاريخية . والأمر نفسه يحدث عند ذكر منطقة (السامرة (أو حكام منطقة السامرة (وهي نابلس أو سبسطية اليوم) ، ففي النصوص الآثارية ـ وهي قليلة جداً ـ التي تذكر السامرة لم يرد إطلاقاً اسم (مملكة اسرائيل) أو (ملوك إسرائيل) . فبالنصوص العراقية أو الكنعانية يرد اسم السامرة أو « بيت عمري » ـ كما هو الحال على حجر مؤاب ـ ولكن عند ترجمة النص عن الأكدية والخط المسماري (وهو خط الأشوريين) أو الفنيقي ـ يصبح لفظ السامرة « مملكة إسرائيل» أو « بيت عمري » الملك عمري ملك إسرائيل أو السامرة . والأمر عينه انسحب على موضوع اللغة . فالتوراة لم تذكر اسم « اللغة العبرية » والنص الوارد في التوراة : « وقال الياقيم بن حلقيا وشبنه ويؤاخ لربشاقي كلم عبيدك بالأرامي لأننا نفهمه ولا تكلّمنا باليهودي في مسامع الشعب الذي على السور »[2] . والريشاقي كما تذكر التوراة هو من لخيش[3] (تل الدوير) وبذلك تتوضح الصورة . فلخيش تقع قرب منطقة يهوذا ومحاذية لها وسكانها لا بد أن يكونوا من الكنعانيين كما هو الحال في يهوذا ، فإذا صحت رواية التوراة وتحدث الريشاقي بلغة، غير الأرامية ، فستكون اللغة الكنعانية وهي لغة منطقة يهوذا الكنعانية ، أما أن تتحول الكنعانية في يهوذا إلى العبرية لدى كثير من

---

(1) Daniel David Luchenbill , Annals Of Sennacharig P. 12-13

(٢) الملوك الثاني ١٨ : ٢٦

(٣) الملوك الثاني ١٨ : ١٧

الكتّاب فأمر يبتعد عن الدقة الموضوعية .

ويؤكد المؤرخ اليهودي (ابراهام بن يعقوب) أن الذين سباهم الملك الأشوري (شلمنصر) كانوا يتكلّمون اللغة الأرامية[1] ، وهذا يتناقض مع نص التوراة ، آنف الذكر ، الذي يشير صراحة إلى عدم معرفة « الشعب » باللغة الأرامية .

إذا عدنا إلى التسلسل التاريخي منذ « خروج » موسى والموسويين ، والذين لا يوجد أي دليل أو نص يشكك في أنهم مصريون ، فإن اللغة التي كانوا يتحدثونها لا بد أن تكون المَصرية ، فعندما استوطنوا فلسطين تحدثوا الكنعانية ، كما تؤكد التوراة ذلك ، ولما وقع السبي الأشوري بعد احتلال السامرة في القرن السابع ق . م كانت الأرامية تعم وتسيطر في منطقة الشرق الأدنى ، وبشكل خاص في بلاد أشور فتعلمها هؤلاء وتحدّثوا بها وترسخت هذه اللغة أثناء السبي البابلي والاحتلال الفارسي ، لذا كتبت التوراة أول ما كتبت بالأرامية واعتبرت « اللغة المقدّسة » ونقل الحرف الأرامي (المربع) ليكون أبجدية « اللغة المقدّسة » هذه . وعندما عاد عزرا إلى فلسطين حاملاً معه التوراة المكتوبة في بابل بالأرامية احتاج إلى توضيح هذه الكتابة عند قراءته للنصوص ـ كا تشير التوراة إلى ذلك ـ أمام أتباعه . وقد ترجمت النصوص من اللغة الأرامية إلى اليونانية وهي الترجمة التي تسمى بالسبعونية ومنها ترجمت إلى اللهجة الأرامية الذي اختير لها اسم « اللغة العبرية » أثناء حكم اليونان وبالذات في فترة المكابيين . والدليل على ذلك عدم وجود أي نص باللغة العبرية قبل الفترة المكابية .

ولأهمية الموضوع لا بد من التوسع قليلاً في موضوع اللغة والعلاقات اللغوية التي تدخل في صلب موضوعنا . خاصة أن الباحثين يخلطون بين العبرية وغيرها بطريقة لا يسندها دليل علمي : وسنعمد إلى النصوص المكتوبة لتوضيح اللغة وأبجديتها أو خطوطها .

---

(١) ابراهيم بن يعقوب الطوائف اليهودية في كردستان (عبري) القدس ١٩٦١ ص١١

ليست الحروف الهجائية المعروفة إلاّ طريقة من طرق الكتابة العديدة ، كالكتابة الصورية Pictography و الكتابة الرمزية Ideography . غير أن الحروف الهجائية تختلف عن كل هذه الطرق بكونها طريقة اصطلاحية للكتابة ، وتكون العلاقة بين الحرف والصوت علاقة اصطلاحية وليس علاقة لازمة [1] على حين أن الحال في الأنواع الأخرى للكتابات تكون العلاقة بين العلامات والأشياء التي تمثلها تلك العلامات علاقة لازمة أساسية . وهذه الأنواع أقدم من الدور الهجائي . ويمكننا ملاحظة أدواراً أخرى للكتابة أقدم من الدور الصوري والرمزي وهي أساليب اصطلاحية استعملت لمساعدة الذاكرة في تسجيل حوادث وأشياء مادية برموز وعلامات مصطلح عليها : مثل عمل الأنشوطات والعقد على قطعة من القماش أو حبل بعد الاصطلاح على ما تمثله كل عقدة من معان ودلالات . وبالإجمال يمكننا استخلاص أربعة أدوار للكتابة :

١ـ دور الإشارات والرموز .

٢ـ الدور الصوري والدور الرمزي . والفرق بين الطريقة الصورية والطريقة الرمزية ، إن الأولى تمثّل الصورة نفس الشيء المراد التعبير عنه ، ولكن الصورة في الطريقة الثانية . تمثّل فكرة لا شيئاً معيناً ، فمثلاً صورة إنسان بأضلاع بارزة تعبّر عن فكرة الجوع أو عين دامعة تعبّر عن فكرة الحزن .

٣ـ الدور الانتقالي ، والدور الكتابي المختلط . ويتميز هذا الدور باستمرار استعمال الدور الرمزي مع إضافة رموز أخرى ذوات دلالات صوتية كل منها يؤلف مقطعاً ، وقد استعملت هذه الطريقة من قبل السومريين والبابليين والمصريين والحثيين والصينيين . أما تفسير نشوء هذه المقاطع فهو أن الصور التي كانت تعبر عن الأشياء في الدور

---

(١) طه باقر مجلة سومر تموز ١٩٤٥

الصوري أصبحت تستعمل - زيادة على التعبير عن شيء مادي أو فكرة - لتمثيل صوت ذلك الشيء بهيئة مقطع وبجمع عدة مقاطع يمكن كتابة كلمات مثلاً : إذا أراد الكاتب عند السومريين كتابة كلمة خالد فإن بإمكانه استعمال مقطعين (خا) و (لد) بغض النظر عن أن (خا) هي في الأصل صورة السمك ، ولفظة (لد) صورة الثور أو الطفل ولفظهما . ومما يلاحظ في هذا الدور، السرعة والاختصار في رسم المقاطع ، لذا صار الكتّاب يميلون إلى السرعة في رسم صور المقاطع مفضلين السرعة على إتقان الصورة ، ومع مرور الزمن بعد التشابه بين الاشكال وصور الأشياء التي كانت تمثلها وأصبحت إشارات وعلامات اصطلاحية كل واحدة منها بهيئة مقطع كان أصله لفظ الشيء، وصورته صورة ذلك الشيء ، فأصبحت الغاية من المقطع التعبير عن أصوات لا تمثيل صور الأشياء كما في الكتابة الصورية ، وهكذا حل محل الكتابة الصورية طريقة جديدة سهلة لتدوين المعاني المجرّدة والأشياء المادية .

٤- دور حروف الهجاء : وهو الدور الصوتي الخالص ، وحروف الهجاء أفضل شكل تطورت إليه الكتابة ، إذ تتصف بمزايا عديدة ، منها سهولة تعلّمها منذ الطفولة وسهولة استعمالها في رسم كلمات لغات مختلفة، ثم هي حروف قليلة العدد إذا قيست بالعدد الكبير من المقاطع أو الصور التي حلّت محلها .

يطلق لفظ فلولوجيا على علم اللغة ، وأهم فروع علم اللغة يسمى (الدياليكتولوجي) Diadtecloogic أي علم اللهجات [(١)] ودراسة الأصوات التي تتألف منها اللغة وبيان أقسامها وفصائلها وخواص كل قسم ومخارجه وما تعتمد عليه من أعضاء وطريقة إحساس السامع بها ، ويطلق على هذا البحث اسم (الفونيتيك) Phonetique أي علم الأصوات .

---

(١) علي عبد الواحد وافي علم اللغة ص ٤١-٦٠

ودراسة اللغة من حيث دلالتها ، أي من حيث أنها أداة للتعبير عما يجول في الخاطر يسمى باسم (السيمنتيك) Sementique - أي علم الدلالة - ومن الفونتيك والسيمنتك يتألف أهم فروع علم اللغة وأدقها وأكثرها نضجاً وأهمها :

أ. البحث في معاني الكلمات ومصادر هذه المعاني واختلافها في لغة ما باختلاف عصورها والقوانين التي تخضع لها ، ويطلق على هذا البحث اسم (ليكسيكولوجيا) Lexicologis أي علم المفردات .

ب. البحث في القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفها ويطلق على هذا البحث اسم المورو فولوجيا Morophologi أو علم البنية .

الآداب السومرية والبابلية المدونة لا يتجاوز عمرها الألف الثاني ق . م ، إلاّ أن هذه الآداب المدونة قد تم إبداعها وتطورها في منتصف الألف الثالث ق . م ، وإذا ما قارنا قدم هذه الآداب بالآداب الإنسانية القديمة الأخرى ، وجدنا أنها أقدم من جميع ما انتجه الفكر البشري في ذلك الحقل [١] . فبالنسبة إلى مصر مثلاً ، لم يأتنا من أدبها شيء من عصر الأهرام ، ذلك العصر الذي ازدهرت فيه الحضارة المصرية ونضجت . وربما كان ثمة أدب مصري مدون في الألف الثالث ق . م لكن الباحثين لم يعثروا على نماذج منه حتى الآن (ولعل ذلك بسبب تلف المادة التي دون عليها وهي ورق البردي ، الأكثر عرضة للتلف من الواح الطين) . واكتشف المنقبون في أوغاريت (تل الشمره) أدباً كنعانياً يرقى تاريخه إلى ١٤٠٠ ق . م . أما الآداب التوراتية والتي دوّنت بعد القرن الخامس ق . م فلم يعثر على أي من تلك المدونات .

والدراسة المقارنة للغات الشرق القديم تشير إلى مجموعة لهجات تعود في جذورها إلى أصل واحد ، فالأكدية هي أقدم اللهجات تلك ، والأكديون أقدم الهجرات التي خرجت من جزيرة العرب واستوطنت وادي الرافدين (حوالي الألف الثالث ق . م) ومن الأكديين تفرعت جماعتان هما : البابليون

(١) طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات القسم الأول ص ٤٥١

والأشوريون . . وبذلك انحدرت اللهجة الأكدية إلى العهود التاريخية التالية وتطورت لكنها ظلّت تستعمل الخط المسماري . وعلى الجانب الآخر نحو الغرب كانت جماعات لها دورها الحضاري ترسخ أقدامها في بلاد الشام - ومنها فلسطين - بعد أن قدمت من الجزيرة العربية حوالي منتصف الألف الثالث ق . م ، وهي الهجرة المعروفة بالعمورية (الأمورية) والتي أسست عدة ممالك أهمها (ماري) «تل الحريري» واللغة الأمورية لها أواصر قربى مع البابلية والدليل على ذلك حكم الأموريين لبلاد بابل ، باسم البابليين ، ومنهم برز الملك العظيم حمورابي . كذلك فإن العموريين (الأموريين) حملوا أسماء أخرى اكتسبوها من مناطق سكناهم ومن هذه الأسماء الكنعانيون والفنيقيون . وأطلق عليهم المصريون اسم الهكسوس عندما حكموا مصر ، ثم بدأت قبائل أخرى بالتدفق من جزيرة العرب منتصف الألف الثاني . ق . م وحملوا اسم الأراميين ، ثم كانت الموجة الأخرى المعروفة بالموجة العربية الإسلامية .

فاللغة الأكدية (البابلية والأشورية) والعمورية (الكنعانية) والأرامية والعربية الحديثة هي واحدة في جذورها وما طرأ عليها من تمايز هو بفعل البعد الجغرافي والاختلاط مع الآخرين . فالأكدية اختلطت وتفاعلت مع لغات وشعوب منها السومرية والعيلامية والحثية . أما الأمورية الجنوبية (الكنعانية) فقد تأثرت بالمصرية ، والكنعانية (الفينيقية) تأثرت باليونانية . أما الأمورية الشمالية فقد تفاعلت مع الحثية . ومع ذلك تظل هذه اللغات لهجات للغة واحدة كانت سائدة في الجزيرة العربية .

وتتميز اللهجات العربية القديمة بميزات وخواص مشتركة تجعل من هذه اللهجات لغة واحدة منها : اعتمادها على الحروف أكثر من اعتمادها على الأصوات ، لذا لا نجد في حروف هذه اللهجات علامات للأصوات كغيرها من اللغات ، كما أنها بالغت في الاهتمام بالحروف وزيادة عددها . وأغلب كلماتها يرجع في اشتقاقها إلى أصل ذي ثلاثة أحرف . ولمعظم الكلمات في هذه اللهجات مظهراً فعلياً حتى في الأسماء الجامدة والألفاظ الأعجمية الدخيلة .

ومن مظاهر التشابه كذلك التشابه في تكوين الإسم من حيث عدده ونوعه وفي تكوين الفعل من حيث زمنه وتجرده وزيادته وصحته وعلته ، وكذلك التشابه بالضمائر وفي طريقة اتصالها بالأسماء والأفعال والحروف وكذلك التشابه في المشتقات كاسمي الفاعل والمفعول واسمي الزمان والمكان وإسم الآله والصفة المشبهة ، كما تتميز بتغير معنى الكلمة بتغير حركتها . واحتوائها على حروف الحلق (كالحاء والعين) وحروف الأطباق (كالصاد ، الضاد ، الطاء ، الظاء) . وتتميز كذلك في التشابه الكبير في المفردات الدالة على أعضاء الجسم وصلة القرابة والعدد وأسماء الحيوان والنبات .

وتتأكد وحدة اللهجات العربية القديمة (أكدية « أشورية وبابلية » أمورية «كنعانية وفنيقية » وأزامية) من خلال الخصائص التالية :

١ـ يتألف أصل الكلمات في معظم اللهجات هذه من ثلاثة أصوات ساكنة (غير لينة) مختلفة مثل : ق ت ل ، ض ر ب ، ر ج ع . . . الخ مع وجود شواذ عند معظم اللهجات :

أ. أصول بعض الكلمات من صوتين فقط (عن ، بل) والضمائر (هو ، هم) وأسماء الشرط والموصول .

ب. بعض أصول كلمات هذه اللهجات يتألف من صوتين ساكنين وصوت لين أو نصف لين مثل قال ، وعد .

جـ. بعض الكلمات في هذه اللهجات من صوتين ساكنين مضعّف ثانيهما (ثمّ ، ردّ) .

٢ـ الأصوات الساكنة في اللهجات العربية القديمة لها أهمية تزيد كثيراً على أهمية أصوات اللين ويبدو هذا في ثلاثة وجوه : الدلالة والنطق والرسم .

أ. فالمعنى الأساسي يشار إليه غالباً بالأحرف الساكنة ، أما الأصوات اللينة فلا تعدو وظيفتها في الغالب تحديد هذا المعنى العام

وتوجيهه وجهات خاصة : (قَ تْ لْ يدل على المعنى العام للقتل . قَ تَ لَ يدل على وقع القتل في زمن مضى من واحد غائب . قُ تِ لَ يدل على قتل حدث في زمن مضى ومسند للمفعولً . .)

ب. الأصوات الساكنة تنال أكبر قسط من اهتمام المتكلّم وهي لذلك أوضح في الجرس من الأصوات اللينة وأظهر منها في السمع .

جـ. وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة من الدلالة والنطق إلى الرسم نفسه . فأهم ما يعني الرسم في اللهجات العربية القديمة في إظهاره هو الأصوات الساكنة ، أما الأصوات اللينة فيغفل بعضها إغفالاً تاماً ويشير بعضها بالشكل ، ويرسم بعضها رسماً مضطرباً غير دقيق، وهذا في الرسم الحديث ، أما الأشكال القديمة فكانت تغفل جميع أصوات اللين .

٣ـ ليس للفعل في معظم اللهجات العربية القديمة إلاّ زمنان ، ماضٍ ومضارع (للحال والاستقبال والأمر) .

٤ـ يحدث في الغالب تأنيث الإسم والصفة بإضافة (تاء) إلى المذكر .

لكن يظل التساؤل مطروحاً وكيف وجدت الحروف الهجائية ؟

الحروف الهجائية : البدايات والتطورات

اشتهر الكنعانيون (الفنيقيون) باقتران اسمهم بالحروف الهجائية من كونهم هم الذين يدين إليهم العالم بهذا الاختراع العظيم في تاريخ البشر ، لكن هل تم هذا الاختراع طفرة أم نتيجة سلسلة من التطورات؟ لقد انقسم الباحثون في آرائهم عدة مناحٍ أهمها رأيان :

الأول : أرجع الحروف الهجائية إلى أصول هيروغليفية ومصرية .

والثاني : إلى الخط المسماري البابلي .

ومن القائلين بالأصل المصري (دي روجيه) 'De Rouge الذي يرى

اشتقاق الحروف الكنعانية (الفنيقية) من الخط المصري الهيراطيقي وتبعه في آرائه (اسحق تيلور) Isaac Tayor وكذلك (جون بيترز) John P.Peters القائل بأن الحروف الهجائية نشأت في مصر ولكن ليس من الخط الهيروغليفي أو الهيراطيقي أو الديموطيقي (شكل ٢٩ , ٣٠) بل هناك علامات ورموز اكتشفت على مقابر السلالة الأولى وقد تطورت هذه الرموز إلى حروف هجائية تالياً [١] .
وهذه الدراسة تستبعد اشتقاق الحروف الكنعانية (الفنيقية) من الخط المسماري البابلي ، لأن الحروف الهجائية الفنيقية هي حروف هجائية صوتية والخط المسماري مكون من مقاطع خلاف الخط المصري الذي يشترك مع الخط الفنيقي في الصفة الهجائية الصوتية Aerophony . ويضيفون إلى حجتهم هذه أنه في الوقت الذي انتشرت فيه الكتابة واللغة البابلية في الشرق الأدنى (القرن الرابع عشر ق . م) - رسائل تل العمارنة - كان الخط البابلي يحتوي على المقاطع وكانت العلامات والرموز التي تمثّل تلك المقاطع قد تطورت وبعد الشبه بينها وبين صور الأشياء التي كانت تمثّلها بحيث لا يمكن اشتقاق أي نوع من الحروف الهجائية منها .

وعندما اكتشف (فلندوز بتريبه) الحروف المنقوشة في شبه جزيرة سيناء سنة ١٩٠٤ اعتبرها (الن جاردنر) Alan Gardiner مرحلة بين الخط المصري الهيروغليفي والحروف الكنعانية (الفنيقية)[٢] . (انظر الشكلين ٥ ، ٦) .

أما المدرسة التي ترى الأصل البابلي فإنها تضم طائفة كبيرة من العلماء بينهم (ديكه) Deecke و (هومل) Hommel و (بايزر) Peiser و(زمرن) Zimmern . ويستند معظم القائلين بهذه النظرية إلى شكل الخط الفنيقي ، ثم إلى أن أسماء الحروف الهجائية الكنعانية التي ربما اشتقت من البابلية في دورها الصوري .

يضاف إلى هاتين المدرستين مجموعة من الباحثين يمكن تسميتهم

---

(1) John P. Peters , Journal of The American Oriental Society Vol 22 1901 P. 177 - 198
(2) Alan Cardiner , Journal of the Egyption Archaeology Vol 111 1916

«التوفيقيين» مثل (فردريك ديليج) Friedrik Delitzsch الذي يرى أن مخترعي الحروف الكنعانية (الفنيقية) أخذوا عن الخط المصري الصفة الصوتية الهجائية ولكنهم أخذوا معظم حروفهم عن الخط البابلي المسماري كما يستدل عليه من أسماء تلك الحروف فإن خمسة عشر حرفاً من مجموع الحروف الفنيقية البالغ عددها اثنين وعشرين حرفاً لها معان في اللهجات العربية القديمة ولا سيما في البابلية وذلك بتحريف بسيط أحدثه الفنيقيون حسبما اقتضته خصائص لهجتهم . وهذا التحريف الفنيقي دليل أيضاً على أن الكنعانيين (الفنيقيين) هم مخترعوا الأحرف وليس غيرهم .

لقد كانت خطوط الحضارات القديمة (الهيروغليفي في مصر والمسماري في وادي الرافدين) تتميز بصعوبتها كأداة للكتابة لكثرة العلامات المستعملة وصعوبة فهمها وعدم ملاءمتها ملاءمة كافية في التعبير عن أصوات اللغات البشرية ، فهي مولفة من عدة مئات من العلامات الناشئة عن أصل صوري وبعضها يقوم مقام الكلمات ، وحتى في انتقالها إلى الطور الصوتي لم تنتقل إلى الطور الهجائي الصرف بل استخدمت عدداً كبيراً من المقاطع الصوتية وظلّت مع هذا الانتقال تستعمل العلامات الرمزية . وقد قاربت الهيروغليفية أن تتطور إلى المرحلة الهجائية ، حيث أن قدماء المصريين قد خصصوا ٢٤ علامة هيروغليفية استعملت بهيئة هجائية مقطعية (أي بهيئة حرف صحيح مع أي حرف علة) كما استخدموا علامات أخرى لتقوم مقام حرفين صحيحين مع أي حرف علة . أما الكتابة المسمارية فقد ظلت مقطعية صرفة . ونتيجة لهذه الطرق الثقيلة في الكتابة أهتدى البشر إلى اختراع مبدأ الحروف الهجائية . فأين حدث هذا الإبداع ومن هم القوم الذين أوجدوه ؟ وما هي الحروف الهجائية بالمقارنة مع طرق الكتابة الرمزية والصوتية المقطعية؟

إن الحروف الهجائية هي علامات مصطلح عليها تقوم كل علامة منها للتعبير عن صوت واحد في الكلام (وقد كان يمثل هذا الصوت الصوت الأول للشيء المادي الذي استعملت صورته المبسطة حرفاً هجائياً . فمثلاً صوت

الحرف أ هو الصوت الأول من كلمة البو ومعناها الثور في اللغة الكنعانية القديمة حيث أخذ شكل رأسه المبسط واستعمل بهئية حرف الألف وصوت حرف ب مأخوذ من الصوت الأول للفظ بيت الذي استعملت صورته البسيطة حرفاً للباء وصوت س هو الصوت الأول من لفظ سن واستعملت صورة السن لفظاً للسين. وهكذا) . لقد أبدع الكنعانيون الحروف الهجائية ، لكن هذا الإبداع لم يكن دفعة واحدة ولم تنشأ كاملة النضج . وقد وجدت أنواع كثيرة من النصوص المدونة بأنواع من العلامات التي يصح أن نعدها أصل الحروف الهجائية الصرفة الناضجة . وقد بدأت مثل هذه النقوش بالظهور في مناطق كنعان منذ منتصف الألف الثاني ق.م .

الكنعانية والهجائية

لقد كانت اللغة الوحيدة في بلاد الشام ومنها فلسطين هي اللغة الكنعانية (اشعيا ١٩ : ١٨) والكنعانيون (الفنيقيون) هم أول من استعمل نظاماً أبجدياً راقياً في الكتابة ثم نقلوه إلى العالم . وقد أخذوا أساس عملهم هذا من مصادر مصرية هيروغليفية عن طريق سيناء حوالي القرن السابع عشر ق.م حين تمكن أحد العمال الكنعانيين في مناجم الفيروز في سيناء من استعمال العلامات الساكنة . والمكان الذي وجدت فيه هذه العلامات هو (سرابيط الخادم) . وقد أعطيت للعلامات الساكنة أسماء كنعانية ، فاتخذوا علامة رأس الثور ـ وبدون أن يهتموا ماذا يعني رأس الثور في اللغة المصرية ـ سمو العلامة (ألف) باسمها الكنعاني ثم طبقوا المبدأ الذي يعطى بموجبه للحرف الصوت الأول في اسم الشيء الذي يمثله ، وفي هذه الحالة استعملوا علامة الألف للتعبير عن صوت الألف . وعملوا الشيء نفسه بالنسبة للعلامة الدالة على (بيت) فسموها بتْ ـ والتي تعني بيت في الكنعانية ـ واستعملوها تعبيراً عن صوت (ب) ، وعلامةَ اليد ـ يود بالكنعانية ـ استعملوها لصوت (ي) وعلامة الماء ـ مايم بالكنعانية ـ واستعملت لأجل صوت (م) وعلامة الرأس سموها رُش ـ بالكنعانية ـ

واستعملوها لصوت (ر) وعلى ذلك يكون العامل في سيناء قد استخدم الفكرة الأبجدية الموجودة في العلامات الساكنة المصرية وشكل مجموعة بسيطة من العلامات يمكن أن يشكّل منها كلمات . وعليه تكونت الأحرف الأبجدية بأسمائها الكنعانية[1] .

ألف : رأس ثور

ب : بيت

ج : جيمل (جمل)

د : دالت (باب)

هـ : شبكه

و : وتد

ز : زاين (سلاح)

ح : حيت (حائط)

ط : طيت (حنش)

ي : يود (يد)

ك : كف اليد

ل : لمد (عصا لضرب البقر)

م : مايبم (ماء)

ن : نون (حوت)

س : سامخ (آلة يعتمد عليها كالعصا)

ع : عين (العين)

ف : فا (فم)

---

(١) اسرائيل ولفنسون تاريخ اللغات السامية ص ٩٩ ـ ١٠٠

ص : صادي (شبكة صيد)

ق : قوف (سم الخياط)

ر : رُش (رأس)

ش : شن (سن)

ت : تاو (علامة)

عندما اكتشف (فلندر باتريه) Flinder Petrie مخطوط (سرابيط الخادم) لم يعرف اللغة التي نقشت على الصخور وفي عام ١٩١٥ قرأ عالم الآثاريات الإنجليزي (ألن جاردنر) Alan Gardiner هذه اللغة حيث وجد تشابهاً بيناً بين الأسماء الواردة في سرابيط الخادم والأسماء الموجودة في هيكل بعله Baálath رئيسة الآلهات في بيبلوس . لذا فمن الصواب القول أن المخطوط قد كتب بالكنعانية على يد نقاشين وعبيد كنعانيون وأن حياة هؤلاء العمال والعبيد تشبه إلى درجة ما حياة المصريين ، لذا نراهم ينقلون من التراث المصري صورة أبي الهول وتماثيل أخرى معروفة . كما أنهم تأثروا بالديانة المصرية فعبدوا Hathor و (بتاح) Ptah [(١)] .

أعيد تاريخ مخطوط سرابيط الخادم إلى ١٨٠٠ ـ ١٦٠٠ ق.م وكان يحتوي على ٣٢ إشارة اختصرت إلى ٢٤ [(٢)] . وعندما قرأ A. Gardiner المخطوط وجد أن حيوية الخط الهيروغليفي أنه قابل للتحول إلى أشكال حروف لكن ليس بالضرورة أن تحمل نفس الصيغة الصوتية في اللغات الأخرى. فمثلاً نرى في الخط الهيروغليفي الإشارة (ر) R مأخوذة من رمز (فم) في المصرية وتحمل إشارة (ro) لكن في الكنعانية (الفنيقية) أخذت شكل (ف) P ، وهذا ما يؤكد أن الأحرف الأبجدية التي نقلها اليونانيون جاءتهم عن طريق الفنيقيين .

إضافة إلى تطور الخط الهجائي عن الهيروغليفية فقد اقتبس (الكنعانيون)

(1) W.F.. Albright , B.A.S.O.R Number 115
(2) A.C. Moorhouse , Writing And The Alphabet P. 42

الكتابة بالحبر من المصريين وبها سطروا عقودهم وصكوكهم التجارية فانتشرت كـتـابتـهـم وتغلّبت على المـسـمــارية الشائعة إذ ذاك في وادي الرافـدين وبلاد الشام[1] .

فإذا أراد العامل الكنعاني كتابة جملة (رَبُ النُصْب) مثلاً فإنه يرسم صورة الرأس مختصرة لتمثيل صوت الراء (آخذاً أول حرف من لفظ الرأس بالكنعانية «رُش ») ثم صورة البيت إلى جانبها لتمثل صوت الباء(آخذاً أول حرف من لفظ البيت) فتكونت عنده كلمة رب . ثم يرسم صورة الحية التي يسميها (النخاش) لتمثّل صوت النون . ثم صورة الصرة لتمثيل صوت الصاد ثم يرسم صورة البيت مرة أخرى فتصبح عنده رب النصب .

والفنيقيون (الكنعانيون) الذين كانوا على تماس مع المصريين ويعملون في مناجمهم اقتبسوا ـ على الغالب ـ الإشارات المصريّة وطوروها وجعلوا منها نظاماً أبجدياً تاماً مؤلفاً من اثنين وعشرين علامة ، بدون حروف صوتية ونظام الكتابة الأبجدية الخطية بحروفها الإثنين والعشرين والمكتوبة من اليمين إلى اليسار كانت ـ غالباً ـ من إبداع الكنعانيين (الفنيقيون) في بيبلوس . وقد استغل فنيقيون آخرون عاشوا في أوغاريت النظام الأبجدي هذا وكتبوه بالمسماري . حيث كتبوا هذه الأبجدية على ألواح الطين ولذلك اتخذت شكل علامات مسمارية . وألواح أوغاريت (رأس شمره) التي اكتشفت عام ١٩٢٩ كتبت بهذه الطريقة . ووجدت أيضاً كتابة بهذا الخط في (بيت شمش) وتعود إلى القرن السادس عشر أو الخامس عشر ق . م[2]وأصبحت المعيار لكل أحرف هجائية .

الرسم الكنعاني القديم لم يكن يرمز إلاّ للأصوات الساكنة ، مما كان يتسبب في الاضطراب أثناء قراءة بعض النصوص ، ومن أجل ضبط اللفظ لجأ بعضهم إلى استخدام بعض الحروف الساكنة للإشارة إلى أصوات المد الطويلة (التي يرمز لها بالعربية الحديثة بالألف والياء والواو) ، ثم استخدم في بعض

(1) Sumer Vol 3 1947

(٢) فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين الجزء الأول ص ١١٨ ـ ١١٩

اللهجات أسلوب الشكل للرمز إلى أصوات المد القصيرة (التي يرمز لها في العربية الحديثة بالفتحة والكسرة والضمة) .

ومنذ منتصف الألف الثاني ق . م بدأت الصيغ الكتابية تأخذ منحى أعمق لدى اللهجات المتفرعة عن الأكدية . ففي الوقت الذي كانت فيه نهايات الإسم المفرد المذكر في الكنعانية am , um , im ومع تطور اللغة اختصرت هذه الزيادات إلى (a , u , i) باسقاط حرف الميم . كما تغيرت أشكال الأصوات أيضاً فحرف (أ) a أصبح يُلفظ (أُ) . وفي الفترة من ١٢٠٠ ـ ٩٠٠ ق . م أسقطت هذه الحركة [١] . فإذا أخذنا في الاعتبار أن الأرامية قد اشتقت من الكنعانية والعبرية اشتقت من الأرامية لاحظنا هذه التغييرات في حروفها وأصواتها .

تفرعت عن الكنعانية عدة لهجات هي : المؤابية ، الأدومية ، العمونية ، الفنيقية . وقد اقتبس السامريون كتاباتهم عن الخط الكنعاني ـ العموني . وكذلك في كثير من المسكوكات (شكل ١) ، وتوجد الكثير من الوثائق تؤكد كنعانية اللهجات هذه (المؤابية والأدومية والعمونية والفنيقية أهمها حجر ميشا في مؤاب والنقش على قبر (احيرام) . كما اكتشف الباحث الأمريكي (نيلسون جلوك) Nelson Glueck في تل الخليفة (منطقة صهيون جيبر القديمة أو إيلات) عام ١٩٣٨ مخطوطاً على جرة اعتبرها طريقة كنعانية (أدومية) في الكتابة [٢] . وقد ميّز ستة أحرف منها : I Q W S N L ، ويرى البرفسور (جلوك) أنها ربما اسم لموظف كبير مبدوء اسمه بالأحرف QWS وربما QOS أو Qaus وهو اسم رئيس الكهنة الأدومي . وبدون شك فإن هذا الخط هو من المجموعة الكنعانية .

إضافة إلى ما ورد من مكتشفات باللغة الكنعانية هناك مجموعات اكتشفت تباعاً أهمها تلك التي وجدت في لجيش (تل الدوير) ومجدو و (نابلس) وجميعها نقوش كنعانية ـ فينيقية شبيهة بالهجائية أو يمكن تسميتها الحلقة

---

(1) W: F. Albright , B.A.S.O.R Number 46
(2) David Divinger , The Alphaber P. 243

الوسطى بين السينائية والهجائية الصرفة ، وقد أعيدت هذه النقوش إلى ١٦٠٠ ـ ١٥٠٠ وهي نفس الفترة لنقوش طور سيناء . (شكل ٢)

ومن الخطوط المهمة التي اكتشفت حديثاً كانت من جبيل (بيبلوس) ويرجع عهدها إلى ١٠٠٠ ق . م وبعضها نقوش ترجع إلى الملك (حيرام) ملك جبيل وتعتبر هذه الطريقة من الكتابة أقرب الطرق وأنجحها في تأدية المبدأ الهجائي وتتألف من ٢٢ حرفاً ، ومن المرجح أيضاً أنها أثرت على تطور باقي اللهجات العربية القديمة (الأرامية والعربية الحديثة) ولكن ذلك لا يعني أن أحرف جبيل هي أصل الأحرف الهجائية ، بل إن ما وجد في جبيل يمثل نموذجاً من هذه الحروف .

الألواح التي اكتشفتها بعثة إيطالية بين الأعوام ١٩٦٨ ـ ١٩٧٥ م في منطقة (ابلا) في شمال سوريا وبالذات في (تل مرديخ) بين حماه وحلب وعددها ١٥ر٠٠٠ لوح مكتوبة بالكنعانية وبالخط المسماري ، وهي الألواح التي سلطت أضواء كافية إلى درجة تبيّن معها طرق اقتباس التوراة لأسفارها من التراث الكنعاني والبابلي[1] .

يشير اكتشاف مخطوط في جيزر سنة ١٩٢٩ على أن الكتابة بالأحرف عرفت في فلسطين في العصر البرونزي الوسيط* ويحتوي هذا المخطوط على ثلاثة حروف نقشت بآلة حادة على يد إناء طيني قبل أن يشوى بالنار . وقد أكد ثلاثة خبراء هم (فيشر) Fisher ، Pére Vincent ، والبروفسور Garstng أن الإناء يعود إلى فخاريات العصر البرونزي الوسيط[2] ، والمخطوط يقارب في تاريخه مخطوط سرابيط الخادم وكان الباحث Clermont - Gameau قد اكتشف في منطقة جيزر عام ١٨٧٤ ـ ١٨٨١ ثلاث مخطوطات ، ويقول الباحث أنه عندما اقتطع المخطوطات من الصخور فقد اثنين منها ، ثم علم أن واحداً منهما

---

(1) Giovanni ettinato Biblical Archaeologist Vol 39 1976
*EB: Early Bronez
(2) W. R. Taylor B.A.S.O.R Number 41

هو الأوضح موجود في متحف القسطنطينية . ثم اكتشف حجراً آخر في سور القدس مكتوب عليه حدود جيزر وهو يشبه مخطوط « عراق الأمير » (شكل ٢٨). كما وجد الباحث B. Maisler في عين الدهروي غرب طريق الخليل - القدس على تمثال مكتوب عليه سطرين يمكن قراءتهما بوضوح وباللغة الفنيقية : « يجئال ابن الملك » ويرجعه المكتشف إلى القرن السابع ق . م وقد أصر الدكتور (وليم أولبرايت) أن التمثال هو نموذج يهودي لكن هذا الرأي عرضة للطعن من خلال :

أ. لو كان التمثال لشخصية توراتية لذكرته التوراة - وهو لابن ملك - فإذا ذكرت التوراة سفلة القوم فكيف لم تذكر هذا الأمير ؟!

ب. التماثيل والآثار الشبيهة التي اكتشفت في فلسطين تخلو تماماً من أي لمسة توراتية ، وهي إما كنعانية أو مصرية أو عراقية .

جـ. الإسم الذي يدعى د. أولبرايت أنه الوارد في التوراة (أخبار الأيام الأولى ٣ : ٢٢) والذي يرد بصيغة يجئال هو ابن شكنيا وهذا ليس له علاقة بالملك والإمارة .

ولما اكتشف الباحث J.L Starkey مخطوطات لجيش (تل الدوير) عرضها على البرفسور (شكل ١٨) Harry Torzyner والبروفسور Bialik استاذ الفلولوجيا في الجامعة العبرية لدراستها فقرر أن الأحرف اللاخيشيه هي كنعانية قديمة[١] . كما اكتشف مخطوطان من لجيش ١٣٥٠ - ١٢٥٠ ق . م[٢]. (شكل ١٩ , ٢٠)

هل لدينا دلائل كافية على أن الكنعانية القديمة تقع وسطاً بين الهيروغليفية - السينائية والهجائية الفنيقية المتأخرة ؟ يرى الدكتور (فرانك كروس) .Frank M Cross أن السينائية البدائية تطورت من العصر البرونزي الوسيط إلى الأحرف

---

(1) W. R. Taylor , B.A.S.O.R Bumber 41
(2) W.F. Albrith , B.A.S.O.R Number 6

الكنعانية القديمة وهذه الأحرف تقترب من الأشكال الهيروغليفية ، من جهة ثانية فإن مخطوطات العصر البرونزي المتأخر تشكّل منتصف الطريق بين الواح سيناء القديمة وألواح القرن العاشر ق . م من بيبلوس لنحكم على أشكال الحروف . ويشير (كروس) إلى أن المخطوطات السينائية كتبت بالرموز الكنعانية القديمة ويعتبر سوريا ـ فلسطين مكان أصل الهجائية .

لقد وصل أولبرايت وكروس إلى نتيجة : أن الحروف الهجائية اشتقت الأصوات بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة ، متأثرة بمصر في مركز التقاليد في كنعان (فنيقيا) . هذه الهجائية هي سلف الفنيقية والأرامية وبذلك يمكن الاتفاق مع القول مصر ـ سيناء ـ كنعان ـ فنيقيا أو قبول فكرة : مصر ـ كنعان ـ سيناء ـ كنعان ـ فنيقيا .

وبالنتيجة يعتبر الخط الكنعاني القديم جهد مستقل لإعلان الكتابة الهجائية . أي إن منشأ الحروف الهجائية في بلاد الشام ذاتها تتألف من عدد من العلامات (٢٢ ـ ٣٠ علامة) تمثّل أصوات اللهجات العربية بحسب المبدأ الهجائي .

ويمكن ملاحظة ثلاثة أنواع من الخط الفينيقي

(١) الخط الفنيقي في فنيقيا ذاتها ويعود إلى نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول ق . م .

(٢) الخط الفنيقي في المستعمرات : ويميز الباحثون ثلاثة أنواع من هذا الخط :

(أ) الخط الفنيقي ـ القبرصي والذي يمتد من القرن العاشر إلى الثاني ق . م وقد درست من قبل الباحث A. M. Honeyman عام ١٩٣٩ .

(ب) المجموعة السردينية ، وهي كسر مخطوطة ويحتمل أنها أبعد من القرن التاسع ق . م .

(جـ) الخط القرطاجي والذي أصبح فرعاً فنيقياً رئيسياً .

(٣) الخط القرطاجي . وقد وجد على نصب تذكارية . والقرطاجي المتأخر يعود إلى القرن الثالث الميلادي وهذا يوضح استمرارية الخط القرطاجي حتى القرن الخامس الميلادي .

(الأشكال التي توضح الخط الفنيقي ٣ ، ٤ ، ٥)

يبدو أن انتشار الخط المسماري في القرن الرابع عشر ق م دفع بسكان أوغاريت (رأس شمره شمال مدينة اللاذقية السورية) الفنيقيين إلى مواصلة الكتابة بالخط المسماري وبعد أن أدخل اخوانهم في بيبلوس - أو أبدعوا - الهجائية . فالاكتشاف المفاجيء عام ١٩٢٨ م حفز مجموعة من الباحثين أمثال C.F.A. Schaeffer و G. Chenet و Ch. Virolleaud إلى البحث والتنقيب فوجدوا عام ١٩٢٩ م ألواحاً طينية تعود في الغالب إلى القرن الرابع عشر ق . م ، وهي ذات قيمة نفيسة في عدة حقول مختلفة مثل : الخط المنقوش ، علم اللغة ، تاريخ الدين . وقد ساعد في حل رموز هذه الكتابات اكتشاف عدة لوحات بالهجائية الأوغاريتية في فلسطين (في بيت شمش وجبل تابور Tabor) والمهم أن معظم الوثائق كتبت بالخط المسماري . وقد حلت حروف ٣٢ لوحاً بهذا الخط من قبل : H. Bauer ، E. Dherme ، Ch. Virolleaud .

النظام الأوغاريتي الرئيسي يتضمن ٢٧ حرفاً صوتياً ساكناً وثلاثة حروف صوتية لينة a , i , u وكان الرمز شكلاً مسمارياً بسيطاً . وقد تبيّن للباحثين وجود ثمانية حروف تتطابق مع الكنعانية القديمة ولها نفس الدلالات اللفظية . وفي عام ١٩٤٩ اكتشف لوح صغير في أوغاريت أظهر حلول ٢٢ حرفاً محل ٣٠ حرفاً في الهجائية القديمة . إلاّ أن الباحث C. H. Gordon ومن خلال اكتشاف لوح عام ١٩٥٧ أكّد زيادة ثلاثة أحرف في نهاية الهجائية . والأحرف الخمسة الباقية تبدو لتصويب الصوت (بعضها لا زال باقياً في العربية الحديثة) . ويرى هذا الباحث أن هذه الأحرف الخمسة قد أسقطت نتيجة الميل إلى الاختصار . ويعلل الدكتور (وليم أولبرايت) القائمة الجديدة ويعتبرها متأثرة بالكنعانية

الجنوبية القديمة التي تحتوي على خمسة أحرف مضافة (١) . حيث أحرف الكنعانية الجنوبية ٢٧ حرفاً .

وقد دوّنت الأوغاريتية بعلامات تنتهي بمسامير يبلغ عددها ثلاثون والحروف على الترتيب : أ ، ب، ج ، ح ، د ، هـ ، و ، ز . ط ، ك ، ش ، ل، م ، ن ، ظ ، س ، ع ، (الفـا P) ، ص ، ض ، ق ، ش ، غ . . . وهي تخلو من حرف الطاء واستعاضت عنه بحرف الباء كما في كثير من اللهجات القادمة من جزيرة العرب . وتسمى الأوغاريتية بالهجائية المسمارية . ويؤكد الباحث الإسرائيلي (موشية كاسوطو) إن الأوغاريتية حالة متطورة عن الكنعانية ، والأوغاريتية تعتبر فرعاً من الكنعانية طرحت بنظام متطور في مرحلة لاحقة . (٢) لقد أجمع المحللون اللغويون على تميز الواح أوغاريت ، وقد قام الباحثان (مونتغومري) Montgomry و (هاريس) باختصار القواعد الأوغاريتية . ورأى الباحثان إمكانية التمييز الصوتي بين صيغة الماضي الناقص والمضارع في الفعل . وقد التقى رأي البعثة الفرنسية والأمريكية باعتبار الأوغاريتية مغلقة على الفنيقية (الكنعانية) . أما ما يسمى باللغة العبرية التوراتية فما هي إلاّ كنعانية قديمة (٣) .

---

(1) David Diringer , The Alphabet Vol I 1968 P. 150

(٢) موشيه ديفيد كاسوطو الآلهة عنات (عبري)

(3)W.F. Albright B.A.S.O.R Number 70

الكنعانية والعبرية

اللغة الكنعانية لغة متميزة ، مقرونة بمخطوطات قديمة ، بدءاً من مخطوط سرابيط الخادم مروراً بالمخطوطات التي اكتشفت في لجيش (تل الدوير) وجيزر ، ونابلس وجميع هذه المخطوطات تعود إلى الفترة من ١٧٠٠ ـ ١٥٠٠ ق . م . والكنعانيون الذين طوروا الخط الهيروغليفي الصوري إلى الهجائي القديم هم أنفسهم الذين طوروا هذا الخط إلى الهجائي المحض ونقلوه إلى اليونان عن طريق الساحل الفنيقي . وقد تأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الهجائية قد أصبحت مستعملة لدى الكنعانيين (الفنيقيين) منذ القرن الرابع عشر ق . م في شكلها الناضج . بل طوعوها إلى درجة كتابتها بالمسمارية كما رأينا في الكتابة الأوغاريتية . وكل ذلك قد تم و « هجرة الموسويين » لم تبدأ بعد ، بل إن خروجهم من مصر الذي تم في القرن الثالث عشر ق . م جاء متأخراً جداً على بدء الكتابة وتطورها :

فإذا عدنا إلى أحداث التوراة من خلال :

(١) محادثات موسى وهارون مع الفرعون فلا بد أنها حصلت باللغة المصرية بحكم تربية موسى في البلاط الفرعوني .

(٢) أن مكوث من تسميهم التوراة (الإسرائيليين) ٤٣٠ سنة في مصر يجعلهم مضطرين إلى تعلّم اللغة المصرية والتحدّث بها ويؤكد ذلك علاقتهم بالمصريين واستعارة حاجيات المصريين وسرقتها ـ كما تقول التوراة ـ

(٣) عدم ورود أي إشارة ولو تلميحاً إلى معرفة الموسويين أي لغة أخرى غير المصرية أثناء مكوثهم في مصر وبداية الخروج .

(٤) اللغة التي تحدثوها عند دخولهم إلى كنعان هي اللغة الكنعانية .

فالموسويون كانت لغتهم المصرية ولكنهم تخلوا عنها بالتدريج واستعاضوا عوضاً عنها بالكنعانية وهذا ما يؤكده الباحث (ماكلستر

R.A.S.Macalister : « إن الموسويين تكلموا لغة كنعان وخدموا آلهة كنعان »[1] والنقوش المكتشفة في أرض كنعان لم تشر أي منها إلى الموسويين ، فليس من مسلات لهم تشبه تلك التي أقامها الفراعنة أو الممالك في وادي الرافدين وليس من نصب تذكارية كتلك التي أقامها اليونان والرومان في فلسطين . أما الشخوص والأحداث الواردة في التوراة فلم يعرفها أحد إلاّ من خلال التوراة ، حيث لم يؤكدها مصدر آخر حتى الأشخاص المهمين كداود وسليمان لم يأت على ذكرهم أحد سوى التوراة .

يذكر بعض المؤرخين والباحثين وجود بعض النصوص الآثارية تتطابق مع أحداث التوراة !! ومع أن اللغة التي كتبت بها هي الكنعانية إلاّ أنها تحمل أسماء تشابه بعض الأسماء الواردة في التوراة ، فقد وجد ختم في لجيش مكتوب عليه «جداليا بن احيكام» يشبه ما ورد في التوراة « جداليا الذي على البيت » ، ويوجد ختم آخر في المتحف الإسرائيلي مكتوب عليه اسم (باروخ)[2] . وبذلك ينسى هؤلاء الباحثون أن معظم الأسماء الواردة في التوراة هي أسماء كنعانية لها وجود قبل آلاف السنين من وجود التوراة . فالأسماء المقرونة بالإله ايل ((وهو إله كنعان) هي بالتأكيد أسماء كنعانية أو بابلية : مثل إسرائيل ، جبرائيل ، ميكائيل . . . الخ . فلا غرو من وجود أسماء أخرى وهي بالضرورة كنعانية ، ووجودها على الآثار شيء طبيعي .

إن دراسة مستفيضة للعبرية - كما سنرى - يشير إلى بعدها عن الكنعانية (الفنيقية) ، وإذا كان من صلة فناتج عن صلة الأرامية بالكنعانية وعلاقة العبرية بالأرامية . (شكل ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨)

أما الآثار المخطوطة المهمة المتمثلة في تقويم جيزر فتعود إلى القرن الحادي عشر ق . م ، فالأحرف المستعملة كنعانية شمالية ثم اكتشفت الوثائق المكتوبة على الخزف وبالحبر والتي يسميها الباحثون Ostraca وعددها ثمانية

---

(1) R.A.S. Macalister , A Century Of Excavation In Palestin P. 161
(2) Nahman Avigad , Biblical Archaeologist Vol 42

في السامرة وتعود إلى القرن التاسع أو الثامن ق . م[1] وهي بالأحرف الكنعانية ، كما أوضحت الكتابة على Ostraca تطور الكنعانية . وزاد الأمر وضوحاً مخطوط (سيلو عام) Siloam الذي يؤرخ ٣٠٠ ق . م . كذلك رسائل لجيش وعددها ١٨ والتي اكتشفت عام ١٩٣٥ م في تل الدوير ، وبعض هذه الوثائق واضحة جداً وتشير إلى أنها كنعانية . ومع ذلك تدعي بعض الجهات أنها (عبرية) !!! وليس هناك أي مؤشر على أن الموسويين استعملوا الكتابة القديمة ancient script حتى القرن الثاني الميلادي[2] (انظر شكل ٦ ، ٧) .

الكنعانية والأرامية

بدأت حركة الهجرة الكنعانية من الجزيرة العربية في الألف الثالث ق . م أما الهجرة الأرامية فقد بدأت في منتصف الألف الثاني ق . م . ومن المرجح أن اللغة الأرامية لهجة متطورة من العربية القديمة التي كانت شائعة في بلاد الرافدين وبلاد الشام . ولم يكتسب الأراميون اسمهم الخاص إلاّ في حدود القرن الحادي عشر ق . م زمن الملك الأشوري تجلات بلاسر الأول (١١٠٠ ق . م) .

الكنعانية والأرامية لهجتان في لغة واحدة[3] . فخلال القرن الحادي عشر ق . م كان الأراميون يعيشون في منطقة التأثير (الفنيقية) الكنعانية فاقتبسوا الأحرف الهجائية منها . والمخطوطات الأرامية المبكرة كانت فنيقية أو كما سماها Joseph Naveh فنيقية ـ أرامية ، ولم يكن حتى منتصف القرن الثامن ق . م أرامية مستقلة[4] .

عندما كان الأراميون يكتبون بالخط الفنيقي كان لا بد لهم من استخدام ابتكارين : الأول استولده تعدد الأصوات في الأرامية القديمة وعدد الرموز في الهجائية ـ الفنيقية ، فقد اندمجت في الفينيقية بعض الأصوات إلى درجة لا

(1) David Diringer , The Alphabet P. 238
(2) Hermann L. Strack , Hebraica Vol 2 Number 1 Octo 1885 - July 1886 P. 214
(3) Scott C. Layton , Biblical Archaeologist Vol 51 Number 3 1988
(4) Ibid

نستطيع تمييز الأصوات عن الرموز ، لذا احتوت الأرامية بعض هذه الرموز وتكيفت مع الفنيقية باستعمال إشارات لأكثر من رمز . ففي الأرامية القديمة استعمل (ذ) بدلاً من (ظ) ث بدلاً من ش . والابتكار الثاني كان فيما يسمى القراءة الأم Metres lection في الكتابة . فالكتابة الفنيقية كانت حروفها صحيحة لذا لا بد من إيجاد أحرف عله ، وقد استعملت الأرامية الحروف الساكنة المؤكدة : هـ ، و ، ي H , W , Y للإعلان عن الصوت اللين في نهاية الكلمات ووسطها . وعندما تكون هذه الأحرف الساكنة مستعملة كأصوات علة تدعى القراءة الأم . وبالإضافة إلى الحروف الصحيحة فإن الأرامية كانت مُشكّلة وتعتمد على الجمل المفيدة . (شكل ٨) .

وجدت البعثة الألمانية عام ١٩٦٧ مخطوطاً مكتوباً بالحبر الأسود في (دير علا) شرق وادي الأردن ويعود تاريخه إلى ٧٠ ق . م ، وقد نشر العالمان Joa-cob Hoftijzer و G. rander Kooij نص المخطوط حيث رجحا أن اللغة هي الأرامية القديمة والتي تدخل فيها بعض الصيغ الكنعانية وبالذات العمونية[1] .

فالأرامية لم تكن في بداياتها تختلف عن الكنعانية (الفنيقية) لكن الدور الواسع الذي بدأ يلعبه الخط الأرامي اقتضى إحداث بعض التغيير والتطور . حيث تميز بأربع سمات :

(١) بدت فتحات بعض الأحرف العليا والجانبية في الأرامية أكثر وضوحاً مثل : الياء ، الدال ، الراء ، العين .

(٢) التدرج في انقاص خطوط حرفي الباء والتاء .

(٣) الاستدارة في زوايا الأحرف .

(٤) بدأ ترسيخ هذا التغيير في القرن السابع ق . م واستمر حتى بداية القرن الخامس قبل الميلاد[2]

---

(1) Joseph Naveh , Archaeology Vol 15 Number 1 1962
(2) DavidDiringer , Writing Vol 25 1962 P 138

إن تطور الكتابة الأرامية عن الفنيقية (الكنعانية) تطور انعكس لاحقاً على العبرية التي أخذت عن الأرامية حرفها ولغتها . فمثلاً حرفا الزين والصاد في الأرامية منخفضا الأطراف وأوسع وأقصر من الفنيقية . أما الباء والكاف واللام والميم والنون (الفا P) ففد قوست أو أديرت إلى جهة القاعدة ، وفي الهاء الخط الأفقي الأعلى يتحرك خلف الخط العمودي . وأحياناً توجد أربعة خطوط أفقية متعامدة بدل ثلاثة . وفي الميم والنون الخط العمودي القصير ليس مرتبطاً بالأصل . والزين والصاد ينحنيان خلف الخط الأفقي المنخفض .[١]

يمكن تمييز فترتين زمنيتين في تطور الخط الأرامي : الأولى : الفترة القديمة من القرن التاسع إلى السابع ق . م الثانية : العصر الأرامي الذهبي عندما أصبحت الأرامية لغة دولية ، واللغة الرئيسية في الشرق الأدنى ، بحيث أصبح الخط الأرامي شائعاً في الامبراطورية الفارسية وعلى رأي كثير من الباحثين بينهم (روزنتال) Rosenthal فإن أحرفاً أرامية كتبت على ستة ألواح عثر عليها في الأعوام ١٩٠٣ ـ ١٩١٣ في أشور القديمة تعود إلى منتصف القرن السابع ق . م رؤوس أحرفها ب ، د ، ر كانت مفتوحة الرأس بينما ظل حرف السين بصيغته الكنعانية القديمة (W) [٢] ، وفي عام ١٩٣٣ أعلن عن اكتشاف مخطوطات على مسافة مائة ميل جنوب القاهرة كتبت بالأرامية وتعود إلى الفترة ٤١١ ـ ٤٠٨ ق . م كما أعلنها البرفسور G.R. Driver [٣] .

وأحرف الأرامية المغلقة تتشابه مع المخطوطات التي عثر عليها في Taima في الجزيرة العربية ، ومخطوطات أرامية أخرى وجدت في مصر ، مثل لقى السقارة والتي حدد تاريخها في القرن الخامس أو الرابع ق . م حيث أن السقارة تؤرخ ٤٨٢ ق . م . ولوجود حرف الياء في المخطوط فإن الدليل قطعي على أنه متأخر عن ١٨٠ ق . م . كذلك فإن شكل حرفي الطاء والهاء هو شكل

---

(1) David Dringer , The Alphabet Vol I P. 240
(2) Ibid
(3) Ibid

متأخر وجد في اللهجة النبطية ، كما أن حرف الياء وجد في المخطوطات التدمرية والذي عرف منذ نهاية القرن الأول ق . م . [1]

اكتشف في منطقة عراق الأمير (الأردن) مخطوط يعود إلى ١٨٠ ق . م . ويقسم إلى قسمين : المخطوط (أ) ويبلغ قياسه ١٣٣ \ ٣٨ سم والمخطوط (ب) ١٤٤ \ ٣٩ سم . وقد قرئ المخطوط من قبل عدد من الباحثين منهم :

M. de Vogue و M. Clerment - Ganneau بصيغة طوبيا أو توبيا Topiya[2] :

وأحرف هذا المخطوط فنيقية متطورة (شكل ٩) وأول ما يلاحظ منها أحرف اللغة الأرامية والتي تعود إلى الفترة الفارسية ، وكل حرف يشبه أحرف المخطوطات الأرامية من Taima في الجزيرة العربية وهي تشبه كذلك المخطوط الذي اكتشف في جيزر والذي يعتبر أقرب إلى الفنيقية . وهي أحرف تضم بشكل خاص الطاء والواو والباء والياء والهاء (المد) وحرف الطاء في المخطوط له حركة دائرية ، ومن المعروف أن حرفي الطاء والهاء في الأرامية لهما صيغتان : احداهما مغلقة والثانية مفتوحة ، ففي الطاء يربط القوس الأسفل الخط الرأسي وأحياناً لا . وفي الهاء الخط الواقع على اليسار ، العمودي ، يرتبط بالخط الأفقي أو لا . والشكل المفتوح هو الصيغة القديمة لكنها استمرت في الاستعمال حتى بعد استعمال الشكل المغلق وتطوره وهذه الحالة تظهر عند النبطيين ـ أما حرف الواو فقد تطور وتم الوصول إليه باختصار الخط الأعلى وكذلك الحال بالنسبة للباء حيث يحذف الخطان الصغيران في الأعلى والواو المستعملة حديثاً (في الأرامية والعبرية) تشابه الواو في المخطوطات التي وجدت في مصر ، وهو لا يختلف كثيراً عن الواو الذي وجد على لوح Taima في الجزيرة العربية . وباعتبار هذه الأحرف تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد فإن الحرف الذي وجد على المسكوكات اليهودية وهي في أقدمها من الفترة المكابية ، لذا فإنها بالضرورة مقتبسة عن الأرامية .

---

(1) Enno Littman , Greek and Latin Inscription
(2) Ibid P3

وبتعاملنا مع الأحداث التاريخية يتوجب الإجابة على سؤالين : (١) ما هو موضوع وطبيعة المخطوط (٢) من هو طوبيا ؟ القصد من المخطوط هو الإعلان عن شخصية الإنسان الذي يحتويه القبر . أو على الأقل الإشارة أنه كان يعيش هناك ، وقد نقش المخطوط بشكل جيد ، وقد وجدت مخطوطات قصيرة تشبهها في أماكن متعددة كالمخطوط في (مجدل الشوير) . والشخص المذكور يجب أن يكون مرتبط بتاريخ عراق الأمير والتي كانت تسمى قديماً (تيروس) Tyros كما يذكر المؤرخ اليهودي (يوسيفوس) وبذا ارتبط اسم تيروس بالقائد الروماني (هركانوس) ، وعليه سيكون تاريخ المخطوط بين ٢٠٠ ـ ١٧٥ ق. م . وقد رأى بعض الباحثين أن الشخص هو أموري [١] وبذلك تنتفي فكرة أن الكتابة عبرية .

تبنى اليهود الكتابة بالأرامية بالتدريج مع انتشار اللهجات الأرامية وأقدم شاهد على دخول هذا الخط إلى فلسطين هو مخطوط عراق الأمير ، والمخطوط الذي يدعى " Tomp of St. James " [٢] حيث الكتابة أرامية واضحة . وعليه فإن المسكوكات ـ التي يظن أنها عبرية ـ حتى تلك التي وجدت في (بار كوكبا) bar Cochba ليست مكتوبة إلاّ بلغة أرامية متطورة عن الكنعانية . (شكل ١٠ ، ٢٤)

انتشرت اللغة الأرامية انتشاراً واسعاً ، حتى أن الأشوريين استعملوها في بعض شؤونهم . وبلغت أوج انتشارها في القرن الخامس ق. م حيث أصبحت اللغة المحكية في جميع أنحاء الهلال الخصيب وغدت لغة المسيح وأتباعه وكتب الحواريون ، الأناجيل بها . وصارت الأرامية من تخوم الهند إلي الحبشة ، وهذا أعظم انتصار تحققه لغة لم يكن لها سلطان سياسي . وبانتشار الأرامية انتشر استعمال الحروف الهجائية التي كتب بها الأراميون لغتهم (الفنيقية) واقتبستها أقوام في جميع أنحاء آسيا وقد واكب ذلك نشوء الديانة

---

(1) Enno Littman , Greek and Latin Inscriptin
(2) Ibid P 213

اليهودية مما أدى إلي تبني الأرامية كلغة دينية وكتبت بها بعض الأسفار ، حتى استقر بهما المقام بلهجة أرامية حورت حروفها تحويراً بسيطاً وتشكّلت ما سماه الأحبار اليهود « اللغة المقدسة » وهي التي سميت في مرحلة متأخرة العبرية . والخط الذي سمي بالعبري المربع (١) هو الأرامي .

انقسمت اللغة الأرامية بمرور الأزمان إلى لهجات يمكننا حصرها بفرعين : الفرع الشرقي في وادي الفرات وتمثله اللهجة المندائية والسريانية . والفرع الغربي ممثلاً باللهجات الأرامية في مملكة سمأل (زنجرلي) وحماه وتدمر والأنباط . ومن هذا الفرع ربما أخذ الخط العبري . الذي كتبت به التوراة والمسماه « أرامية التوراة » . وقد تكلّم بالمندائية طائفة باطنية في جهات الفرات . أما السريانية فكانت في الأصل لغة إقليم الرها (اديسا) وصارت لغة الكنائس المسيحية المتعددة في سوريا ولبنان وشمال العراق ، وظلّت هكذا حتى حلّت محلها اللغة العربية الحديثة . ولما اتخذ المسيحيون الذين هم من أصل أرامي اللهجة الرهوية جاعلين إياها لغة الدين صاروا يعرفون باسم السريان أو السوريين وابتعدوا عن تسمية أنفسهم أراميين لاقتران اللفظة بالعهد الوثني . وكما سمى المسيحيون الأرامية سريانية سمى اليهود الأرامية « اللغة المقدسة » وثم العبرية ، خاصة أن الأرامية كانت اللغة المحكية عند اليهود في العراق - في الأقل ، وهم الذين حملوها معهم كلغة مقدّسة إلى فلسطين .

ذكر مصطلح آ-را-ام A - ra - am في المخطوطات الأكدية ، ومن المخطوطات القديمة التي ذكرت الأراميين ألواح العمارنة (القرن الرابع عشر ق . م) والتي أشارت إليهم باسم اخليم Akhlame أو اخلامو Akhlamu (مجموعات متحدة) . بينما في المصادر الأشورية فقد دعو آرومو Arumu أو أرامو Aramu . (٢)

---

(١) يشير بعض الباحثين إلى أن الخط العبري هو من الخط الأشوري المربع . في حين أن الكتابة الأشورية اقتصرت على الخط المسماري وليس به خط مربع أو غيره . والخط المربع أخذ من الخط الأرامي على الأرجح

(2) David Diringer , The Alphabet P. 247

المصطلح اليوناني « أرام » هو سوريا ، واستعمال مصطلح « اللغة السورية » للتدليل على الكلام الأرامي . ولكن للباحث الألماني (ونكلر Winekler) رأي آخر ، حيث اعتبر مصطلح سوريا مشتق من كلمة Suri في المخطوطات المسمارية ، أي الغرب في الدليل البابلي وهي المنطقة التي كان يسكنها الأراميون [١] .

الاهتمام بالمصطلحات الأرامية وتصنيفها تناولها الباحث Joseph A. Fitzmyer عام ١٩٧٩ حيث قسم أطوار الأرامية إلى [٢] :

الأرامية القديمة	Old Aramaic	٩٢٥ - ٧٠٠ ق.م
الأرامية الرسمية	Official Aramaic	٧٠٠ - ٢٠٠ ق.م
الأرامية الوسيطة	Middle Aramaic	٢٠٠ ق.م - ٢٠٠ م
الأرامية المتأخرة	Late Aramaic	٢٠٠ م - ٧٠٠ م
الأرامية الحديثة	Nodern Aramaic	٧٠٠ م . . .

وكان الباحثون قد تتبعوا أطوار اللغة الأرامية لكنهم لم يتوصلوا إلى تحديد المصطلح : فمثلاً مصطلح الأرامية القديمة Old Aramic ليس هو الصيغة الوحيدة المستعملة لتحديد الطور القديم في اللغة ، بل شهدت الساحة الأدبية اصطلاحين آخرين هما : الأرامية المتقدمة Ancient Aramic والآرامية المبكرة Early Aramic .

انتشرت الأرامية ، ولعبت أدواراً ثقافية هامة في :

١ـ الغرب : وهي اللهجات الأرامية في سوريا وفلسطين وتركيا وتندرج تحت :

أولاً : أرامية دويلات شمال سوريا

(1) Ibid
(2) Scott C. Layton , Biblical Archaeologist Vol 51 Number 3 198

أ : الأرامية السورية وأقدم المدونات فيها تعود إلى ملوك شمالي سوريا وشمالي وادي الرافدين مثل (ادد) ، (بر ركب) ملك سمأل من القرن الثامن ق . م ومن هذا النوع آثار تم العثور عليها في سوريا وتركيا وفلسطين ومصر وجزيرة العرب وبعض مناطق أفريقيا ولكنها لا تتجاوز القرن الخامس ق . م . ومن مميزات الأرامية القديمة استخدام القاف التي تحولت في اللهجات الأخرى (عين) .

ب : لهجة قرى منطقة القلمون ومنها قرية معلولة .

جـ : لهجة طور عابدين ويتكلّمها سكان القرى الجنوبية الشرقية من تركيا الغربية إلى الحدود العراقية .

د . أرامية الرها .

ثانياً : أرامية فلسطين :

أ : أرامية وسط فلسطين وكانت سائدة في فترة الحكم الروماني وسميت أيضاً اللهجة الفلسطينية .

ب : أرامية الجليل ، وهي مشابهة للسابقة ، كما يظهر من حادثة الرسول بطرس ، فعندما انكر أنه من تلاميذ المسيح بادره البعض بالقول : « في الحقيقة أنت أيضاً منهم فإن لهجتك تدل عليك » .

جـ : اللهجة السامرية ، وهذه اللهجة خليط من أرامية سورية وأرامية بابل ، والقريبة من الكنعانية . ولم تكن السامرية لتختلف عن أرامية فلسطين والجليل . فالمسيح تحدّث مع امرأة سامرية قرب البئر وقد عرفت المرأة لهجته الأرامية الفلسطينية ، فحروف الحلق في هذه اللهجة مثل الحاء ، الهاء ، العين تلفظ همزة . (شكل ٢٦ ، ٢٧) .

د : أرامية أسفار العهد القديم ، وتتمثّل هذه في الفصول المدونة من أسفار عزرا ودانيال .

٢ـ الشرقية : وتمثلها اللهجات الأرامية في العراق وإيران وتقسم إلى عدة لهجات :

أ: أرامية الدولة من السابع ـ الخامس ق . م وسميت بأرامية الدولة لأن الدولة الفارسية الأخمينية اتخذتها لغة رسمية .

ب . أرامية التلمود البابلي . في الوقت الذي دوّن فيه التلمود الفلسطيني بأرامية فلسطين دوّن التلمود البابلي بالأرامية الشرقية .

جـ . أرامية الكلدانيين .

د . اللهجة الآثورية .

هـ . اللهجة المندائية

٣ـ أرامية العرب الأوائل : التدمريون ، الحضريون (سكان الحضر شمالي العراق) ، الأنباط .

وقد وجدت عند الأراميين طريقتان للدلالة على الحركات لا زالتا تستعملان حتى الآن .

أ : طريقة الحروف : حيث اتخذ الأراميون الغربيون في القرن الثامن خمسة أحرف من اليونانية يكتبونها فوق الحروف الأرامية أو تحتها للدلالة على حركاتها .

ب ـ طريقة النقط الصغيرة : وهي رسم نقطة أو أكثر فوق الحرف أو تحته للدلالة على حركاته وهي أكثر شيوعاً بين الأراميين الشرقيين . وهذه الطريقة اتبعتها أيضاً العبرية .

المخطوطات التي تعود إلى الطور القديم من اللغة الأرامية ليست كثيرة . ففي تل الفخارية اكتشفت ألواح بالأرامية القديمة عام ١٩٧٩ . وتقع المنطقة

على مسافة كيلومترين شرق (تل حلف) حيث يمر نهر الخابور بين المنطقتين . وقد وجد المخطوط على تمثال بالحجم الطبيعي لرجل ، نحت واقفاً ويداه متشابكتان عند الوسط والمخطوط مكتوب باللغتين الأشورية وبالخط المسماري والأرامية . ويضم الجانب الأمامي ٣٨ سطراً والخلفي ٢٣ سطراً . ويوضح المخطوط ، ثنائي اللغة ، الإجلال الذي يمثله (هدد ـ يتي) - Hadad Yiti حاكم جوزان (الإسم القديم لتل حلف) لهيكل هدد . وتنقسم الكتابة إلى جزأين : أسطر أرامية من ١ - ١٢ تتطابق مع الأسطر الأشورية من ١ ـ ١٨ . والأسطر الأرامية من ١٢ ـ ٢٣ تتطابق مع الأشورية من ١٩ ـ ٣٨ . وكل جزء يحتوي عبارات الوعد والوعيد .

كما اكتشف حجر تذكاري أو مسلة كرّست إلى بار ـ هدد في قرية بريج Breij والتي تقع على بعد ٧ كم شمال مدينة حلب بين أطلال تعود إلى العهد الروماني والمسلة تحتوي على نقش يذكر الإله الفينيقي (ميلكارت) والذي كان يعبد بشكل رئيسي في صور . لقد كرّس بار ـ هدد المخطوط الذي يبدو أنه كتب بين ٨٥٠ ـ ٧٥٠ ق . م حيث تقرأ : « التمثال الذي بار ـ هدد [. . .] ملك أرام أقامه لسيده ميلكارت والذي نذر له ومن ثمة سمع صوته »[1] .

ومسلة أخرى من حجر البازلت أقامها (زاكر) وجدت في عفس AFis والتي تبعد ٤٥ كم جنوب غرب حلب مكتوب عليها ١٧ سطراً بالأرامية القديمة على الجانب العلوي الأمامي المخطوط على الجزء اليساري ٢٨ سطراً ويتضمن سطران آخران على الجانب الأيمن . ويعود تاريخ النقش إلى القرن الثامن ق . م ومن المعروف أن (زاكر) هو ملك حماه ولؤاش شمالي سوريا[2] .

تمثال الإله هدد الذي أقامه الملك (بانامو) الأول Panamu ملك (يدي) YDY ويعود إلى منتصف القرن الثامن ق . م ، ويحتوي هذا التمثال على ٣٤ سطراً كتبت بالأرامية القديمة على الجانب الأمامي للتمثال الذي يرتفع أربعة

(1) Scott C. Layton , Biblical Archaeologist Vol 51 Number 3 1988
(2) Ibid

أمتار[١] فأقدم الكتابات الأرامية المعروفة اليوم في شمالي سوريا وتعود إلى بداية القرن التاسع ق . م (شكل ١١ ، ٢٦ ، ٢٧)

ارتبطت الأرامية المكتوبة على البردي - لثلاثين عاماً - باسم Cowley حيث نشر كتاباً عام ١٩٢٣ عن الأرامية على البردي والتي عثر عليها وتعود إلى القرن الخامس ق . م وأضاف إليها الشروحات والترجمات . ثم تضافرت جهود Cowley مع جهود (سايس) A. Sayce و Ed. Sachau ليخرجوا لنا كتابات عن الأرامية ذات قيمة [٢] .

وجد المنقب (زكي سعد) في السقارة رسالة مكتوبة على الفخار موجهة من ملك (أشكلون) إلى فرعون مصر يطلب المساعدة لصد الهجمات البابلية ، وهذه الرسالة كتبت بالأرامية ولم تكتب بالأكدية على غرار رسائل العمارنة . الأمر الذي يشير إلى بدء سيطرة اللغة الأرامية و الحلول محل اللغات الأخرى في التخاطب والمعاملات . . وقد تضمنت الرسالة : سيدي الملك (فرعون) أنا عبدك ملك أشكلون . ليحفظ سيد السماء والأرض ، الإله بعل ، عرش سيدي ، الفرعون ، لقد كتبت إلى سيدي أخبره أن جيوش ملك بابل بدأت بالزحف ، وليعلم سيدي الملك ، فرعون ، أن عبده لا يستطيع الوقوف في وجه ملك بابل وحده ، هل يمكن أن يتخلى سيدي عني ، وأنا الموالي والخادم . وإذا ما استطاع ملك بابل القضاء على ملك سيدي فستضيع البلاد كلها[٣] .

المخطوطات العبرية والأرامية التي تم اكتشافها في فلسطين ليست كثيرة وكل ما وجد ليس ذات أهمية[٤] فقد اكتشف الدكتور E.L. Sukenik وهو منقب من الجامعة العبرية في القدس مخطوطاً واضحاً جداً منقوش على حجر باللغة الأرامية (شكل ١٢) حيث يقرأ : « هنا رفاة عوز ياهو ملك يهوذا فلا تفتحه » . وقد حدد المنقب تاريخ النقش ١٣٠ ق . م إلى ٧٠م . ولغة النقش ، كما يقول

(1) Scott C. Layton , Biblical Archaeologist Vol 51 Number 3 1988
(2) Bezalel Porten , Biblical Archaelogist Vol 42 1979
(3) H.L. Ginsberg , B.A.S.O.R Number 111
(4) W.F. Albrith , B.A.S.O.R Number 44 P. 9-10

العالم الفلولوجي العبري J.N.Epstein من الجامعة العبرية هي الأرامية . مستنداً إلى كلمة (طمي) والتي تعني رفاة وهي غير موجودة إطلاقاً ضمن مفردات اللغة العبرية ، لقد كتب هذا المخطوط ونقش بلغة ذلك العصر [1]. وهذه شهادة من العالم الفلولوجي (الإسرائيلي) بأن العبرية لم تكن مألوفة حيث أن الأرامية هي لغة ذلك العصر الذي أشار إليه .

كما وجدت عدة مئات من القطع التذكارية الصغيرة وجدت على فترات منها عدة مخطوطات على البردي جاءت من مصر بينها البردي الهامة من الفنتاين Elephentine (أسوان) والتي تعطينا معلومات دينية واقتصادية . وهذه المخطوطة أرجعها الباحثون إلى مستعمرة عسكرية موسوية أقيمت في هذه المنطقة (وهم الذين عادوا من فلسطين إل مصر في أعقاب الهزيمة التي أوقعها نبوخذ نصر في الموسويين ، فعادوا إلى جذورهم ، مما يؤكد بطلان عدائهم للفراعنة كما تدعي التوراة) . (شكل ١٣)

أقدم كتابة وجدت في مصر تعود إلى ٥١٥ ق.م ، كما وجدت مخطوطات أرامية في اليونان والجزيرة العربية والهند . [2]وفي النصف الثاني من الألف الأول ق.م أصبحت الأرامية أوسع وأهم خط في الشرق الأدنى .

هناك تقليد يهودي معروف ، إن وقوع السبي البابلي أدى إلى عزوف هذه الكتلة البشرية عن التحدث بالكنعانية إلى الحديث بالأرامية حيث كانت سطوة الأرامية وأوج انتشارها وفاعليتها وسهولة الحديث بها وسهولة الكتابة بأحرفها : فأصبح الخط الأرامي ألف باء « اللغة المقدسة » وما يسمى بالعبري المربع قد كتب على قاعدة رئيسية من الهجائية الأرامية .

---

(1) Ibid
(2) David Dirivger , The Alphabet P. 255

اللغة العبرية

يتساءل البعض ما هي لغة « اليهود » إذا كانت العبرية قد ولدت في القرن الخامس أو الرابع ق . م وتبلورت في القرن الثاني ق . م وتميزت كلغة في القرن الخامس الميلادي وما بعده ؟ وقد يكون التساؤل نفسه نتيجة التشويش الذي أحدثته التوراة وتداخل المعلومات الواردة عبرها إلى ذهنية الإنسان المؤمن بالديانة اليهودية كديانة (سواء أكان يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً) . فالتوراة تمزج مزجاً لا منطقياً وتسبر المسافات الزمنية بطريقة « سيريالية » فتربط ما يسمى عصر الآباء (القرن التاسع عشر ق . م) بعصر موسى والموسويين (القرن الثالث عشر ق . م) بعصر الديانة اليهودية (القرن الخامس ق . م وما بعده) وتعتبر العصور هذه وكأنها حالة واحدة . بينما الحقائق تؤشر أن من يسمون بالآباء ليسوا سوى أسماء أماكن أو شخوص كنعانية . أما الموسويون فكانوا يتحدثون المصرية القديمة وعندما استوطنوا كنعان تحدثوا الكنعانية . حسب قانون انتقال اللغات إلى أجانب . فاللغة لا تنتقل من السلف إلى الخلف فقط ، بل تنتقل أحياناً إلى شعب أجنبي إذا اشتبكت في صراع مع لغته ، وكانت تتمتع بقوى ذاتية كبيرة ، كما كان شأن اللغة اللاتينية في الشعوب السلفية واللغة السلافية في شعوب البلغار [1] ، فمن المحتمل أن يكون شعب غير عربي (لم يخرج من الجزيرة العربية) انتقلت إليه لغة الجزيرة العربية عن هذا الطريق . وقد دللت البحوث الحديثة على صحة هذا الاحتمال فيما يتعلّق ببعض الشعوب . فمن المقطوع به أن معظم الجماعات الحبشية الناطقة بلهجات من لغة الجزيرة العربية هم شعوب ليست عربية وهذا ما ينطبق على الموسويين الذين تحدّثوا الكنعانية ثم الأرامية ، « فالعبرية » ليست إلاّ لهجة أرامية مكتسبة تحوّلت تالياً إلى ما يسمى « العبرية » .

فمن الحرف الفنيقي اشتق الحرف الأرامي « بل تطور عن الفنيقي » فالنصوص الأرامية القديمة لا تختلف عن الفنيقية (من القرن الحادي عشر ق . م

(1) David Diringer , Writing Vol 25 1962 P 128

وحتى السابع ق.م) ثم أخذ بالتمايز إلى أن أصبح الخط الأرامي له سمات خاصة ولكنها ليست مخلوعة الجذور عن الفنيقية . ومن أهم مميزات هذا الخط مرونته وقدرته على التطور لذا وجدنا لهجات أرامية متعددة ، فأينما حلّت الأرامية كانت توجد لهجة لها سماتها . وبإحدى هذه اللهجات كان يتحدث عزرا وجماعة السبي في بابل وبهذه اللهجة بدأت كتابة التوراة . . وزيادة في التمييز سمى هذه اللهجة « اللغة المقدّسة » لأن التوراة كتبت بها ، ومع مرور الزمن وحتى ما بعد القرن الخامس الميلادي ، أطلق عليها اللغة العبرية . لكن الباحثين المحدثين وكلما جاءت اللغة التي كتبت بها التوراة سموها « العبرية » في وقت لم تكن تحمل هذا الإسم . ومما يؤكد ذلك ما جاء في سفر نحميا (١٣ : ٢٤) حيث أن اللغة المتكلّمة ذلك الوقت الكنعانية بلهجاتها المتعددة .

استقرت مجموعة من اليهود بعد عصر الاسكندر المقدوني في الاسكندرية وبعض المدن الأوروبية ، وأخذوا يستعملون اللغة اليونانية القديمة ، بينما كانت الأرامية لغة اليهود في بلاد الشام والعراق ومصر . وفي القرن الثاني ق.م تبنى المكابيون هذه اللهجة وكتبوا بها ، ومما يؤكد ذلك أن كتاب دانيال الذي يرجع تاريخه إلى ١٦٦ ق.م قد كتب بالأرامية . وكذلك نجد في سفر الأخبار الانتقال من الأرامية الأم إلى اللهجة الهجينة التي تبنوها .

أول الكتابات التي يمكن نسبتها لليهود هي المخطوطات على المسكوكات اليهودية من ١٣٥ ق.م إلى ١٣٢ ـ ١٣٥ ميلادي في وقت كانت فيه اللغة العبرية تنمو [(١)] . فأقدم المخطوطات العبرية لم تتجاوز القرن الثاني ق.م ، وحتى هذا اليوم لم يعثر على أي أثر أو مخطوط أو نص باللغة العبرية قبل ذلك التاريخ . ويؤكد الباحث (وليم أولبرايت) الذي يقول : إنه يمكن ملاحظة بعض الخطوط العبرية قبل الفترة المسيحية بمدة قصيرة [(٢)] . وهي لا تعدو أن تكون صيغة أرامية ، فأحرفها أرامية ومضامينها توراتية . ولأن الأرامية أخذت

---

(1) David Diringer , The Alphabet P. 255
(2) G.R.D. Driver , Hebrew Language , Ency, Brit 1965 Vol 11. P. 29

بالتراجع ولوجود عدة لهجات أرامية تثبتت لهجة منها « كلغة مقدسة » وبحكم تبلور الديانة اليهودية في فترة المكابيين ترسخت هذه اللهجة كلغة لهذه الديانة .

يقول البرفسور G.R.Driver أستاذ اللغة العبرية في جامعة أوكسفورد في مقالة له في دائرة المعارف البريطانية أن كلمة عبري وعبراني هي صياغة من قبل حاخامي فلسطين في وقت متأخر (١) والدليل على ذلك أن كلمة عبري لم تكن مستعملة في روسيا للدلالة على اليهود إلاّ بعد القرن الخامس عشر للميلاد .

ويقول الباحث (هيرمان ستراك) أن موضوع « التقديس » والدنس بالنسبة للغة العبرية ليس له علاقة بجوهر الأحداث ، فاليهود الذين يكنون الكره للكنعانيين اعتبروا اللغة الكنعانية - رغم استعمالها مدة طويلة - لغة دنسة بينما اعتبروا اللغة الأرامية لغة « مقدسة » ومن هنا جاء تقديس هذا الخط . فالرأي الذي يقول أن عزرا هو الذي أحضر معه الخط المربع من بلاد أشور يؤكده المؤرخان (يوسيفوس) و (ناثان) وحتى لو أن عزرا لم يحضر معه الخط الأرامي فإنه جاء ومعه اللغة الأرامية . ومما لا شك فيه أن عدداً من المسكوكات في فترة المكابيين كتبت بالأرامية (شكل ١٤) وبذلك أصبحت هذه الأحرف من « القانون الإلهي »(٢) .

يؤكد الباحث (الإسرائيلي) (موشيه دافيد كاسوطو) : أن بني (إسرائيل) تعلّموا طرق الفن نتيجة وجودهم بين أمم كبيرة ، بين المصريين من جانب والبابليين من جانب آخر(٣) . ويقول أيضاً : « واللغة العبرية ليست سوى لهجة انفصلت عن الجذع الكنعاني . . . وهذه الفرضية لا يمكن دحضها »(٤) .

---

(1) Humann L. Strack , Hebraica Vol 2 Number 1 Octo - 1885 July 1886 P.214

(٢) موشيه ديفيد كاسوطو الآلهة عنات (عبري) ص ١٩

(٣) المصدر السابق

(4) David Diringer , The Alphabe P. 256

العدد الأكبر من النصوص العبرية وجد في القاهرة أثناء ترميم كنيس عزرا وهو ما يسمى « الجنيزا » وذلك عام ١٨٩٦ م ويرجع تاريخ هذه النصوص إلى سنوات (القرن التاسع ـ الثاني عشر للميلاد) . ومخطوطة أخرى عن الأنبياء المتأخرين كتبت سنة ٩١٦ م وهي موجودة الآن في مدينة (لينين جراد) ، ومخطوط القاهرة حول الأنبياء يعود إلى القرن التاسع الميلادي . كما توجد في المتحف البريطاني مخطوطات تعود إلى القرن التاسع الميلادي ، ولكن معظم المخطوطات العبرية تؤرخ ما بين القرن الثاني عشر إلى السادس عشر الميلادية(١) . لكن تظل أقدم المخطوطات العبرية بالإطلاق تلك المكتشفة شمال البحر الميت ومن بينها مخطوط اشعيا وهي المرحلة التي كانت فيه «العبرية » تنمو على هامش الأرامية .

تميزت لغة مخطوطات البحر الميت التي اكتشفت عام ١٩٤٧ بصعوبة قراءتها بالعبرية وقد فسّر بعض الباحثين ذلك باعتبارها « عبرية غير مدرسية Scholar وقد أفاد البرفسور (الإسرائيلي) Sukenik أن هذه المخطوطات تعود إلى القرن الأول ق . م بينما M.Dupent - Sommer فيرجع هذه المخطوطات إلى سنة ٤١ ق . م (٢). (شكل ١٥)

رغم حوالي نصف قرن من الجهود المضنية التي بذلتها دائرة الآثار (الإسرائيلية) فلم تستطع إيجاد أي أثر حاسم يؤكد أطروحات التوراة ، لكن بين الحين والحين يذاع عن اكتشاف هنا أو هناك وعند التمحيص فيه ودراسته دراسة متأنية تكون النتائج غير ما أعلنه (الإسرائيليون) . فقد اكتشف المخطوط «المهم» ـ كما يقول عنه علماء الآثار الإسرائيليون ـ والذي يشير إلى مكان (البوّاق) « الذي ينفخ في البوق » . مما يشير إلى وجود أحد الكنس اليهودية . ورغم أن

(1) David Diringer , The Alkphabetr P. 256
(2) Edmund Wilson The Dead Sea Scrolls 1969 P4

المخطوط يعود إلى العصر الروماني [1] - أي بعد فترة المكابيين - فإن لغته تشير إلى قربها من الآرامية . (شكل ١٦)

تطور الخط العبري

أشار (وليم كيزينيوس) عام ١٨٢٢ - وهو من رواد كتاب قواعد العبرية - بأنه واجه صعوبة بالغة ونقصاً في المعلومات التاريخية عن أصل وتطور اللغة العبرية، وبعد مائة عام على كتابته هذه كتب (باور) و (ليندر) : « القواعد التاريخية للغة العبرية » حيث جاء فيه : بأن ما لديهما من معلومات عن تاريخ اللغة العبرية قليل ، وأنهما أمام مشاكل كثيرة يلزمها الاجتهاد .

كان العصر الذي حكمت فيه أسرة المكابيين (١٤٠ - ٣٦ ق . م) عصراً بدأت فيه تخبو اللغة الآرامية أمام لغات أخرى أهمها اليونانية والرومانية ، لكن لأن الديانة اليهودية الفعلية تبلورت خلال هذه الفترة ولأن كتبة الأسفار بهذه اللغة أكدوا على « قدسيتها » . . ومع مرور الوقت أخذت هذه اللغة تبتعد أو تقترب من النصوص الآرامية الأصلية ، لكن أهم ما يبين علاقة اللهجة التي تكلمها المكابيون مع الآرامية استمرار استعمال حرف (ش) بدلاً من اسم الموصول (الذي) [2] .

نتيجة اقتباس الخط الآرامي وتطويره إلى الخط « العبري » فقد نقل الكتّاب اليهود الأوائل الأحرف الآرامية البالغة عددها (٢٢) حرفاً واعتبروها الأحرف العبرية ، وهي الأحرف المعروفة بالأحرف الساكنه ، ويكتب الخط العبري من اليمين إلى اليسار كما هو الحال في الخط الآرامي وباقي اللهجات العربية القديمة واللغة العربية الحديثة . وقد اجتاز الخط العبري ثلاث مراحل :

١- تطابق في المرحلة الأولى مع الخط الآرامي .

---

(1) Treasurez Of The Holy Land P. 211

(٢) اسرائيل ولفنسون اللغات السامية ص ٩٤

٢ـ حوالي القرن السادس الميلاد أدخل على هذا الرسم تطور جديد إذ استخدم (الألف والهاء والواو والياء) للرمز إلى أصوات المد الطويلة فساعد ذلك على ضبط اللفظ .

٣ـ اخترع في العصور الوسطى نظام الحركات للإشارة إلى أصوات المد القصيرة . ويعتقد أن هذه الطريقة قد أخذت من اللهجة الأرامية ـ النسطورية[١] . وقد اتخذت ثلاثة طرق لرسم هذه الحركات :

أ: طريقة طبريا : وترمز إلى أصوات المد القصيرة بعلامات تحت الحروف .

ب : الطريقة العراقية أو البابلية : وترمز إلى أصوات المد القصيرة بعلامات فوق الحروف .

جـ: الطريقة الفلسطينية : وترمز إلى أصوات المد القصيرة بعلامات فوق الحروف كا تفعل الطريقة العراقية ولكنها تختلف عنها في صورة هذه العلاقات ودلالاتها .

وبذلك مر الخط العبري بثلاث مراحل :

أولاً : الخط المربع (الأرامي) وهو الذي تطور إلى الخط الطباعي في اللغة العبرية .

ثانياً : الخط الرباني الذي استعمله الربانيون ورجال الدين في العصور الوسطى .

ثالثاً : الخط الطباعي المتصل ، والذي انتشر في الشرق وإسبانيا وإيطاليا وقد غدا الخط البولندي ـ الألماني الشكل الحاضر للخط العبري .[٢]

اقتضت قراءة التوراة ـ مع وجود دماء جديدة دائماً ـ ضرورة ضبط اللفظ

---

(1) David Diringer , The Alphabet Vol 1 P. 266
(2) Ibid P. 262 - 263

الأمر الذي أجبر رجال الدين اليهود ـ المتأخرين ـ على الإعلان عن دور لأحرف العلة بعد أن كان الاعتماد كلياً على الأحرف الساكنة ، فاستخدم أسلوب التنقيط البابلي وذلك لكتابة نص صحيح الإملاء وغير عرضة للتغيير . وقد وجد هذا النظام في عدد من المخطوطات التوراتية والكسر المكتشفة في بعض الكنس القديمة[1] . (شكل ١٧)

وكما أعطي النظام البابلي أهمية كان النظام الفلسطيني ذا أهمية أيضاً ، فموضع النقط وعددها تحدد دلالة صوت الحرف اللين . والنظام الطبراني مهم أيضاً إذ يحتوي على نقط وعدد من الخطوط (شارطة dash) وهو نظام متطور ودقيق ومفهوم أكثر من غيره ، والرموز الطبرانية توضح نغمة الكلمة بالأساس وإلى النبرة بشكل ثانوي بينما النظامان الأخران يهملان ذلك .

ولتمييز العلامة الصوتية تستعمل النقط لضبط اللفظ وتحديده فوق الأحرف الساكنة . ووجود النقطة إلى يمين الحرف أو يساره لتفريق صوت (س) عن (ش) مثلاً .

للمصورتيين Mossoretes في العصور الوسطى الفضل في ضبط اللفظ . فإذا أخذنا كلمة بالعبرية مثل (اليخ) « لك » فإن قراءتنا لها ترتكز على معيارين :
(١) المخطوطات القديمة التي حددت الأحرف الصحيحة في حدها الأدنى .
(٢) القراءة التي وصلتنا من المصورتيين ، وهم الذين حللوا اللفظ التقليدي للكلمة صوتيا وقراءتها بصوت مرتفع ، ولأن الحروف القديمة هي أحرف صحيحة فإنها لا تخبرنا مباشرة عن طبيعة الحرف إذا كان احتكاكي مثلاً أو غيره . والمقارنة بين أحرف اللين العبرية وصيغة التشكيل في اللغات الأخرى ستقودنا إلى حالة الاقتباس التي طرحها المصورتيون .[2]

معظم النصوص العبرية الآن تلفظ بالعبرية الطبرانية لكن هناك نصوص صيغت في طبريا ، دون شك ؛ لكنها مصورتية بابلية تعود إلى العصور الوسطى

(1) Ibid P. 264 - 265
(2)Saul Levin , The Indo - European and Semitic Languages P 43

المتقدّمة Early Middle Ages . والمخطوطات البابلية تختلف بين مخطوطة وأخرى . ومع ذلك تستعمل ستة حروف ساكنة كإشارات توضع نحو اليسار في أعلى الحرف الساكن . فعلى سبيل المثال فإن حرف (م) في النص الطبراني يستعمل مشكّلاً (م) أي النقطة أسفل الحرف الساكن ، بينما يكون تشكيله في البابلية (م) ويستعمل أحياناً (م) ، وليس هناك توافق بين حرف وآخر [١] .

يوجد في العبرية صيغتان للفعل الماضي : (١) العادية مثل كتب ، أمر [٢] والثانية مشتقة من المضارع بإضافة واو العطف مثل : ويكتب ويأمر حيث تدل على معنى كتب وأمر . وهذه الصيغة مأخوذة من البابلية القديمة بينما أسقطت هذه الصيغة من الأرامية المتأخرة والعربية الحديثة ، وهذا يشير إلى استمرار التأثير البابلي في كثير من المناحي اليهودية ومنها اللغة .

تميزت اللهجات العربية القديمة بكثرة عدد الحروف قياساً إلى غيرها من اللغات ، وقد استغنت العبرية عن أصوات حروف (الثاء ، والذال ، الغين) رغم أنها كانت مستعملة وخصوصاً الثاء فهذا الحرف كان يستعمل في لفظ (ايث) الذي يسبق المفعول به . وفي العبرية تتحكم الحركة التي توضع على الحروف أو تحتها أو وسطها في تغيير أصوات حروف مثل (الكاف ، الباء ، فا) حيث تغير الحركة أصواتها إلى (خ ، ف V ، فا P) على التوالي ومن هناك ترى الفرق الواضح من هذه الناحية بين العربية والعبرية ، فالعربية تعبّر عن أصواتها بالحروف ولا تغير الحركات هذه الأصوات في حين نجد العبرية تعتمد في تغيير أصوات بعض حروفها على الحركات . والعربية ليس بها سوى فتح وضم وكسر أما في العبرية فأشكال متعددة من الضم والفتح والكسر والتسكين والتشديد يفوق عددها عشر حركات مختلفة . رغم بقاء نهاية الكلمات ساكناً [٢] .

والأرامية والعبرية ليس لديها ما يشبه علامات المثنى بالعربية ، فالعربية تستعمل حالة المثنى بحرية لأي اثنين ، بينما العبرية والأرامية تحدد ذلك

---

(1) Ibid P. 54

(٢) محمد حسين آل ياسين مقدمة في أصول اللغة المشتركة بين العربية والعبرية ص ٦ ـ ٧

بأعضاء الجسم وعدد قليل آخر من الأسماء والتي لا تكون مبتدأ في الجملة . وهذه الحالة دفعت بكثير من الباحثين إلى اعتبار تقويم (جيزر) كنعاني وليس أرامي أو عبري حيث يحتوي على أربع حالات مثنى بالألف .

وتستعمل العبرية (الهاء) أداة للتعريف ، والتي كانت تستعمل في بعض اللهجات العربية البائدة ، في أول الكلمة ، أما علامات الجمع في العبرية (يم) الياء والميم للمذكر (والواو والتاء) للمؤنث في حين تستخدم العربية الواو والنون في الدلالة على حالة الرفع والياء والنون في حالتي النصب والجر في آخر الكلمة ، وفي حالة جمع المؤنث الألف والتاء في آخر الكلمة . وجمع التكسير للدلالة على حالتي المذكر والمؤنث معاً .

والعبرية لا تتضمن أحرف (ذ ، غ ، ض ، ظ) ، في حين لا وجود لحرفي P , V في اللغة العربية الحديثة . وأغلب ما يأتي بالعربية بالسين يكون بالعبرية بحرف الشين والعكس بالعكس .

ورسم بعض الخطوط يؤدي أحياناً إلى التشويش والخطأ بين حرف وآخر لتشابه الرسم مثلاً : بين حرف الباء والكاف . حرفي الجيم والنون . والواو والصاد . والحاء والتاء . وهناك أحرف في العبرية لها صيغتان في الكتابة في حالة وقوعها أول ووسط الكلمة أو آخر الكلمة وهذه الأحرف (ك ، م ، ن) .

وتستعمل الأحرف العبرية كعلامات عددية . فالأحرف التسعة الأولى تشير إلى الأعداد من ١ ـ ٩ والتسعة التالية تستعمنل للعشرات من ١٠ ـ ٩٠ والأحرف الأربعة الأخيرة ترمز إلى ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٤٠٠ .

تدين اللغة العبرية من الناحية القواعدية إلى اللغة العربية حيث أول من وضع قواعد اللغة العبرية (سعيد بن يوسف الفيومي) المعروف باسم (سعديا) في القرن العاشر الميلادي والذي تأثر باللغة العربية وعلومها . وكذلك (مناحيم بن سروك) و (يهوذا بن داود) . وفي حوالي القرن الثاني عشر للميلاد أخذ أدباء اليهود يكتبون أشعارهم حسب القواعد والبحور العربية ولكن بأحرف عبرية . وأشهر من كتب بهذه الطريقة (موسى بن ميمون) .

كتب البرفسور (دافيد بالين) أستاذ الأدب العبري الأندلسي في الجامعة العبرية في القدس كتاب « فن الشعر الأندلسي »[1] جاء فيه : « لقد كان العصر الأندلسي عصراً زاهراً في الأدب العبري . بدأ هذا العصر قبل البعث الأوروبي بحوالي خمسة قرون . وقد شمل التقدّم تفسير التوراة ووضع قواعد اللغة العبرية . واتخذ شعراؤنا من الشعر العربي في ذلك العهد نموذجاً ينسجون على منواله . وكان الشعر العربي آنئذ قد بلغ الأوج في الازدهار والإبداع . إن بلاد الأندلس الجميلة التي ازدهرت في جميع الميادين إبان الحكم العربي والتي أسبغت على سكانها ثوباً فضفاضاً من الغنى والرخاء ، قد كانت ذات أثر فعّال في إطراد ازدهار الشعر العربي . إن جمال الطبيعة وازدهار الفنون والتقدّم العلمي في مختلف فروعه في العصر الأموي ، كل هذا وذاك قد كان له ، بالطبع ، تأثيره القوي على اليهود الذين كانوا يعيشون آنذاك في هدوء ونعيم ، في ظل الحكم العربي ، ومنذ بدء القرن العاشر انتقل مركز التوراة من العراق إلى الأندلس ـ فقد نما في هذه البلاد أدب خلاب جديد ذو فروع كثيرة ، واتسع صدر الشعر لأبواب جديدة وصور جديدة ، مما جعل العلماء والأدباء والشعراء اليهود ينسجون على منوال الثقافة العربية التي كانت وقتئذ ينبوع الثقافة والتفكير . إن هذه المحاكاة من قبل العبرية للعربية لم تأت عفواً وعن غير قصد ، بل جاءت العزيمة صادقة منذ البدء ، فقد اعتقد اليهود اعتقاداً راسخاً بأن العرب يفوقون سائر الأمم في مضمار الشعر ، فساروا في تقليدهم » . ويضيف الدكتور (دافيد يالين) على لسان الناقد (العبري) (يهودا الحريزي) قوله : « إن شعبنا ـ بعد الشتات ـ قد قطن مع بني يعرب في أوطانهم ، وألف التحدث بلغتهم والتفكير بتفكيرهم . وحين كان أباؤنا يعيشون في مدينة القدس ما كانوا يعرفون الشعر الموزون في اللغة العبرية . أما أسفار أيوب والأمثال والمزامير فجملها قصيرة وأبياتها سهلة وبسيطة وما أشبهها بالسجع ، وهي بعيدة عن أن تكون نظماً جميلاً موزوناً مقفى .

---

(١) جودت السعد الأدب الصهيوني الحديث بين الإرث والواقع ص ٢١ ـ ٢٣

إذا تفحصنا اللغة العبرية الآن فإننا نجد حوالي ثلث مفرداتها من اللغة العربية الحديثة وثلث آخر جاءها من الأرامية أو اللغة العربية القديمة والثلث الباقي مفردات أوروبية حديثة جاءتها من الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية. وهذه اللغة بوضعها ، قواعداً ومفردات ، تدلل على أنها « لغة » تفاهمية ليس لها عمق حضاري وتراثي . لكن طريقة تشكيل اللغة العبرية كانت تجربة لليهود في تشكيل لغتين في أوروبا استعملت من قبلهم واعتبرتا لغة الفن والأدب وهما :

أولاً : اليديش : وهي لغة استعملها اليهود وسط وشرق أوروبا ثم انتقلت مع المهاجرين من أوروبا إلى الولايات المتحدة . وتعود أصول اليديش إلى العصور الوسطى وأساسها العبرية والألمانية ولكنها تضمنت كلمات من لغات عدة بلدان عاش فيها اليهود مثل : بولندا، روسيا ، بريطانيا ، تركيا ، والأقطار العربية . وقد استعملت الأحرف الهجائية « العبرية » في كتابتها وتكتب من اليمين إلى اليسار .

ثانياً : اللغة اليهودية الإسبانية ، وهي تتضمن عدداً من الكلمات العبرية ، لكها تعتمد بشكل أساسي على الإسبانية القديمة ، كما تكتب من اليمين إلى اليسار .

الفصل التاسع

اليهودية المعاصرون

أصلهم ووجودهم

يرجع كثير من الباحثين ، أن حادثة دمار القدس وقضاء (طيطس) الروماني على الوجود اليهودي عام ٧٠ م أدى إلى تبعثر اليهود وتشرّدهم . . لكن كم يقدّر عدد اليهود آنذاك ؟ وكم تتحمل فلسطين ومساحتها الصغيرة ، وماذا تشكّل مساحة المنطقة (يهوذا أو القدس ـ) وهي التي كانت مسكونة من قبل اليهود ، وما هي نسبة اليهود بالنسبة للجنس البشري على مساحة العالم القديم ذلك الوقت ؟!!

لا شك أن عددهم قليل وفق كل المعايير ، ومع ذلك وعلى قلتهم كان لهم ثقلاً مبعثه الوحدة الفكرية التي بلورها المكابيون ـ إبان الحكم اليوناني ـ والتي كان يفتقدها أكثر المعاصرين لهم . فلما قضى الرومان على وجودهم ، رغم أنهم كانوا تابعين للدولة الرومانية ، انتشروا في البلدان المحيطة ، فمنهم من كانت وجهته الجزيرة العربية كمنطقة « نائية » وراء الصحراء ، ومنهم من ذهب إلى مصر أو العراق . وكان قسم قد سبق أن غادر إلى أوروبا زمن اليونان . كما يقول المؤرخ اليهودي (يوسيفوس) .

كان لا بد أثناء حكم المكابيين ـ الفترة اليونانية ـ أو حكم عائلة هيرود ـ أثناء الفترة الرومانية ـ من ضخ دماء جديدة للديانة اليهودية من مختلف الأمم والأجناس ، إذ بدأ التبشير بالديانة اليهودية في هذه الفترة وحتى العصور الوسطى ، وكان منهم النشطاء المتحمسون الذين أخذوا على عاتقهم نشر الديانة اليهودية . « لقد ظلّت اليهودية زمناً طويلاً فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل من

ينضوي مخلصاً تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى »[1] . فانتشر هذا الدين في مناطق متباعدة : اليمن ، الحبشة ، الخزر ، أواسط أوروبا ، بلا المغرب ، وشعوب مختلفة في الدولة الرومانية . هذا إلى جانب العناصر التي دخلت اليهودية بطريق الزواج . وقد بلغ اعتناق اليهودية ذروته في الامبراطورية الرومانية بين نهاية حكم المكابيين وظهور المسيحية . فقد تهود عدد كبير من العائلات النبيلة في إيطاليا ، وتحدث المؤرخ (فيلو) عن التحول الضخم إلى اليهودية في اليونان . ويكتب المؤرخ اليهودي (ت . ريناك) : « لقد كان الهوس الديني من أبرز سمات اليهودية خلال العصر الإغريقي - الرروماني ، وهي سمة لم تحصل إطلاقاً بنفس الدرجة قبل ذلك . ولا شك أن اليهودية حققت بهذه الطريقة تحولاً كبيراً إليها خلال قرنين أو ثلاثة . ولا يمكن تفسير التزايد السريع لليهود في مصر وقبرص ، دون افتراض امتصاص دماء غير يهودية وافرة»[2] .

لكن أول كتلة كبيرة دخلت اليهودية كانت في اليمن ، زمن الملك الحميري (تبان أسعد أبو كرب) القرن الخامس الميلادي ، وأثناء غزوه مدينة يثرب التقى بحبرين من أحبار اليهود ، فأعجب بما وصفاه له عن دينهما ، فأخذهما معه إلى اليمن بعد أن تهود ودعا قومه إلى الدخول بما دخل فيه . وفي عهد الملك الحميري (ذي نؤاس) أوائل القرن السادس الميلادي حاول إجبار المسيحيين في اليمن على دخول الدين اليهودي . إلاّ أن اليهودية في اليمن اقتصرت على بعض ملوك حمير ، ويبدو أن هؤلاء العرب لم يستسيغوا كثيراً هذه الديانة فكانوا من أوائل من اتبع الديانة العربية الإسلامية . ومع ذلك ظلّت أعداد منهم على الديانة اليهودية .

أما أكبر الكتل البشرية التي دخلت اليهودية فكانت من شعوب الخزر . فكيف تم ذلك ؟ تقع بلاد الخزر جنوب روسيا جوار مصب نهر الفولغا في بحر

(١) ويلز معالم تاريخ الإنسانية ترجمة عبدالعزيز توفيق ص ٢٩٢ - ٢٩٣
(٢) ارثر كوستلر امبراطورية الخزر ترجمة حمدي متولي ص ٢٣٦ - ٢٣٧

قزوين (أو بحر الخزر) . وكان سكانها يؤمنون بإحدى نحل (الشامانيه)[١] : وبين هؤلاء عدد قليل من المسلمين والمسيحيين . ونتيجة وقوع بلادهم بين الامبراطورية الإسلامية والبيزنطية ارتأى ملكهم (الخاقان) اتباع الديانة اليهودية التي اطلع عليها من خلال وجود أعداد من اليهود في بلاد الخزر الذين فروا من الاضطهاد البيزنطي لهم ، حيث بدأ عنفوان هذا الاضطهاد إبان حكم (يوستنيان الأول) ٥٤٧ ـ ٥٦٥ م ، واتخذ أشكالاً بالغة القسوة تحت حكم هرقل في القرن السابع الميلادي ، ونتيجة العداء بين الامبراطوريتين الإسلامية والبيزنطية اتخذ (الخاقان) موقفاً متوازناً و « مقبولاً » من الطرفين باتباعه الديانية اليهودية .

تعرف العرب المسلمون على الخزر وأشاروا إلى تهودهم في المصادر العربية القديمة [٢] ، حيث تم التهود إبان حكم هارون الرشيد ، ويقول ياقوت الحموي في معجمه : الخزر اسم إقليم من قصبة تسمى (اتل) وأتل اسم لنهر (نهر الفولغا حالياً) يجري إلى الخزر من الروس والبلغار ويسمى الملك (يلك) ، وقصر الملك هو البناء الوحيد المبني بالآجر . والملك يدين باليهودية . وبلاد الخزر لا يجلب منها شيء ، وكل ما يرتفع منها هو مجلوب إليها مثل الدقيق والعسل والشمع والخز والأوبار . وأما ملك الخزر فاسمه (الخاقان الكبير) ومساعده يسمى (خاقان به) ، ويخلف خاقان به رجل يقال له (كندر خاقان) ويخلف هذا أيضاً رجل يقال له (جاو يشغر) . والخزر وملكهم كلهم يهود ، وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعة الخاقان .

ويقول ابن فضلان : « بيد الخاقان العقد والحل والعقوبات » [٣] . ويضيف : « ولملك الخزر خمس وعشرون امرأة ، كل امرأة منهن ابنة ملك .

---

(١) الشامانية : دين بدائي كان منتشراً شمال آسيا وأوروبا ويتميز بالاعتقاد بوجود عالم من الآلهة والشياطين وأرواح السلف ، وبأن هذا العالم لا يستجيب إلا للكاهن (الشامان) الذي يستخدم السحر لكشف الغيب والسيطرة على الأحداث

(٢) انظر رسالة ابن فضلان : تحقيق الدكتور سامي الدهان وابن حوقل في « صورة الأرض » الجزء الأول . ومعجم البلدان لياقوت الحموي في باب خزر

(٣) رسالة ابن فضلان تحقيق الدكتور سامي الدهان دمشق ١٩٥٩ ص ١٧٠

وله من الجواري السراري ستون ويشترط فيها أن تكون فائقة الجمال . ومن عادة الملك قتل كل قواده الذين يهربون من المعارك » [1] .

فالخزر شعب انحدر من القوقاز وعاش أفراده على ضفاف الفولغا ويصير نسبهم إلى بدايات الجنس الآري وهم أوثق انتماءً وراثياً إلى قبائل (الهون) و(البوجر) وتؤكد ذلك المراسلات التي تمت بين (حسداي بين شبروط) رئيسالوزراء (اليهودي) لدى خليفة قرطبة وبين (يوسف) ملك الخزر ، وهي التي تعرف تاريخياً باسم « المراسلات الخزرية » حيث تضمنت الرسائل قائمة من الأسئلة عن دولة الخزر وشعبها ونظام حكمها وقواتها المسلحة . كما تتضمن أسئلة عن السبط الذي ينتمي إليه الملك يوسف . ولما كان الملك الخزري غير منحدر من سلالة يهودية فقد أورد في إجابته على رسائل (حسداي) سلسلة أنساب من نوع مغاير . .

تبدأ رواية ملك الخزر بذكر مناقب سلفه الأعلى الملك (بولان) الذي : «طرد من بلاده الوثنيين والمشعوذين » . بعد أن ظهر له ملاك يدعوه إلى الإيمان ووعده أن « الله سيبارك ويثمر نسله وسيوقع أعداءه بين يديه وسيجعل مملكته تدوم أبداً » . ويستتبع ذلك أن يهود الخزر بدورهم يزعمون مقولة « الشعب المختار» الذي عقد مع الله عهده الخاص .

وبينما كان (حسداي) رئيساً لوزراء قرطبة ادعى في رسالة إلى ملك الخزر أن اليهود مضطهدون حيث ذكر : « إنني أشعر بنزوع إلى معرفة الحقيقة ، هل ثمة حقاً مكان فوق هذه الأرض يستطيع (الإسرائيلي) المضطهد أن يحكم فيه نفسه حيث لا يكون خاضعاً لأي إنسان . وأذا قيّض لي أن أعلم أن هذه هي الحقيقة بالفعل فلن أتردد أن أهجر كل مظاهر التكريم حتى أبلغ المكان الذي يحكم فيه مولاي الملك » .

رغم أن إجابات ملك الخزر كانت تنم عن تعصب وهوس ديني لكنه لم

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٢

يجرؤ على الإدعاء أنه يعود بأصله إلى جذور شرقية ، بل ما جاء على لسان الملك نقض لمقولة توراتية هامة تدعي أن « اليهود » من نسل سام بن نوح . حيث يقول ملك الخزر : انه يرجع بنسبه إلى يافث بن نوح وليس إلى سام ـ كما تقول التوراة ـ أو بمزيد من التحديد إلى (توجرمه) حفيد يافث ، فقد جاء في إحدى الرسائل وبأسلوب ، استعلائي قوله : « لقد وجدنا في السجلات العائلية لابائنا أن توجرمه كان له عشرة أبناء وأن أسماء ذريته كما يلي : يوجار ، دورسو ، آفار ، هون ، باسيلي ، تارنياخ ، خزر ، زاجورا ، بلغار ، سابر ، ونحن أبناء خزر» .

أدى دخول الخزر إلى الديانة اليهودية تشكيل صلب الوجود الديمغرافي لليهود المعاصرين ، فالبرفسور (أ . ن ، زدياك) أستاذ التاريخ اليهودي في جامعة تل أبيب أصدر كتاباً باللغة العبرية عام ١٩٤٤ يحمل عنوان « خزاريا » وأعيد طبعه عام ١٩٥١ حيث يقول في مقدمته : « إن الحقائق تتطلب منهجاً جديداً لتناول مسألة العلاقات بين يهود الخزر وغيرهم من الجماعات اليهودية ، ومسأله المدى الذي يمكن أن نصل إليه في اعتبارنا أن يهود الخزر يمثلون نواة التجمع اليهودي الكبير في أوروبا الشرقية أن أبناء هذا التجمع سواء الذين بقوا حيث هم أو الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة وغيرها من الأقطار أو الذين ذهبوا إلى (إسرائيل) يمثلون الآن الغالبية العظمى من يهود العالم »(١) .

عندما توج (شارلمان) امبراطوراً على الغرب ، كانت المناطق الشرقية من أوروبا ، فيما بين القوقاز والقولي ، خاضعة لحكم دولة يهودية معروفة باسم «امبراطورية الخزر » وقد لعبت في عنفوان قوتها من القرن السابع حتى القرن الثامن الميلادي دوراً فعالاً في تشكيل أقدار أوروبا الحديثة . وقد فقد يهود الخزر امبراطوريتهم بعد هزيمتهم أمام الروس عام ٩٦٥ م لكنهم احتفظوا باسقلالهم داخل حدود أضيق من ذي قبل ، كما احتفظوا بعقيدتهم اليهودية طوال القرن الثالث عشر الميلادي عندما سقطت نتيجة الغزو المغولي الضخم

(١) آرثر كوستلر امبراطورية الخزر ترجمة حمدي متولي ص ٢٢

الذي قاده (جنكيز خان) . فارتحل اليهود ومدوا فروعهم إلى البلاد السلافية التي لم تقهر وشيدوا مراكز يهودية كبيرة في أوروبا الشرقية .

فإذا كان الغزو المغولي سبباً في انتهاء امبراطورية الخزر وتشتت اليهود ، إلاّ أن الهجرات إلى المواطن الآمنة كانت متتابعة ومتلاحقة على مر الزمن استمرت قروناً عديدة ، أي أن الرحيل هذا كان مسبوقاً بتأسيس المستعمرات والمستوطنات في أماكن كثيرة من أوكرانيا وروسيا الجنوبية ، فعلى سبيل المثال كان في منطقة (كييف) تجمع يهودي واسع قبل استيلاء الروس عليها .

واعتماداً على ما جاء في مادة إحصائيات في الموسوعة اليهودية فإن جملة عدد اليهود في العالم في القرن السادس عشر الميلادي تقارب المليون نسمة ، ويبدو أن هذه إشارة إلى أن أغلب من اعتنق اليهودية في العصور الوسطى كانوا من الخزر ، وقد هاجر جزء كبير من اليهود الخزر إلى بولندا ، ليتوانيا وهنغاريا والبلقان ، حيث أسسو المجتمعات اليهودية والتي أصبحت تمثّل الأغلبية الساحقة ليهود العالم .

الجنس والقومية واليهودية

معروف أن اليهودية ـ كدين ـ تضم أجناساً متعددة تجمعهم جملة تعاليم وأفكار تبلورت عبر مسيرة هذا الدين ، فهناك من اعتنق اليهودية من القبائل العربية والرومانية واليونانية والفارسية والخزرية والإفريقية . . ومثل هذه الأجناس انضوت تحت لواء الديانتين ، المسيحية والإسلامية : وكل فئة ـ داخل الدين الواحد ـ تختلف عن الأخرى بالأصول العرقية والتراثية والتاريخية .

لذا لم نجد من العلماء الذين يعتد برأيهم من يقول بوجود جنس أو عرق إسلامي واحد أو أمة إسلامية واحدة ولا وجود لأمة مسيحية واحدة ، والأمر ينطبق على اليهودية كذلك . فالمؤرخ (رينان) يقول عن نقاء اليهود في مؤلفه «اليهودية كجنس ودين » : « لا يجوز حتى الحديث عن هذا ، فقد تعرّض اليهود

للتمازج مع الشعوب الأخرى بنفس القدر الذي تعرّضت له الأجناس الأخرى».

وقد أثبت علم السلالات منذ وقت طويل أن اليهود لا يمثلون عنصراً مستقلاً ، وجاء في إعلان الأجناس والتباينات العرقية ، الذي أقرّته مجموعة من علماء السلالات البارزين عام ١٩٥١ أن المسلمين واليهود لا يمثلون أجناساً شأنهم في ذلك شأن الكاثوليك والبروتستانت . ويشير (يوجين ميتار) في كتابه « الجنس والتاريخ » ص ٣٣٧ أن اليهودية « قد دخلها عناصر من أجناس متباينة ومن كل السلالات البشرية » .

رغم إصرار الصهيونية على ادعائها « بنقاء العرق اليهودي » إلاّ أن كثيراً من مفكري الصهيونية يدركون واقعياً عبث وخطأ مثل هذا الطرح . فالمفكر اليهودي (يوسف حاييم برنر) يقول : « كل ما نعرفه عن حياتنا يشير إلى أن الجماهير اليهودية ليس لها السمة الاجتماعية بالمعنى السوسيولوجي ، ونحن لسنا شعباً مترابط الأجزاء[1] »

بدأ يغزو الكتابات الصهيونية مفهوم « القومية » منذ القرن الثامن عشر الميلادي كرد على شيوع المفهوم القومي الأوروبي الذي عرف باسم « الوعي القومي» . ولـمّا كان معظم سكان أوروبا يدينون بالمسيحية ، ولأن اليهود يعتبرون المسيحية عدوتهم التقليدية وضعوا أنفسهم في الجبهة المقابلة للمسيحية . . أي ما دام المسيحيون لهم وجود قومي ـ متعدد ـ فاليهود بالمقابل لهم قومية ويشكلون «أمة» . ويفسر الكاتب الصهيوني (بريتس سمولنسكين) فهمه للأمة حيث يقول : « نحن شعب تربطه وحدة الروح والنفس (!!) ويجمعه الحب ، كما لم يجمع شعباً آخر . على أننا لا نشكّل أمة بالمعنى الذي تتشكّل به الأمم الأخرى ، كنا دائماً أمة روحية ، وكانت التوراة أساس تجمعنا ، لذا استمرت ديمومتنا حتى يومنا هذا ، شعباً روحياً ، الروح تجمع هذا الشعب وإن اختلف المسمى واختلفت الوسيلة»[2] .

---

(١) ابراهام ارتسبورغ الفكرة الصهيونية (عبري) ص ٢٣٦

(٢) المصدر السابق

ومع أن (سمولنسكين) لم يفسّر ماهية النفس والروح التي قصدها بدقة ، لكن يفهم من سياق الحديث أنها الدين اليهودي . ولكن عملياً فقد قصد معنى «اليهودي » مجرداً بدليل عدم تمييزه بين المتدين والملحد اليهودي حين قال : «إن سر قوتنا كامن بتفهم وحدة الشعب الناتجة عن مشاعر الأخوة التي تدفع كل يهودي كي يعلن انتماءه ، إنني ابن هذا الشعب . . حتى أولئك الذين تكون نوازعهم الدينية ضعيفة فسيظل لديهم بعض الشيء من تراث إسرائيل ، ومهما كانت خطيئتهم فإنها موجهة إلى الإله الأب وليست إلى الشعب . وإذا كان الشعور القومي هو أساس وجودنا فليس هناك أي داع للاختلاف على عادات سخيفة ، وبالتالي لن يجرؤ المتزمتون على نبذ المتحررين من الدين . وموقف اليهودي السلبي تجاه الدين لن يكون ذا تأثير طالما أن اليهودي لا يقف معادياً للشعب ، هذا هو الهدف الذي نسعى إلى تحقيقه وهو النتيجة المنطقية باعتبارنا شعباً واحداً ، فما العمل إذا تراخى الوازع الديني وكيف نقرب قلوب اليهود غير المتدينيين في قرارة أنفسهم ، أن صلتهم مع إسرائيل قد انعطفت وأصبحوا خارج مجتمع لا يربطه أي رابط غير الدين . وهكذا نرى يوماً إثر يوم إذا لم نتمسك بالقيم الدينية يكون الجيل الجديد قد اقترب جداً من الضياع ، وبعد مجيء جيل آخر أو جيلين سينتهي اسم إسرائيل وذكراه من العالم إلى ضياع دائم»(١) .

ويؤكد هذا الطرح (موشيه ليب ليلينبلوم) حيث يقول : « نعم كلنا أخوة ، بذلك نحذر المتدينين ، فكلنا مقدّسون ، كلنا ، الشكاك والورعون ، ساهمنا في تطهير الإسم »(٢) .

يدرك معظم اليهود مدى عمق المغالطة في الإدعاء « بنقاء العرق اليهودي» ، ومع ذلك فكل اليهود تقريباً يلحون عليه كحالة مسلم بها حفاظاً على التعصب التوراتي والهوس الديني . ومن هنا كانت المنطلقات النظرية والعملية

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٦

(٢) ابراهام ارتسبورغ الفكرة الصهيونية (عبري) ص ١٠٥-١٠٦

والتنظيمية للحركة الصهيونية في إيجاد الروابط الأكثر قدرة على التفاعل أو المشاركة الوجدانية بين اليهود فكانت هناك ثلاث ركائز :

أولاً : ترسيخ الشتات اليهودي وتعميقه سيكولوجياً وتلميع إطاره التجريدي - أي الدين اليهودي - والتعامل معه كإسم وليس بالضرورة كمفاهيم وأنظمة ومناسك . وبناء على هذا الفهم كان (هيرتزل) زعيم الحركة الصهيونية لا يعرف من الديانة اليهودية غير الأعياد ولا يعرف من العبرية حرفاً واحداً ، كما قال ، الكاتب الصهيوني (احاد هاعام) في صحيفة (دي فولت) الألمانية .

ثانياً : التأكيد على التحدّث بلغة واحدة . ولم يكن وارداً في حينه أن تكون هذه اللغة هي العبرية المنبوذة أو اليديشية - غير المستحبة - ولكن قد تكون الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية . وهذا ما يفسر استعمال اللغة الألمانية في المؤتمرات الصهيونية التي تلت مؤتمر بازل عام ١٨٩٧ .

ثالثاً : الاصطفاء غير الطبيعي ، بإثارة عداء الآخرين لليهود وتهيئة الأجواء لمذابح يذهب ضحيتها عدد من اليهود غير الموالين أو الفقراء لضمان التفاف بقية اليهود حول الصهيونية وأهدافها السياسية (١) .

رهان اليهود على الدين كوسيلة وحيدة لجمع الشتات اليهودي كان ساقطاً من الحسابات إلاّ حساب الشكلية والمظهرية دون ترسيخ وتجذير الإيمان المطلوب . فالمفكران (موسى هس) و (آحاد هاعام) وهما منظران صهيونيان فكريان حتى قبل ولادة الحركة الصهيونية السياسية قالا : إن تجميع اليهود من أطراف الأرض شيء مستحيل . بل إن التشكيك بهذا العمل أخذ منحى الإتهام ، حيث اتهم القيّمون على العمل الصهيوني بالانحراف عن جادة الإيمان : « فكثير من أغنياء اليهود اتهموا العمل بالفوقية والاتهام موجه أصلاً إلى هيرتزل . ومع

(١) يوري ايفانوف احذروا الصهيونية

ذلك قدموا له المساعدات ، صحيح أن موقفهم لم يكن انحيازاً إلى الشعب لكنهم لم يرغبوا بالبقاء على هامش الفكرة الصهيونية ، واعتبروا المعارضة الشديدة والعلنية خطأ ، فأعطوا إشارة بدء المعركة (للقادة الروحيين) والربانيين المحتقرين في أوروبا ، فحكموا على الصهيونية وهيرتزل بالخروج عن اليهودية والتوراة » (١) .

وكان (آحاد هاعام) أكثر وضوحاً في إبراز حقيقة التراخي الديني فهو يقول : « إن معظم رجالنا العظام ـ الذين يؤهلهم علمهم ومركزهم الاجتماعي لقيادة الدولة اليهودية ـ بعيدون جداً عن اليهودية روحياً ، وليس لديهم المفهوم الصحيح عن طبيعتها وقيمها ، ومهما بلغ إخلاصهم لدولتهم ومصالحها ، فإن مقياس هذه المصالح سيكون وفقاً للحضارات الأجنبية المقتبسة التي يسعون لتثبيتها في الدولة اليهودية » .

ففكرة « الأمة » اليهودية تتناقض مع المفهوم العلمي للأمة ، كما تقول البرفسوره (ميلينا مود رجنسكايا) (٢) : فكما هو معروف فإن الأمة هي شكل ثابت لتشكيلة من الناس تآلفت تاريخياً ، وتتميز الأمة في المقام الأول بوحدة الظروف المادية للحياة ، فالإقليم ووحدة اللغة والسمات المعينة للطابع القومي، وهي التي تتجلى في الخاصية القومية لثقافتها . فأين موقع اليهودية منها ؟! فالشتات هي السمة الرئيسية التي تميز اليهود وليس هناك ثقافة واضحة ـ حتى الآن ـ رغم وجود الكيان الصهيوني ، فثلاثة أرباع اليهود ـ وبعد مرور حوالي أربعين عاماً على وجود الكيان الصهيوني ـ ما زالوا موزعين على مساحة الكرة الأرضية ، ومعها يستحيل وجود وحدة ثقافية أو اقتصادية أو سياسية علاوة على الجغرافية ـ ومع ذلك لا يعدم « المفكرون » اليهود التبريرات وإن بعدت عن المنطق والعلم . فهذا (يجيئال مايكل بينس) يحاول سبر الهوة الواقعية

---

(٢) اسحق جريتفيم الحركة الصهيونية (عبري) الجزء الثاني ص ١٦

(١) ميلينا مود رجنساكايا الصهيونية العنصرية منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت

المتضمنة فقدان الأسس التي تشكل مجموعها الأمة . « فالأمة » عند هذا الكاتب الصهيوني لها سمات خاصة أوضحها بتساؤل وجواب : « بماذا يتميز الشعب اليهودي عن بقية الأمم ؟ للسؤال هذا جواب واحد ، إن الشعب اليهودي لم يولد ولادة طبعية (!!!) فولادته منذ البدء لم تكن طبيعية ، أي لم تكن مشاركة وتفاعلاً ، بين عامل الجنس والأرض ، بل بتفاعل التوراة والميثاق الديني ، وكما لم يولد ولادة طبيعية كذلك لم يكن نموه وتطوره عادياً ، بل ظل مرتبطاً بتمسكه بالتوراة والدين »[1]

ظلّت التوراة و « اليهودية » الإطارين الوحيدين اللذين يجمعان اليهود بشكل أساسي تساعدهما سلسلة عوامل ثانوية « كالمجازر » سواء كانت حقيقة مبالغاً فيها ، أو مختلقه من أساسها أو أنها بفعل الصهيونية ذاتها . فاليهودي مهما ابتعد عن اليهودية سيظل في إطارها ـ بالتربية ـ فالتوراة هي الأساس الذي رباه آباؤه عليها . ولما بدأت المفاهيم القومية تعم وتنتشر في أوروبا وترسخ الوعي القومي والنظرة القومية الإنسانية ، اختلطت الأمور على منظري الصهيونية وفلاسفتها إلى درجة غيبوا ـ بالوعي واللاوعي ـ المفاهيم العلمية للقومية بطرح عنصري ، استولد تالياً النازية والفاشية . فمن المعروف أن الفيلسوف الألماني (فردريك نيتشه) كان معجباً بالتوراة وأطروحاتها . . (نيتشه) هذا هو الأب الروحي للنازية . . وهو أيضاً الأب الروحي (لآحاد هاعام) ، فالترابط جدلي بين النازية والصهيونية . لذا ظل اليهود مواطنون في الدول التي ولدوا فيها ويعترفون بذلك ، ومع ذلك مطلوب منهم انعزالهم ، إذن هناك فجوة أخلاقية في أخذ الحقوق وحبس الواجبات .

كان « الجيتو » البديل « القومي » المفقود عند اليهود ، مقابل الوعي القومي الأوروبي أي مزيداً من الانغلاق يواكب الانفتاح الأوروبي . فأسوار (الجيتو) المادية والسيكولوجية تزداد ارتفاعاً كلما زادت الممارسات اليهودية (الشيلوكيه) التي جوهرها الجشع والربا والطمع والاستغلال ، وما قد تفرزه

(١) ابراهام ارتسبورغ الفكرة الصهيونية (عبري) ص ٣١٦-٣١٧

هذه السلوكية من أحداث عنيفة ، تخدم الفكر والتوجهات الصهيونية ، بزيادة الانعزال وبالتالي زيادة الالتصاق بالإطار الديني اليهودي . ونظراً لاتسام العلاقات بين الشعوب والدول منذ القدم وحتى ما بعد العصر الوسيط بالطابع الديني ، أو بمعنى أدق ، نظراً لأهمية العامل الديني في التأثير على العلاقات بين الناس فقد أدى ذلك إلى نوع من الحساسية بين الديانات ، والعداء في كثير من الأحيان ، وتآلفٌ عميق بين أتباع الديانة الواحدة كلما كانت الظروف الخارجية أكثر ضغطاً ، الأمر الذي حال دون تلاشي الديانات ذات الأفكار المتعصّبة رغم قلة اتباعها . فأمام زحف الديانات لم يكن أمام اليهود سوى التقوقع والانطواء والتعلّق بمفاهيمهم الميتافيزيقيه والتي تجسّدت بفكرة «المسيح» المنتظر التي شكّلت عصب الفكر اليهودي « لانقاذهم » من أوضاعهم، فكانت فكرة « المسيح » هي الإطار الوهمي الذي جعلهم يرفضون فكرة الاندماج انتظاراً لعودته والتي تفترض شروطاً أهمها :

أولاً : التمسك بحرفية التوراة

ثانياً : الإيمان بنقاء اليهود أو السعي إلى تنقية الدماء بالعزوف عن الزواج المختلط

ثالثاً : بناء الدولة اليهودية المشروطة بتوفر الأجواء لقدوم المسيح ، والتي يراها البعض غير جائزة إلاّ بقدومه .

إذا رد الآخرون على الأفكار العنصرية اليهودية وعلى رفضهم للحقوق والمساواة واحتجوا على السلوكية اليهودية التي تهدد لقمة عيشهم بدأ اليهود يصرخون أنها « اللاسامية » . . بل ويزعمون أن « اللاسامية » حالة متأصلة لدى الأوروبيين . فبهذا الاتجاه يقول الكاتب الصهيوني (اسحق جرينفيم) : «هاجم بنسكر دون رحمة أوهام أبناء جيله بأن اللاسامية وجهة نظر مؤقتة . . فالعداء لليهود مرض نفسي مصدره كره اليهود والخوف منهم . . لقد ظل اليهود غرباء وسط شعوب أوروبا الذين لم يستطيعوا تحمل التشكيلة المتجانسة هذه والمتناقضة معهم في كل شيء . . أليسوا يرتعدون من الشعب الذي واصل

حياته رغم نأيه عن الوثنية وهو السبب في اتهامه والإشتباه به . أليس خطأ فادحاً غفران ذنوب الآخرين . والمساواة التي أعطوها لليهود لم تكن إلاّ نتاجاً لمنطق مغالط لكي لا يوحدوا مشاعرهم اللاواعية فيظلوا عالة تحت رحمة الكراهية»(١) .

التناقضات الاجتماعية والسلوكية بين اليهود وغيرهم سميت « المسألة اليهودية » وهي ليست إشكالية يصعب حلها بل إن الموضوع يتلاشى تلقائياً إذا اعتبر اليهود أنفسهم مواطنين في الدول التي أعطتهم الحقوق والمساواة . فالقوانين في أوروبا الشرقية والغربية وفي كثير من دول العالم تعتبرهم مواطنين كاملي الحقوق . إلاّ أنهم يرفضون المنطق العقلاني ويصرون على أنهم قومية وليسوا أتباع دين من قوميات متعددة . فالحاخام اليهودي (يهودا ليب ماغنس)ـ حاخام سان فرانسيسكو ـ يقول : كل مكان يوجد فيه يهود ، فثمة مسألة يهودية .

فاليهود رفضوا بالإجماع ـ تقريباً ـ فكرة الحقوق المدنية ، ونظروا إلى مثل هذه الإجراءات على أنها تمثّل بداية فنائهم « كشعب مختار » وظلوا متمسكين بواقعهم الانعزالي المنغلق في الجيتو والأحياء اليهودية الأخرى . فعندما أعلنت الثورة الفرنسية قانون الحقوق رفضه اليهود . وقد جاء في كتاب « الحركة الصهيونية » باللغة العبرية : سارعت الثورة الفرنسية ، في سباقها مع الأحداث ، بإصدار قرار يعتبر اليهود مواطنين فرنسيين ، والقرار ذات الأهمية قُبل بعد إلحاح الجمعية التأسيسية والجمهور الفرنسي . وبعد عدة سنوات عادت الجمعية التأسيسية إلى التأكيد على القرار بوضوح حيث اعتبرت اليهود أبناء الشعب الفرنسي ولهم كل الحقوق . وهذه القرارات أسفرت عن تساؤل : من هم اليهود أديانة أم أمه ؟ وأخيراً تبلورت فكرة أنهم أصحاب ديانة . لكن ظل يعتلج في العقلية اليهودية أمر بارز مفاده : من ملك وطناً يشكل أمة . ويضيف (اسحق جرنيفيم) في الكتاب المذكور آنفاً : « لقد تولدت الرجعة الميمونة

---

(١) اسحق جرينفيم الحركة الصهيونية (عبري) الجزء الأول ص ٣٦

وسط الشعوب الأوروبية التي دفعت اليهود نحو العالم فارتقى إلى الغنى والمعرفة ، مما أثار عند الآخرين الشعور بالغيرة والمنافسة . وبالتالي إثارة الخوف عند اليهود ، سواء كان خوفاً حقيقياً أو وهمياً ، لكنه سيطر على يهود العالم . والاندماج أثار صيغة القهر الماضي بكل مآسيه . وهكذا تولدت اللاسامية بصورتها الجديدة فكانت التربة التي أحتضنت بذرة التحرر ومن ثم ولدت الفكرة الصهيونية » .

تدل محاضر المؤتمرات الصهيونية التي بدأت عام ١٨٩٧ وما بعده ، على ضعف الحركة الصهيونية كفكرة ذات نهج أيديولوجي واضح وطريق سياسي محدد. فالحركة الصهيونية لم تكن أكثر من إطار سياسي فضفاض لمجموعة تنظيمات أيديولوجية متناقضة وشخصيات ذات نفوذ ، مع غياب الوضوح في رؤية الهدف وتحديده بالضبط . وقادة الحركة الصهيونية لم يحددوا ما يريدونه ، كون المطالب لم تكن قد تحددت على الصعيد النظري . ولنا مثال واضح في مسيرة هيرتزل الذي وافق على عدة أماكن من العالم لتجميع اليهود والسكن فيها، والأقل حماساً عنده كانت فلسطين . ونتيجة للمواقف المتذبذة والانقسامات الداخلية « فقد أصاب الحركة الضعف والوهن وبذلك فقدت القدرة على العطاء والجدية ، كما أنها تبنت خططاً غير عملية فكانت اهتماماتها يعتورها التردد »(١) .

لم يكن بالإمكان تنفيذ الاستيطان في فلسطين اعتماداً على قدرات اليهود والحركة الصهيونية الذاتية ، فلولا عدة عوامل خارجية ، استغلها اليهود لما كان هناك استيطان وهذه العوامل :

أولاً : الوضع المتردي والمفكك للأمة العربية والضعف والجهل والفقر كنتائج لازمة لوجود الاستعمار العثماني ، وأهمها عدم الوعي بالخطر الدافق من أوروبا بصيغة مهاجرين جاءوا بحجة الدفن في

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣

الأرض المقدسة .

ثانياً : كان حال الامبراطورية العثمانية تلك الفترة في موقف لا تستطيع الدفاع حتى عن مصالحها وهي الفترة التي أطلق عليها الغرب اسم «الرجل المريض »(١) .

ثالثاً : أخذ التنافس يترسخ لدى الدول الصناعية فكانت « المسألة اليهودية» حصان طرواده لكل الاتجاهات فرنسا ، المانيا ، بريطانيا، روسيا ، إيطاليا . . وغيرها .

تساؤل لا بد منه

أمام اللاوضع واللاخيار واللاوعي الفلسطيني والعربي . . قامت « دولة اليهود » وأعلنت رسمياً في ١٤ أيار ١٩٤٨ واعترفت بها دول العالم . بل إن بعضاً ـ أو كثرة ـ من العرب بدأوا التعامل مع هذه (الدولة) كحالة واقعة أو كحالة لا بد من التعامل معها حسبما يرى آخرون . .

لكن هذه (الدولة) بقدراتها الذاتية لا يمكن أن تصمد إلى الأبد في بحر العداء الذي أداته الحرب بحكم الإمكانات المحدودة لهذه (الدولة) وخاصة ديمغرافياً واقتصادياً ووضعاً جغرافياً ، فإذا قبل بعض العرب الاعتراف بالكيان الصهيوني (كدولة) فهل تصمد هذه أمام بحر العداء التاريخي ؟؟ المستقبل والأمة والأجيال والتاريخ شواهد !!

---

(١) جرت اتصالات بين تركيا وعدد من زعماء الحركة الصهيونية وعلى رأسهم (هيرتزل) لتوطين اليهود في فلسطين وقد وافق السلطان على ذلك لقاء قرض مالي تقدمه بعض الأوساط لتركيا . ويمكن الرجوع إلى كتاب « الحركة الصهيونية » تأليف (اسحق جرينفيم) للاستزاده . والذي قمت بترجمته إلى العبرية وصدر عن دار الجاحظ للنشر والتوزيع في عمان (الأردن)

المراجع والمصادر

المصادر باللغة العربية

١ـ نوركيد جاكوبسون ـ جون ولسون / ماقبل الفلسفة / ترجمة جبرا ابراهيم جبرا

٢ـ الكتاب المقدّس ـ العهد القديم والجديد ـ الصادر عن دار الكتاب المقدس في العالم العربي

٣ـ طه باقر / مقدمة في تاريخ الحضارات / الجزء الأول

٤ـ طه باقر / مقدمة في تاريخ الحضارات / الجزء الثاني

٥ـ فيليب حتي / تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين / ترجمة جورج حداد

٦ـ جان بوتيرو الديانة عند البابليين ترجمة وليد الجادر

٧ـ صموئيل كريمر / من الواح سومر / ترجمة طه باقر

٨ـ جيمس هنري بريستد / تطور الفكر والدين في مصر القديمة / ترجمة زكي سوس

٩ـ سيجموند فرويد / موسى والتوحيد/ ترجمة عبد المنعم الحفني

١٠ـ فاضل عبدالواحد / الطوفان

١١ـ طه باقر / مجلة سومر ١٩٤٥

١٢ـ علي عبدالواحد وافي / علم اللغة

١٣ـ محمد حسين آل ياسين / مقدمة في أصل اللغة العربية والعبرية

١٤ـ جودت السعد / الأدب الصهيوني الحديث بين الأرث والواقع

١٥ـ ويلر / معالم تاريخ الإنسانية / ترجمة عبدالعزيز توفيق

١٦ـ ارثر كوستلر / امبراطورية الخزر / ترجمة حمدي متولي
١٧ـ يوري ايفانوف / احذروا الصهيونية / وكالة نوفستي السوفيتية
١٨ـ ميلينا ودرجنسكايا / الصهيونية العنصرية / منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر
١٩ـ رسالة ابن فضلان / تحقيق الدكتور سامي الدهمان
٢٠ـ ابن حوقل / صورة الأرض / الجزء الأول
٢١ـ ياقوت الحموي / معجم البلدان
٢٢ـ اسرائيل ولفنسون / تاريخ اللغات السامية

المصادر العبرية

23- M.D. Cqssuto , The Doucmentary hypothesis And The Composition Of The Pentateuch

٢٤ـ بنيامين مزر بيت شعاريم

٢٥ـ صحيفة حدشوت ١/ ٨/ ١٩٨٩

26- W.S. Mc Cullough , Jewish And Mandaen

27- Israel Levi , Semitic Study Series 1969

28- Richard J.H. Gotheil , Jewish Quarterly Revieo Vol 2

٢٩ـ موشيه ديفيد قسوطو الآلهة عنات ١٩٥٨

٣٠ـ ابراهام بن يعقوب الطوائف اليهودية في كردستان ١٩٦١

٣١ـ ابراهام ارتسبورغ الفكرة الصهيونية

٣٢ـ اسحق جرينفيم الحركة الصهيونية الجزء الأول

33- Jastrow Moris , Hebrew And Bablylonian Traditions

34- W.F. Albrigh , Archaelogy And The Religieon Of Israel

35- G.H. Davies , P.E.Q July - Dec 1956

36- Raphael Giveon , P.E.Q July - Dec 1961

37- Joseph Offord , P.E.Q January 1919

38- William F. Bade , University Of California Cronical Vol 13 No 1

39- Richard Eliott Friedman , Near East Studies Vol 23

40- O. Eissfeldt , The Cambridge Ancient History Vol 23

41- G.A. Frank Knight , Nile And Jordan

42- Merill F. Unger , Archaeology And The Old Testment 1954

43- Anderé Parrot , Syria Vol 18

44- Sumer Vol 3

45- G.H. Kraeling , Aram And Israel 1918

46- Scott C. Layton , Biblical Archaeologist Vol 51 Number 3 1988

47- J.G. Duncan , Diggin Up Bibical History Vol 1 1931

49- H.G. May , Culture And Concience 1936

49- Sh. Yeivin , A Decade Of Archaeology In Israel 1948 - 1958

50- Alan Rowe , P.E.Q July - Dec 1962

51- Werner keller , The Bible As History

52- J.H. Dreasted , Biblical World 1897

53- R.A.S. Macalister , Acentury Of Excavation In Palestine 1925

54- G. Ernest Wright , B.A.S.O.R Number 86 April 1942

55- A.B. Rowten , P.E.Q january - April 1953

56- Edward F. Campell , The Biblical Archaeologist Vol 23 No 1

57- W.M Flinders Pertie , History Of Egypt

58- Claude Reignier Conder , The First Bible 1902

59- A.T Oimstead , History Of Palestine And Syria

60- Emil G. Kraeling , B.A.S.O.R Number 77 February 1940

61- Michael W. Several , P.E.Q July - Dec 1972

63- Olya Tufnelland Others , LACGESH Vol 2

64- Michael Av - Yonah , Encyclopedia Of Archaeological Excavatin In The Holy Land Vol 1

65- W.F. Albright , B.A.S.O.R Number 125 1952

66- W.F. Albright , B.A.S.O.R Number 53 1943

67- A. Malamat , Biblical Archaeologist Vol 21 Number 4 1958

68- Herbert G. May , Bible Atlas

69- Jacob Neusner , A History Of The Jews In Babylonia 1970

70- , Iraq Vol 17 1955

71- Hayim Tadmor , Biblical Archaeologist Vol 29 Number 3 1966

72- Danial D. Luckenbill , Ancient Records Of Assyria And Bablyonia Vol 2

73- Fred V. Winnett , The Annual Of The Anerican School Of Oriental Research Vols 36 - 37

74- Max Miller , P.E.Q. january - June 1974

75- J. Silver , P.E.Q January - June 1967

76- Palestine Exploration Society No 1 July 1871

77- N.R. Ganor , P.E.Q Juy - Dec 1967

78- Eleazer L. Sukenik , The Ancient Synagogue Of Beth - Alpha

79- Marie Louise Buhl , Shloh 1969

80- W.F. Albright , B.A.S.O.R. Number 23

81- W.F. Albright , B.A.S.O.R. Number 58

82- , Jerusalem Post 25 - 2 - 1990

83- , Treasures Of The Holy land 1986

84- Yigael Yadin , Masada

85- Edmund Wilson , The Dead Sea Scrolls 1969

86- William Hugh Bronlee , B.A.S.O.R. 1951

87- Karl Georg Kuhn , Universities Vol 1 1957

88- Charles D. Isbell , Biblical Archaeologist Vol 41 No 1 1978

89- J.A. Sanders , The Dead Sea Psalms Scroll 1965

90- , Jerusalem Post 26-2-1990

91- , Jerusalem Post 2-3-1990

92- Joseph Naveh , The Development Of The Aramiaic Script 1970

93- Lady Magnus , Outline of jewish History From B.C 586 - CE 1885

94- J. Pritchard , Archaeology And The Old Testament 1958

95- Toddy Kollek and Moshe Pearlman , Jerusalem 1968

96- Ernest. Z. Barnes, The Rise of Christianity 1948

97- Abba Hillel Silver , Mosses And The Original Torah

98- O. Elissfeldt , Palestine In Time Of The Nineteenth Dynaty Vol 2

100- W.F. Albrigh , B.A.S.O.R Number 71 1938

101- R.A. Oden , Biblical Archaeologist Vol 39 No 1 1967

102- Ulf Oldenburg , The Canfict Between El And Baál In Canáanit Religion 1969

103- Givanni Pettinato , Biblical Archaeologist Vol 39 No 2 1976

104- John Mckay , Religion In Judah Under The Assyrians 1973

105 -Joseph Offord , P.E.Q 1915

106- Joseph Offord , P.E.Q 1916

107 -Joseph Offord , P.E.Q 1917

108- Joseph Offord , P.E.Q 1967

109- Tikva Frymer - Kensky , Biblical Archaeologist Vol 40 No 4 1977

110- Daniel David Luchenbil , Annals Of Sennacharib

111- John P. Peters , Journal Of The American Oriental Society Vol 22 1901

112- Alan Gardiner , Journal Of The Egyptian Archaeology Vol 111 1916

113- W.F. Albright , B.A.S.O.R Number 115

114- A.C. Moorhouse , Writing And Alphabet

115- W.F. Albright , B.A.S.O.R Number 46

116- David Diringer , The Alphabet

117- W.R. Taylor , B.A.S.O.R Number 41

118- W.F. Albright , B.A.S.O.R Number 61

119- W.F. Albright , B.A.S.OR Number 70

120- Nahman Avigad , Biblical Arcaeologist Vol 42 1979

121- Hermann L. Strack , Hebrica Vol 2 Number 1 Octo. 1885 - July 1886

122- Joseph Naveh , Arechaeology Vol 15 Number 1 1962

123- David Diringer , Writhing Vol 25 1962

124- Enno Littmann , Greek And Latin Inscription

125- Bezalel Porten , Biblica Archaeologist Vol 42 1970

126- H.L. Glnsberg , B.A.S.O.R Number 111

127- W.F. Abright , B.A.S.O.R Number 44

128. G.R.D. Driver , Hebrew Language , Ency , Brit 1965 Vol 11

129- Saul Levin , The Indo - European And Semitic Languages .

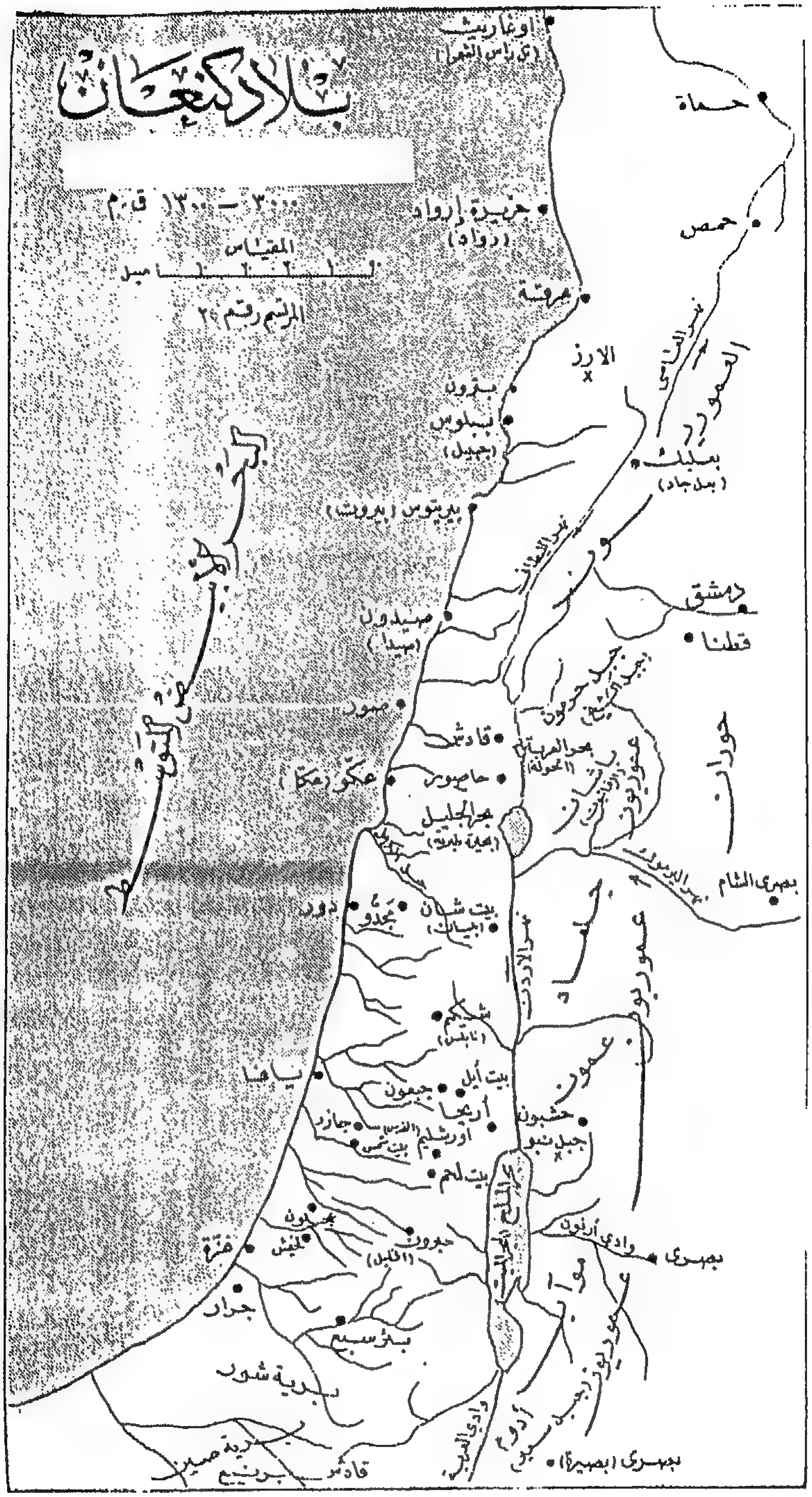
بلاد كنعان
٣٠٠٠ – ١٣٠٠ ق.م
المقياس
ميل
أوغاريت
حماة
جزيرة إرواد
حمص
الارز
بعلبك
بيبلوس
بيريتوس (بيروت)
دمشق
صيدون (صيدا)
قطنا
صور
قادش
حاصور
عكو (عكا)
بحر الجليل
دور
مجدو
بيت شان
شكيم
يافا
بيت أيل
جبعون
أريحا
حشبون
أورشليم
بيت لحم
حبرون
غزة
جرار
بئر سبع
برية شور
برية صين
قادش برنيع
بصرى
وادي أرنون
بحر الأردن
عمون
حوران
أدوم

خارطة رقم (١)

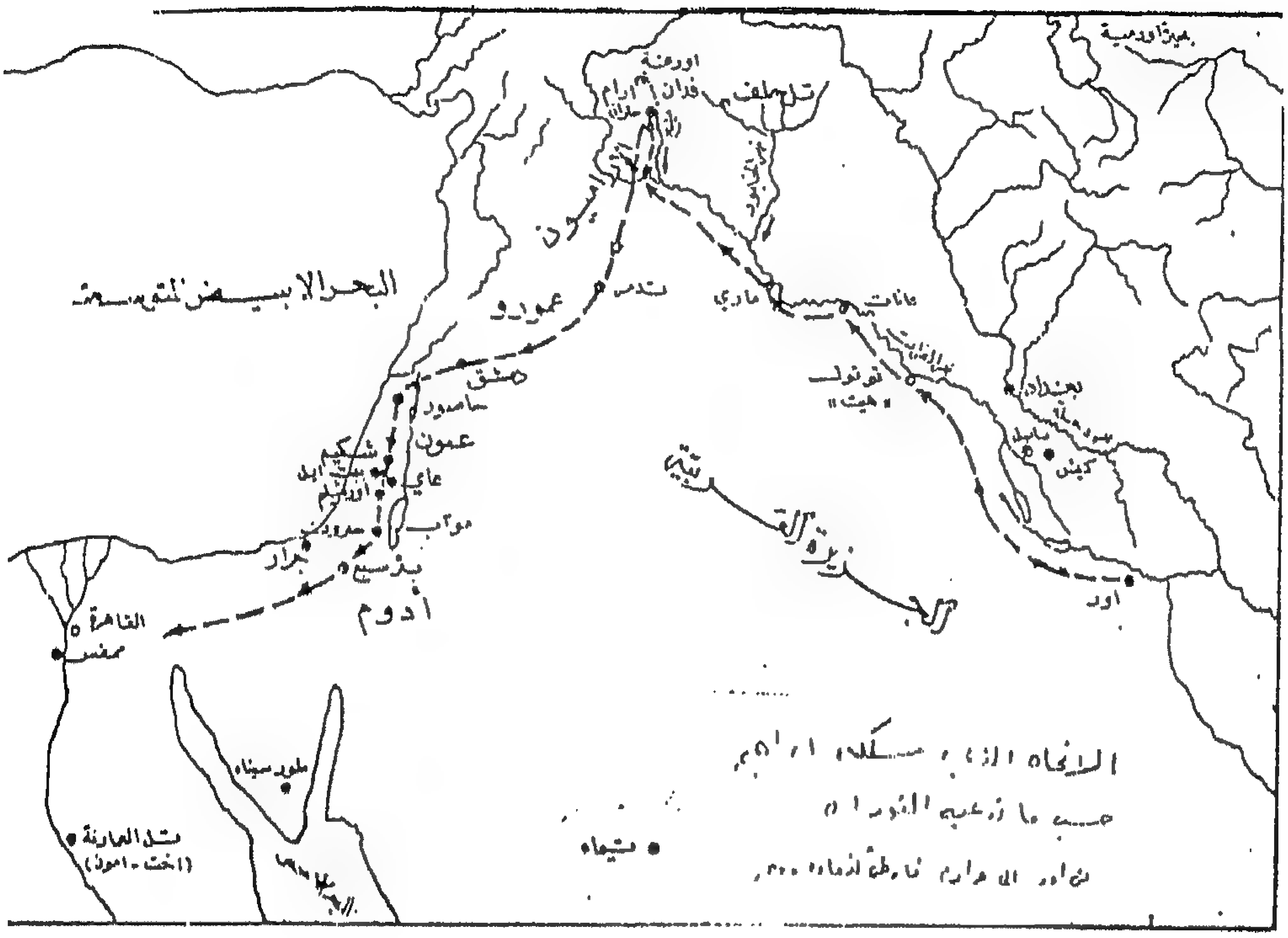

البحر الابيض المتوسط
دمشق
حاصور
عمون
شكيم
بيت ايل
عاي
اورشليم
حبرون
موآب
جرار
بئر سبع
أدوم
القاهرة
ممفس
طور سيناء
تل العمارنة
(اخت - اتون)
تيماء
جزيرة العرب
تدمر
ماري
بغداد
بابل
كيش
اور
تل حلف

خارطة رقم (٢)

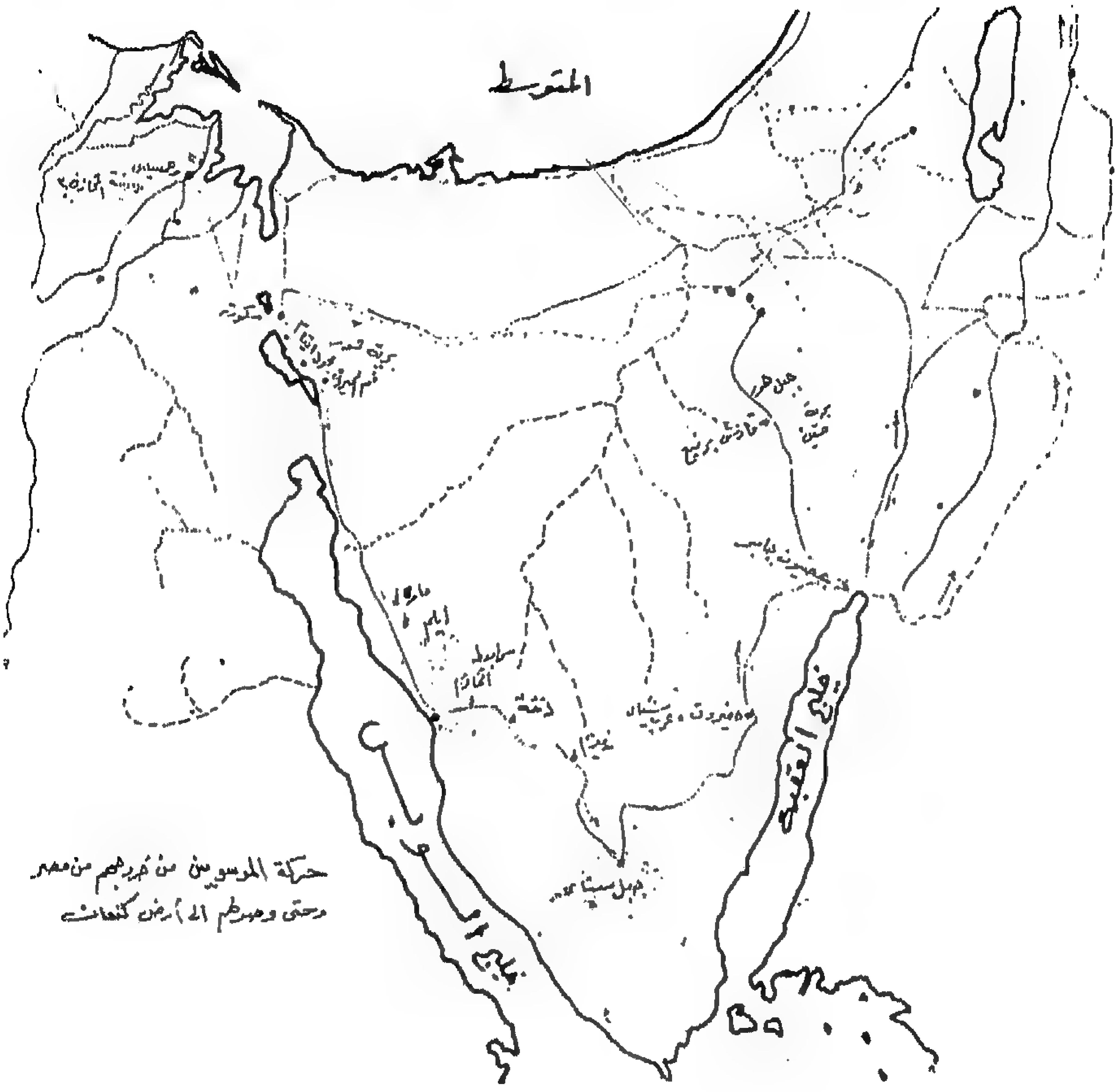
المتوسط
حركة الموسويين من خروجهم من مصر
وحتى وصولهم الى أرض كنعان
جبل سيناء
خليج العقبة

خارطة رقم (٣)

شكل رقم (١)

مسكوكات أرجعها الباحثون إلى فترة المكابيين، بينما هي عمونية (كنعانية) كما يؤكد ذلك (دافيد ديرنجر)

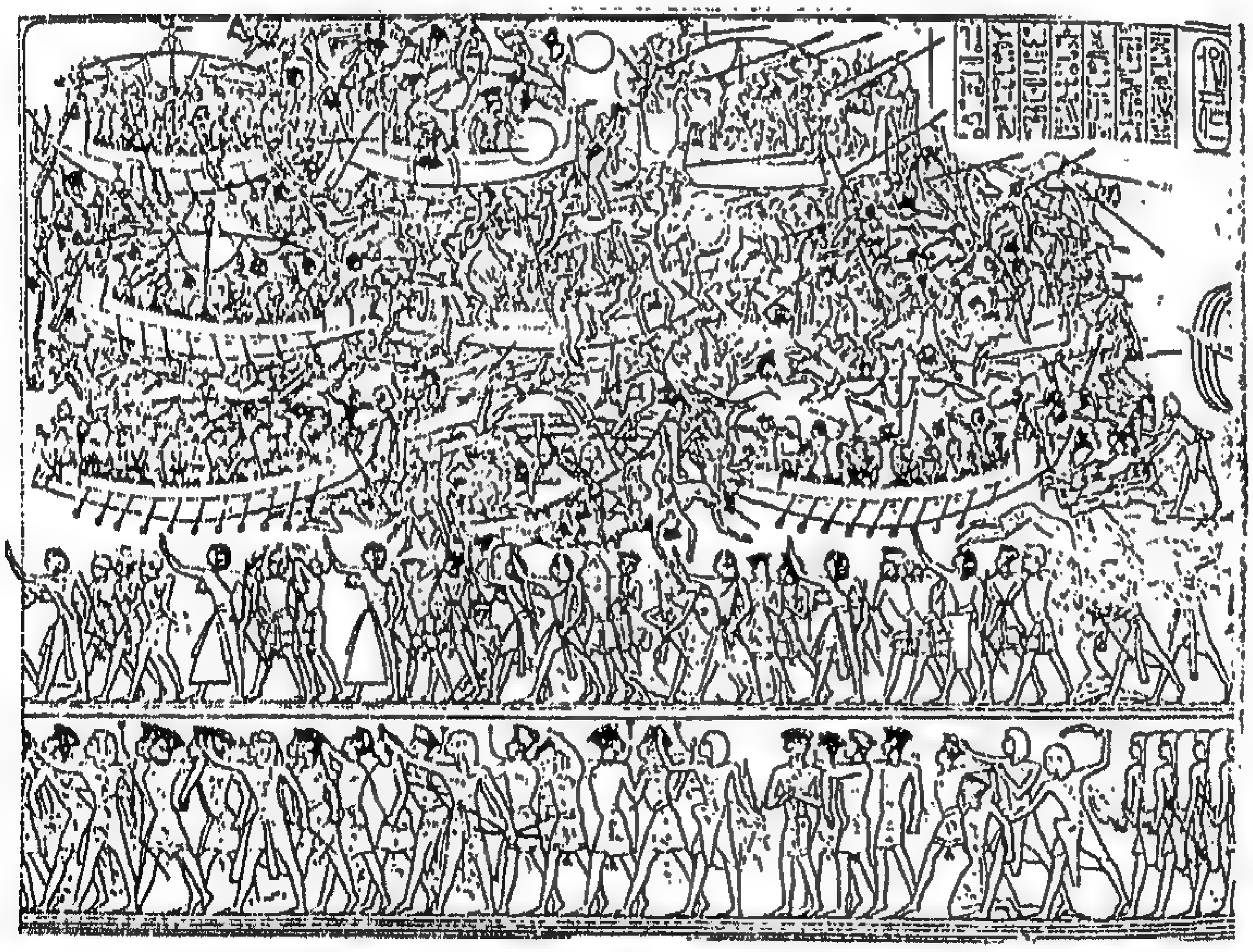

صورة رقم (١)

رسم يمثّل المعركة البحرية التي خاضها رعمسيس الثالث ضد الفلسطينيين (شعوب البحر) في بداية القرن الثاني عشر ق.م. وبعد المعركة نزل الفلسطينيون إلى ساحل كنعان، ومن ذلك التاريخ أطلق أسمهم على هذه الأرض

كرة من جيزر

مخطوط من لجيش

مخطوط من تل الحسا

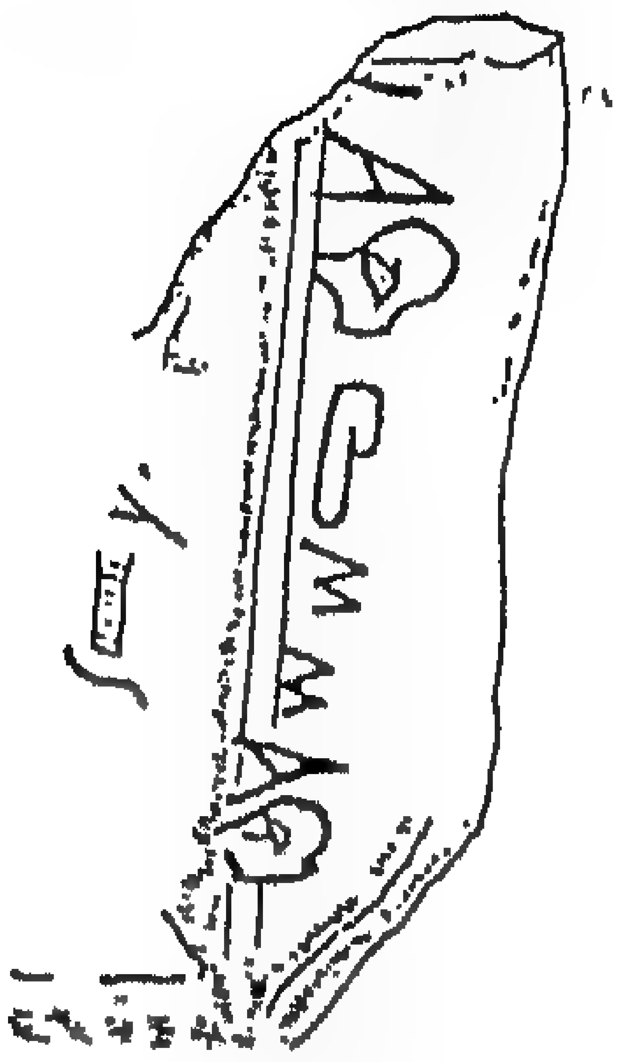

لوح من شكيم

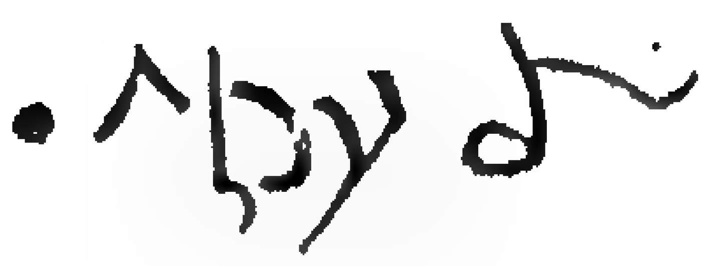

مخطوط من تل العجول

مخطوط من بيت شمش

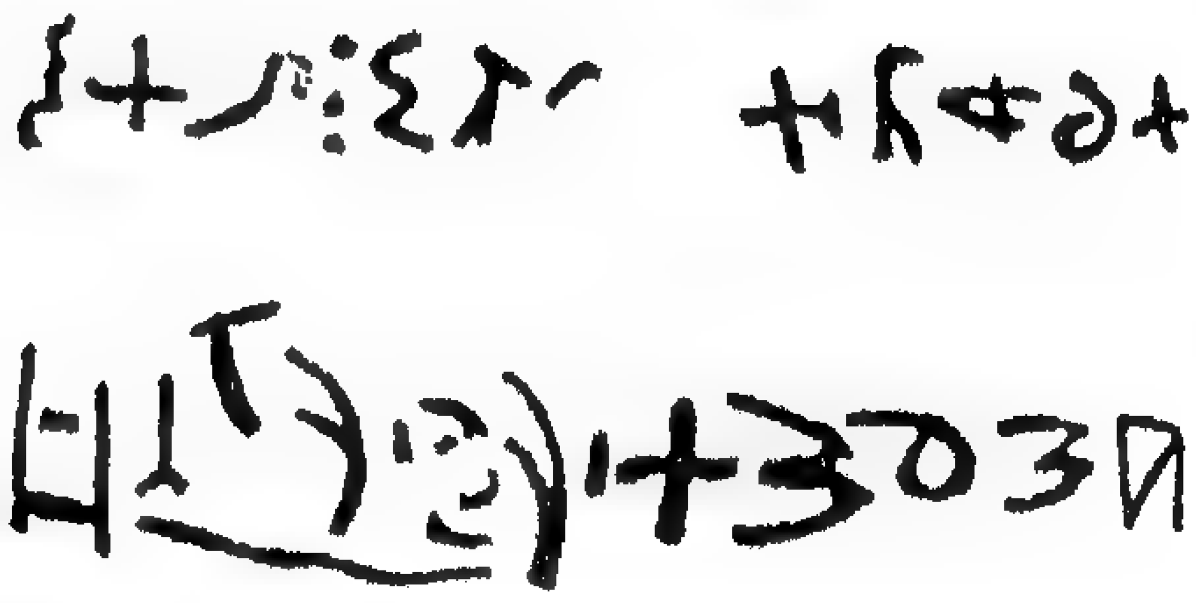

مخطوط من لجيش (تل الدوير)

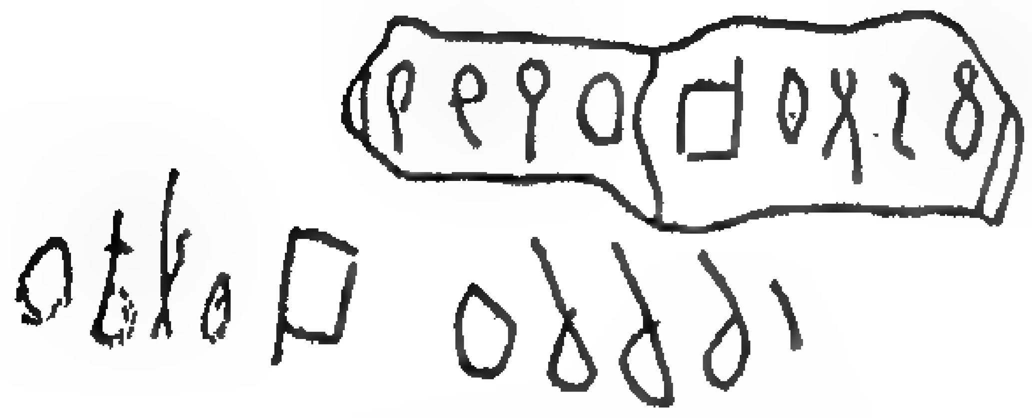

مخطوط من لجيش

شكل رقم (٢)

مخطوطات كنعانية من عدة مناطق في فلسطين

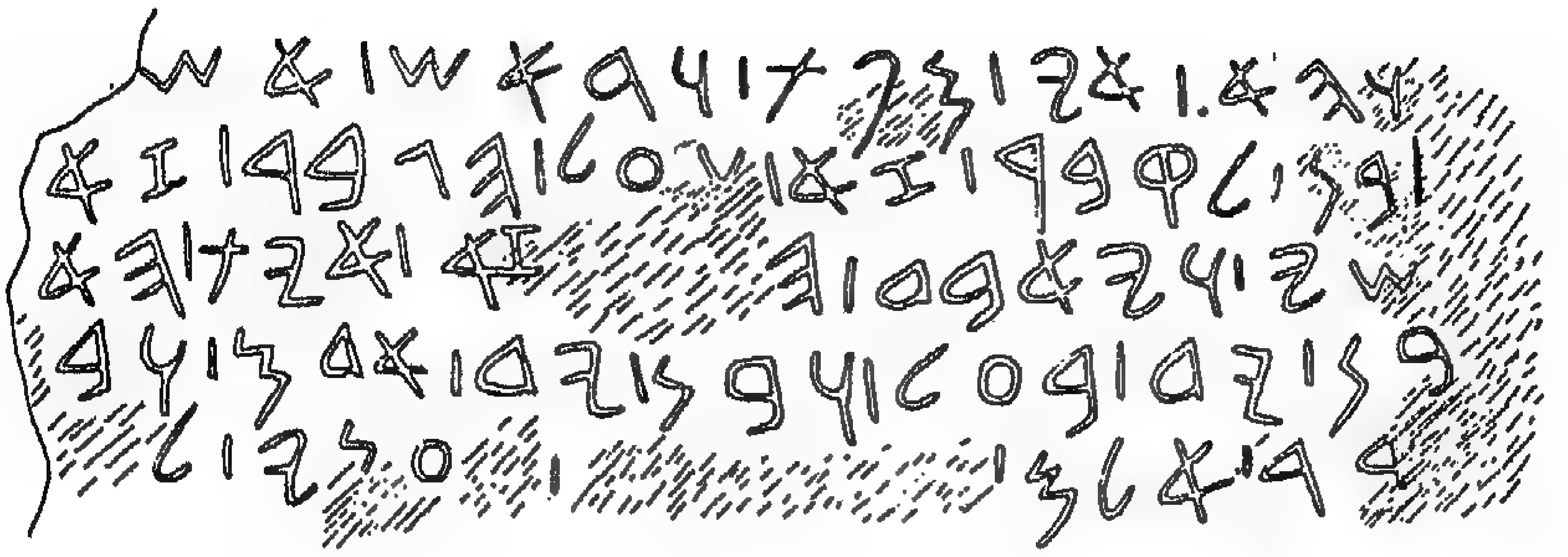

شكل رقم (٣)

خط فينيقي من جزيرة قبرص

خط فينيقي من تونس

خط فينيقي من سردينيا

شكل رقم (٤)

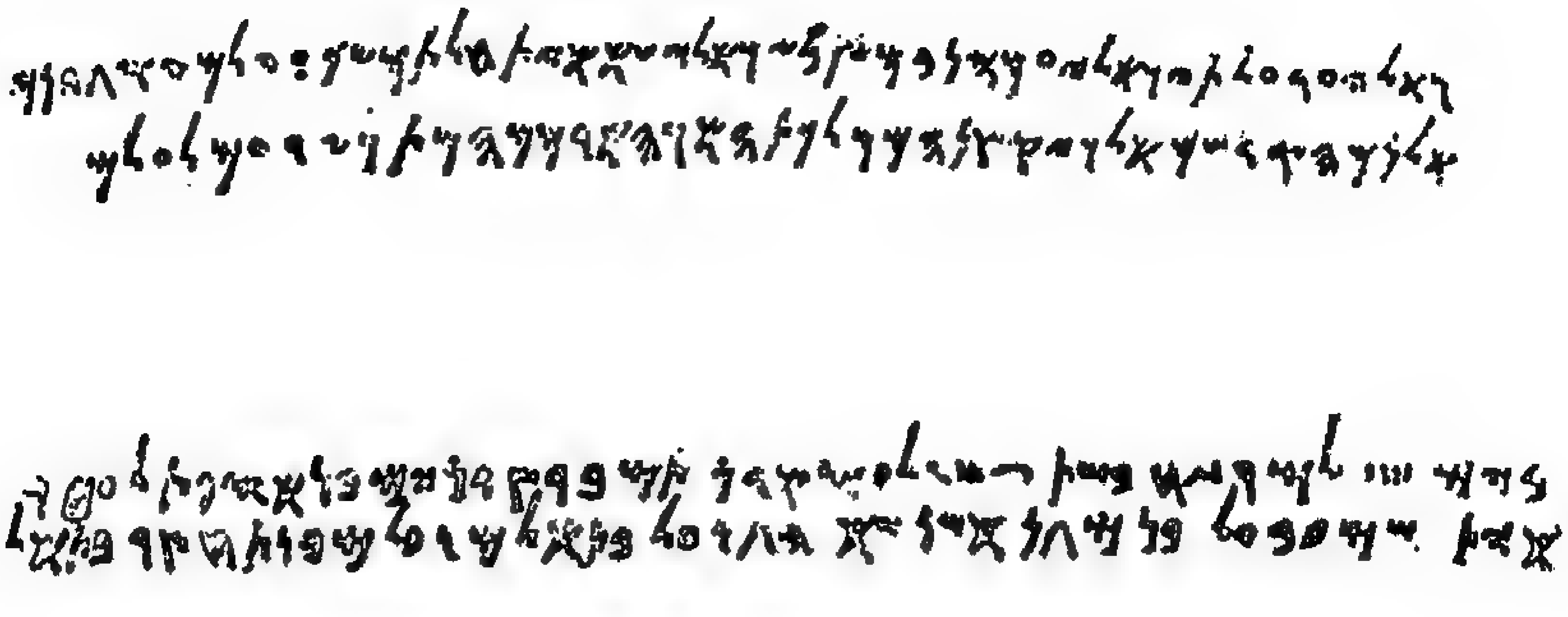

مخطوط فينيقي (كنعاني) من صيدا

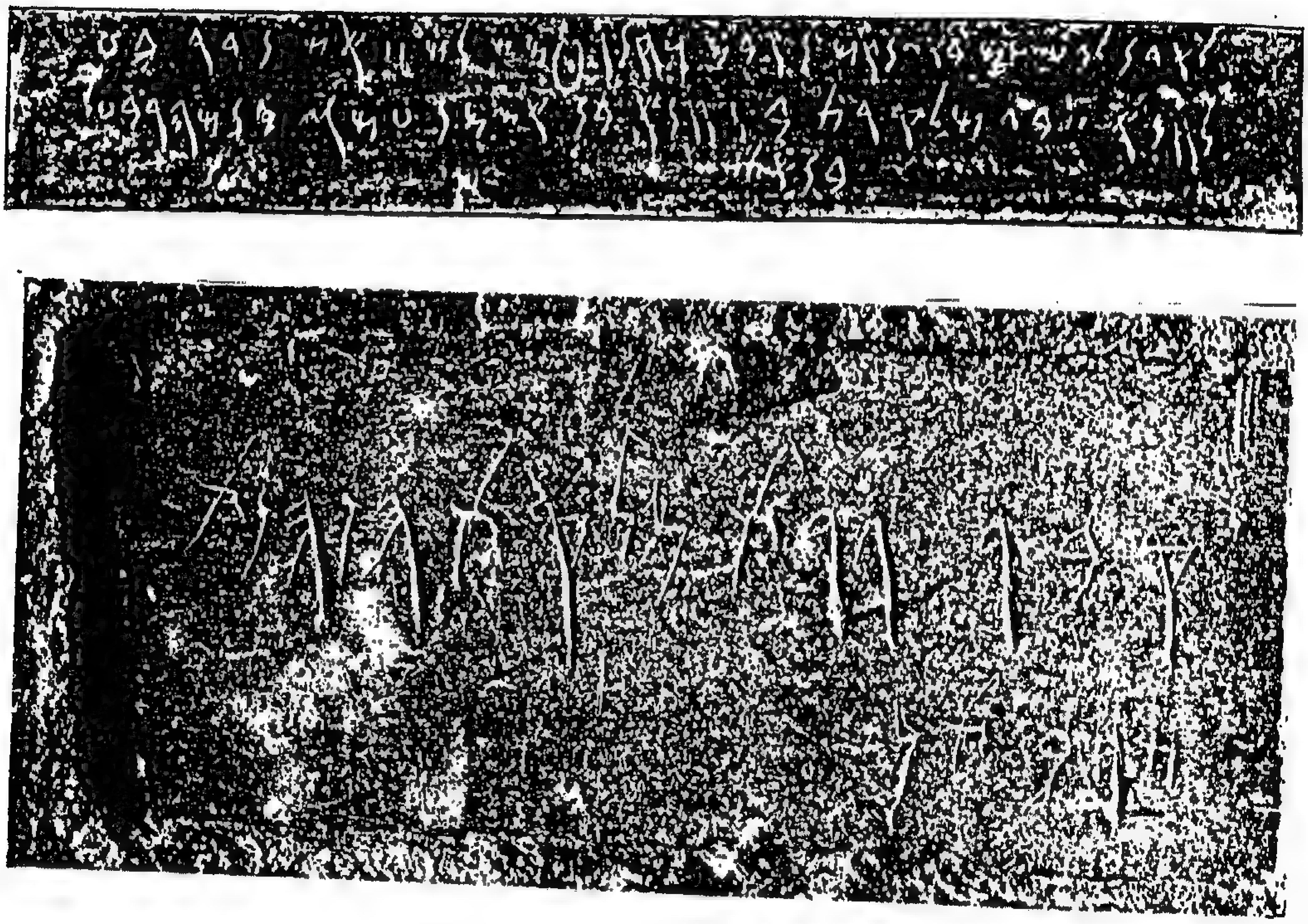

مخطوط فينيقي (كنعاني) من تونس

شكل رقم (٥)

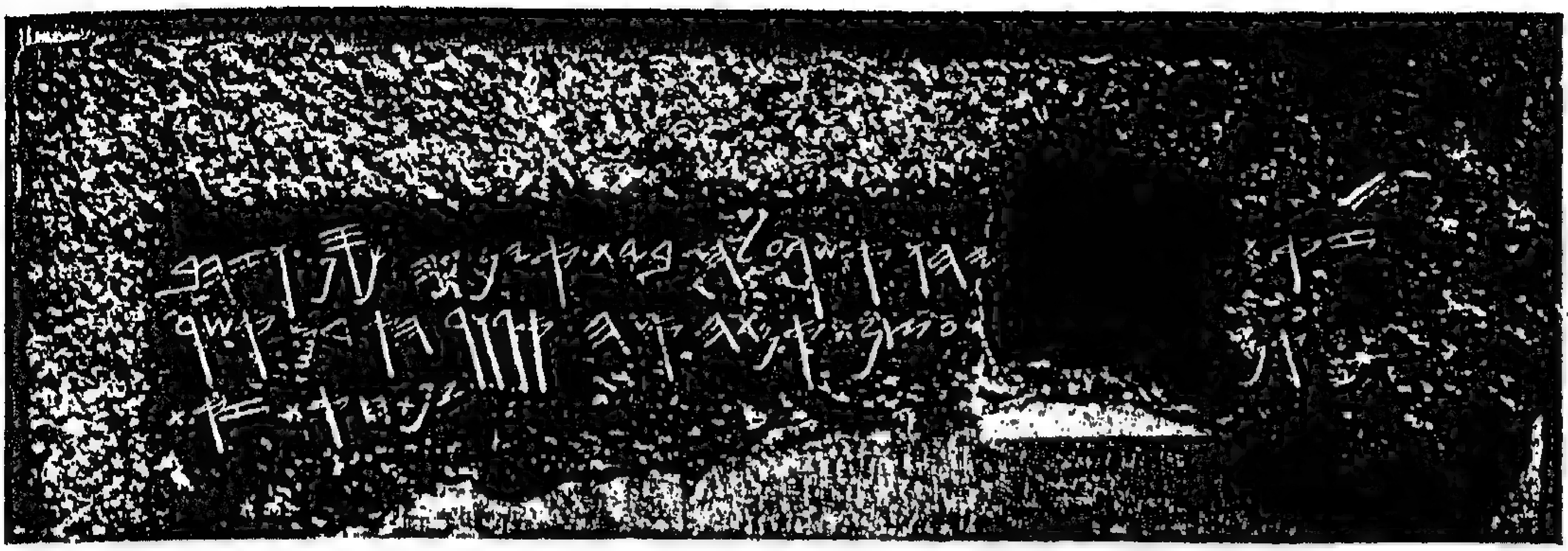

شكل رقم (٦)

مخطوط بلغة كنعانية واضحة، وجد على قبر من (سلوعام) ومحفوظ في المتحف البريطاني

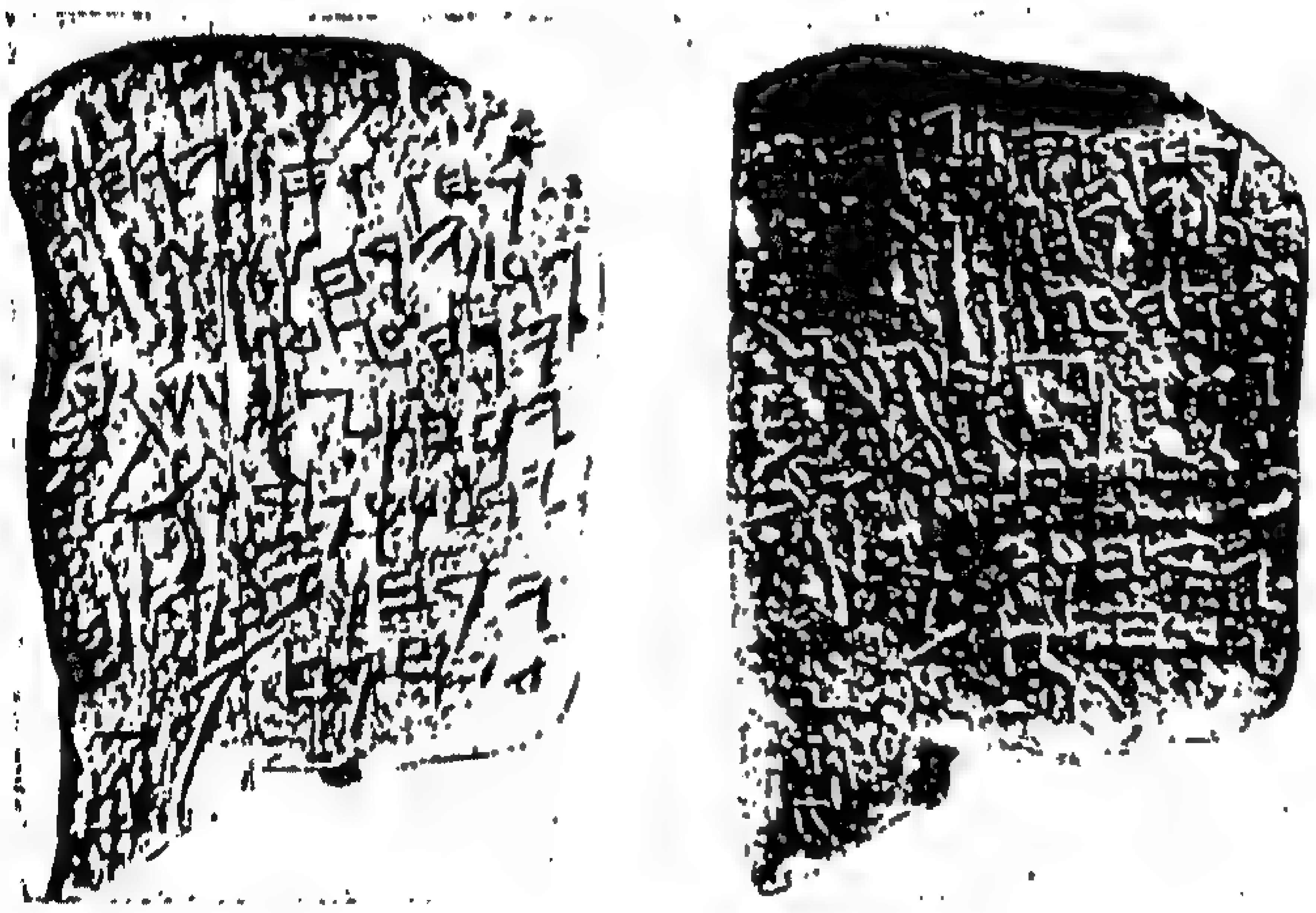

شكل رقم (٧)

تقويم جيزر، وهو من المخطوطات التي أدّعى بعض الباحثين أنها عبرية،
بينما لا تقرب من العبريسة وهي كنعانية محضة

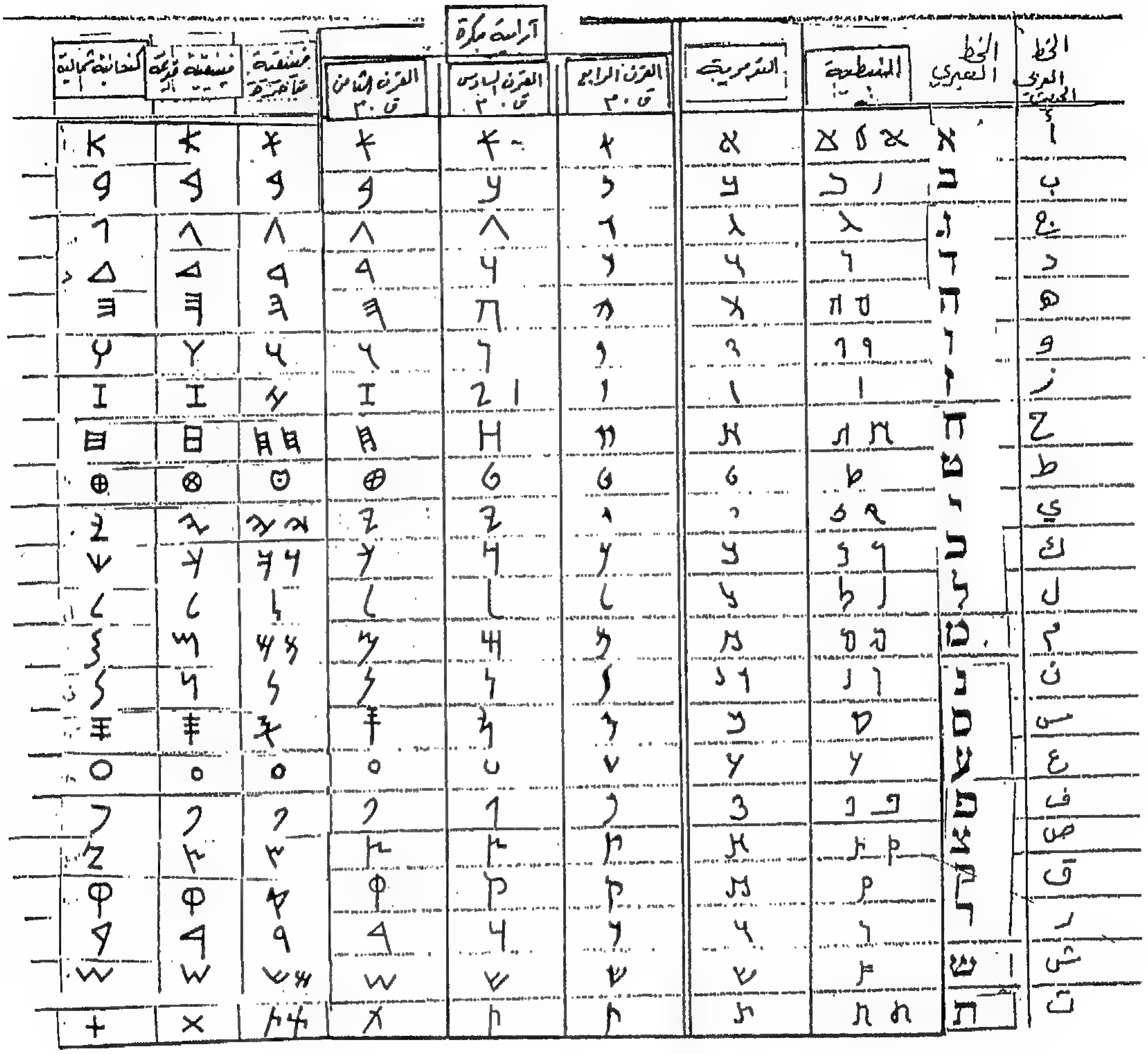
الخط العربي الحديث
الخط العبري
النبطية
التدمرية
آرامية مبكرة
الكنعانية الشمالية
أ ب ج د هـ و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت
א ב ג ד ה ו ז ח ט י כ ל מ נ ס ע פ צ ק ר ש ת

شكل رقم (٨)

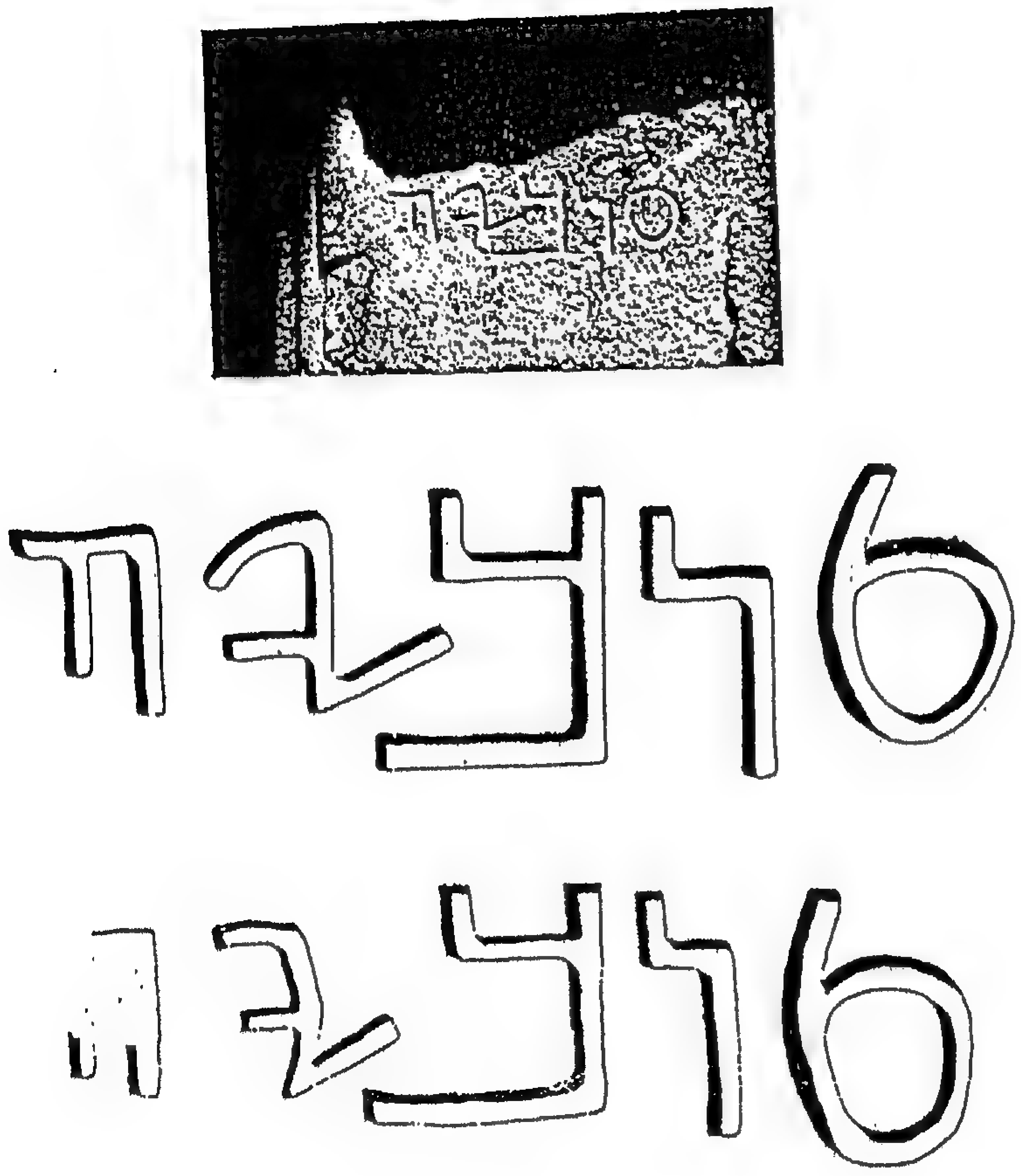

شكل رقم (٩)

نقش اكتشف في عراق الأمير. وهو خط يقول الباحثون أنه
حالة متطوّرة عن الكنعانية وقريب جداً إلى الآرامية

المجموعة الأولى

المجموعة الثانية

المجموعة الثالثة

شكل رقم (١٠)

مسكوكات المجموعة الأولى ترجع إلى ٦٨م. وهي مسكوكات تصنّف على أنها يهودية لكن أحرفها لا زالت آرامية قديمة، والمجموعة الثانية وجدت في بار. كوكبا وترجع إلى ١٣٣م، أما المجموعة الثالثة فأرجعها بعض الباحثين إلى ٦٣-٤٠ ق.م وكلها تقع ضمن الحكم الروماني

المخطوط الأول

المخطوط الثاني

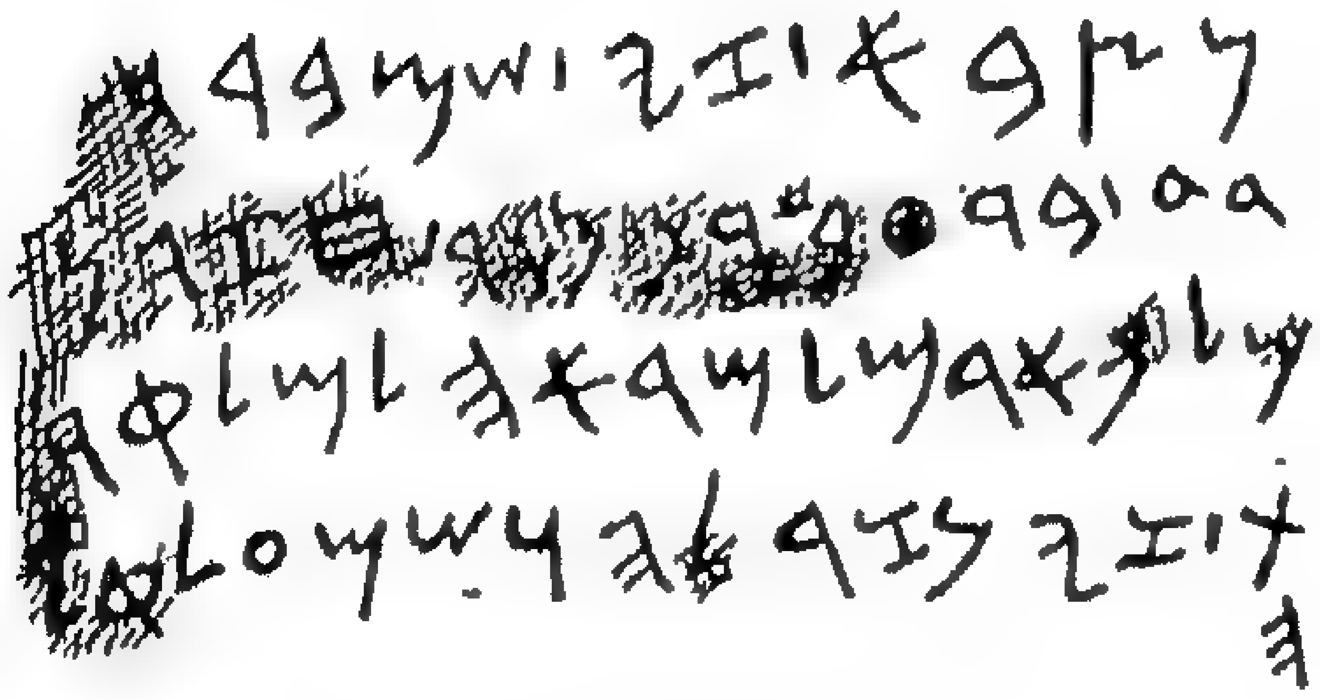

المخطوط الثالث

شكل رقم (١١)

ثلاثة مخطوطات بالآرامية القديمة ـ القريبة من الكنعانية ـ يعود الثاني إلى الملك (زاكر) ملك حماة ولؤاش والثالث إلى الملك بن هود، بينما المخطوط الأول يعود إلى الملك Kilamuwa ملك ياذي Yádi

شكل رقم (١٢)

نقش على قبر عوزيا والذي يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الأول بعد الميلاد. وأحرفه شبيهة بأحرف «البواق» ومع ذلك أرجعه عالم لغوي (إسرائيلي) إلى الآرامية

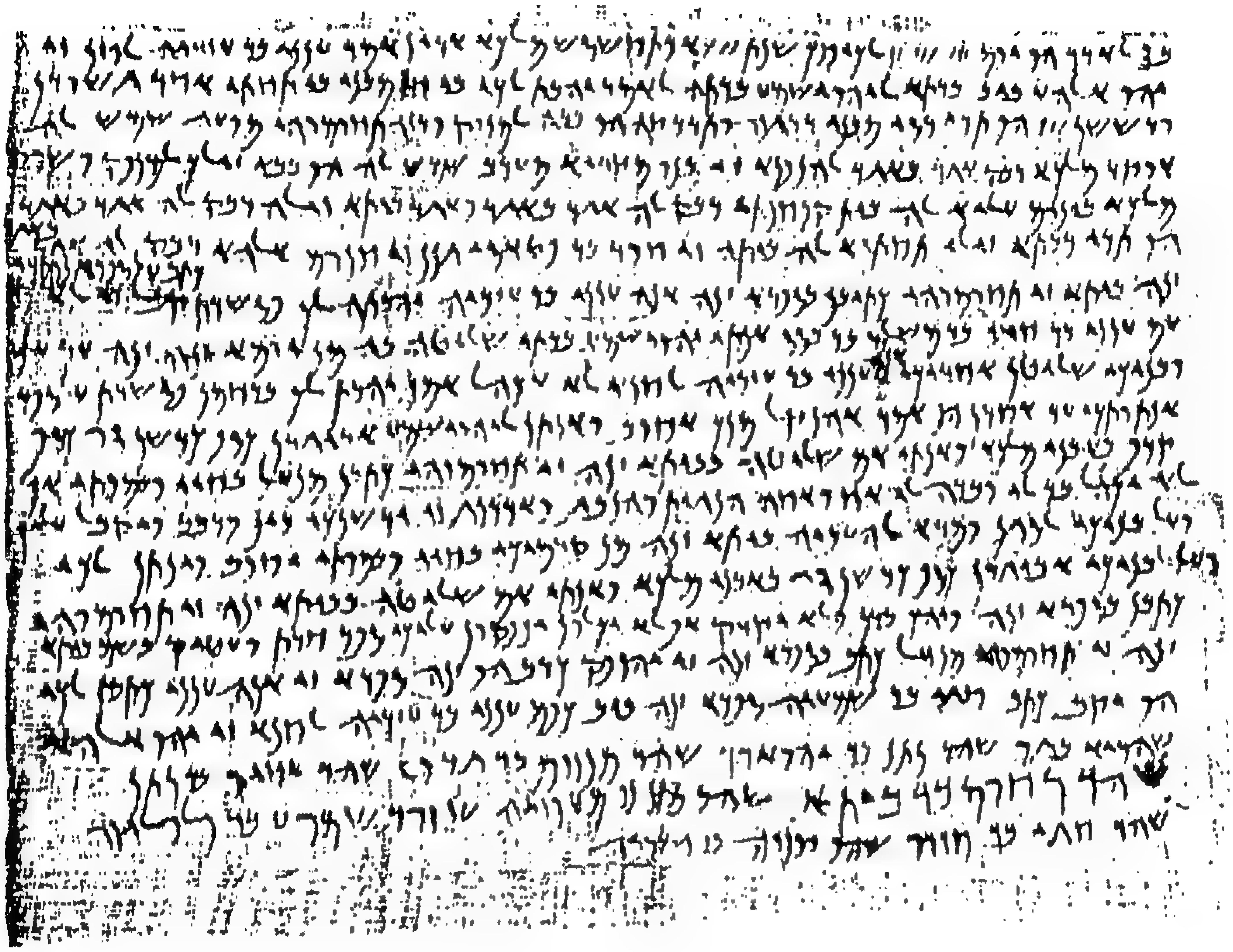

شكل رقم (١٣)

مخطوط آرامي على ورق البردي وجد في (اسوان) مصر وينسب لليهود الذين عادوا من فلسطين بعد انهزامهم أمام نبوخذ نصّر وترجع إلى القرن الرابع ق.م

شكل رقم (١٤)

مسكوكات يهودية تعود إلى العصر الروماني (٦٦ - ٦٧م) ورغم تاريخها المتأخر لا زالت تحمل
بعض الأحرف الكنعانية (الآرامية القديمة)

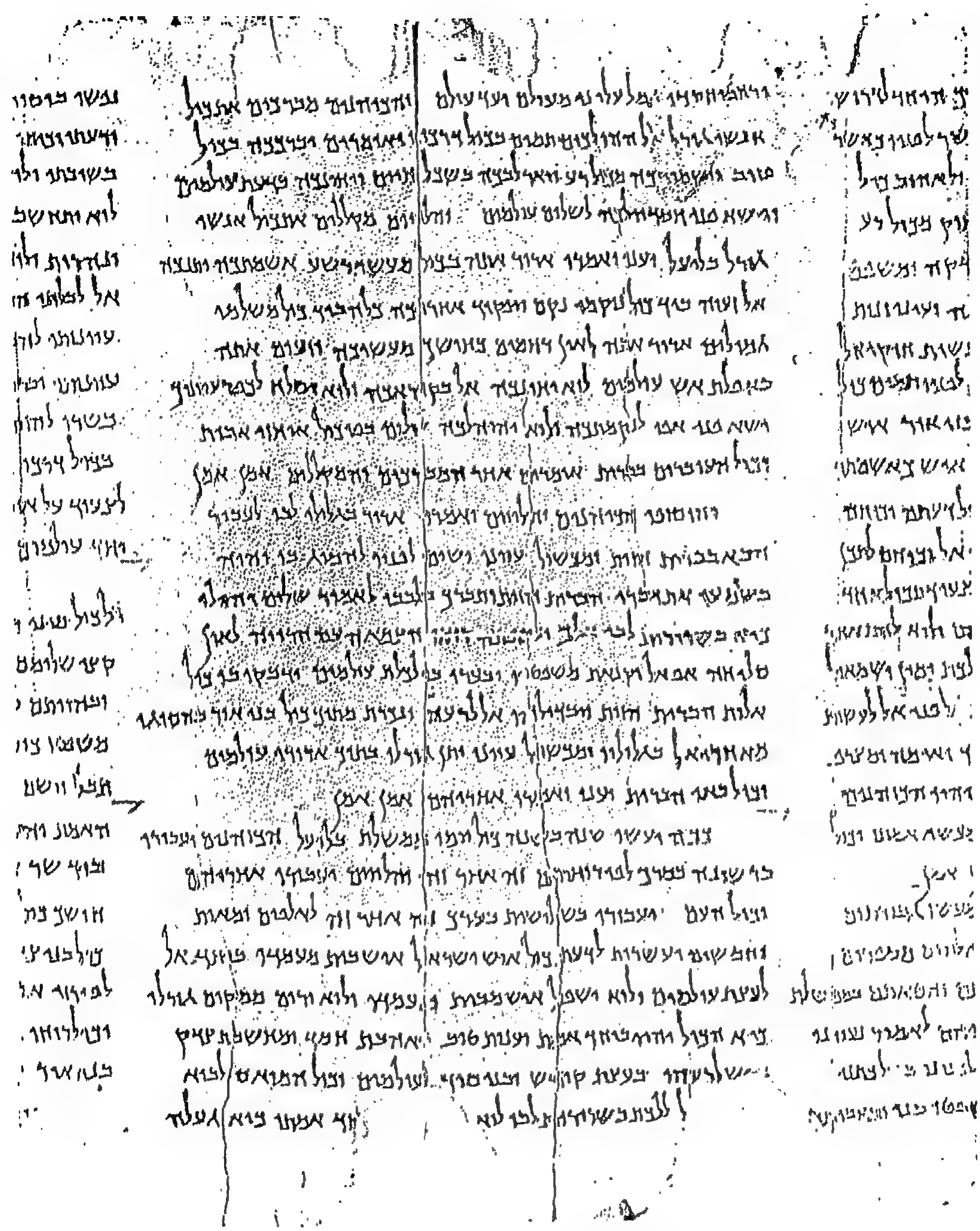

شكل رقم (١٥)

من مخطوطات البحر الميّت باللغة الآرامية

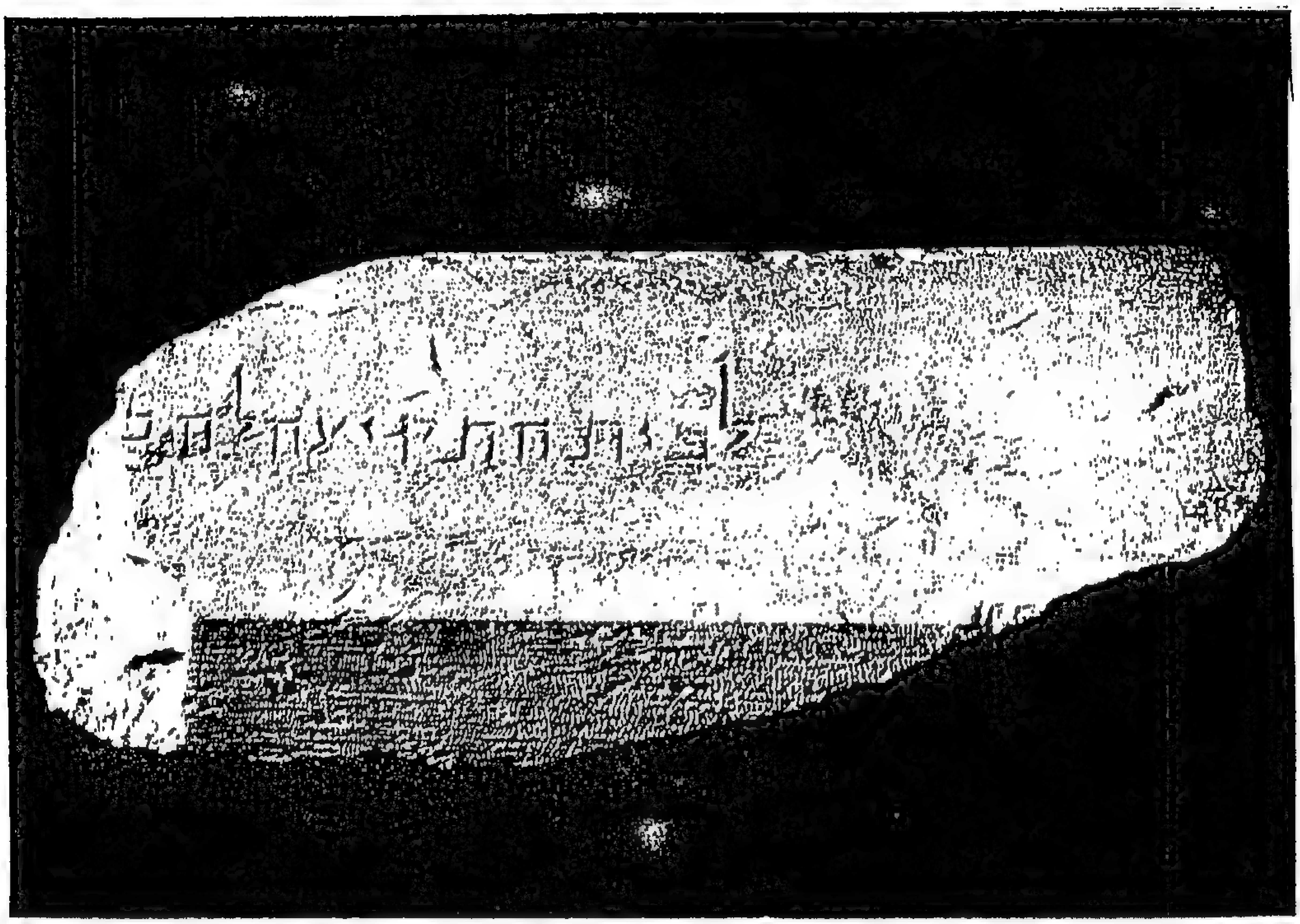

شكل رقم (١٦)

مخطوط باللغة الآرامية، يشير إلى مكان البوّاق ـ الذي يضرب على البوق ـ ويعود المخطوط إلى القرن الأول ق.م. وكالعادة يدّعي الباحثون التوراتيون أن الخط عبري، لكن مقارنة بسيطة بين الأحرف العبرية (والنبطية والتدمرية) المشتقان من الآرامية لتكون النتيجة أن الخط آرامي

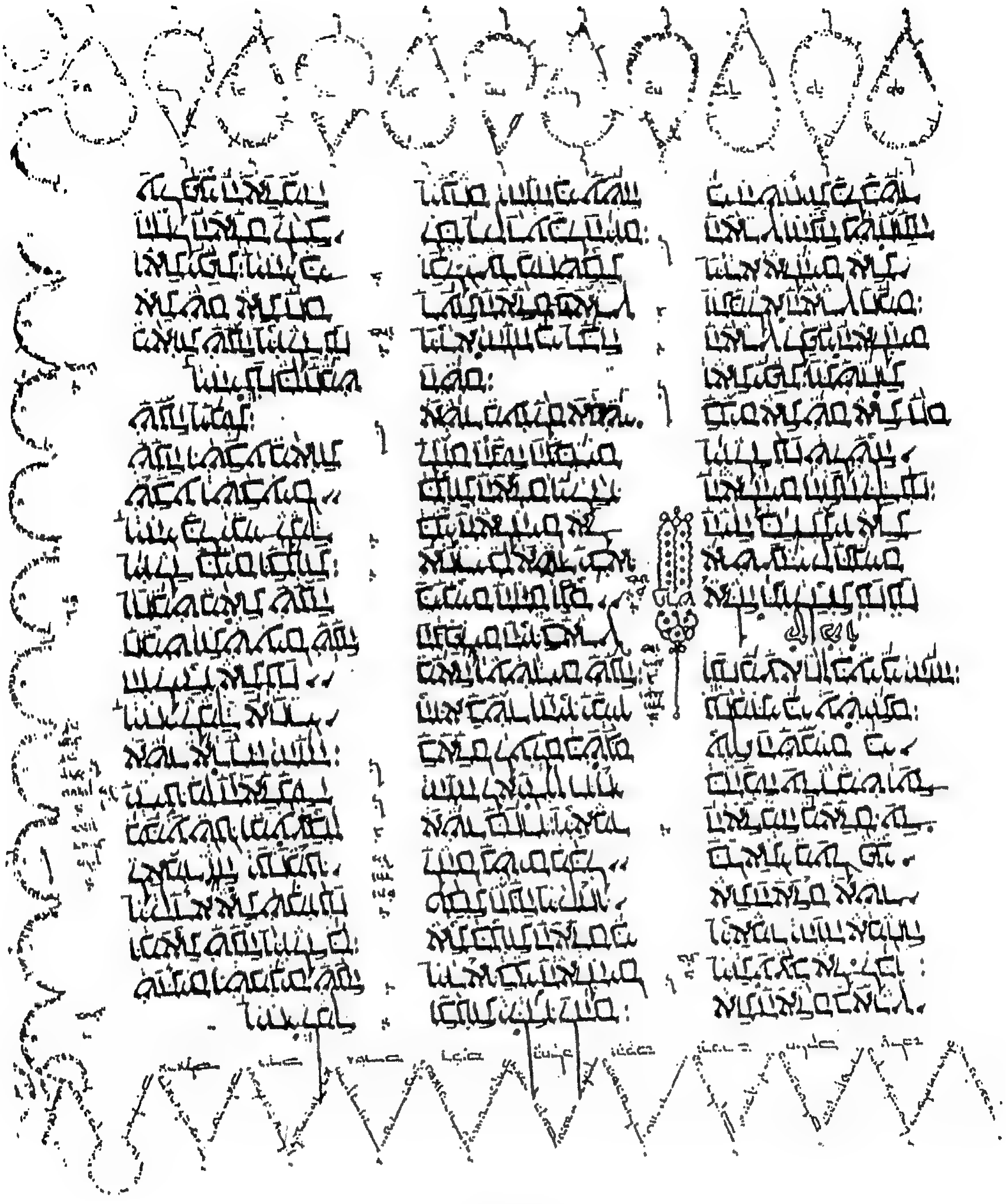

شكل رقم (١٧)

نص من التوراة باللغة العبرية المشكّلة التي أوجدها المصوريتيون لضبط نطق اللفظ العبري

شكل رقم (١٨)

جرّة من لجيش (تل الدوير) عليها كتابات كنعانية واضحة

هجائية كنعانيه　　هجائية عبرية

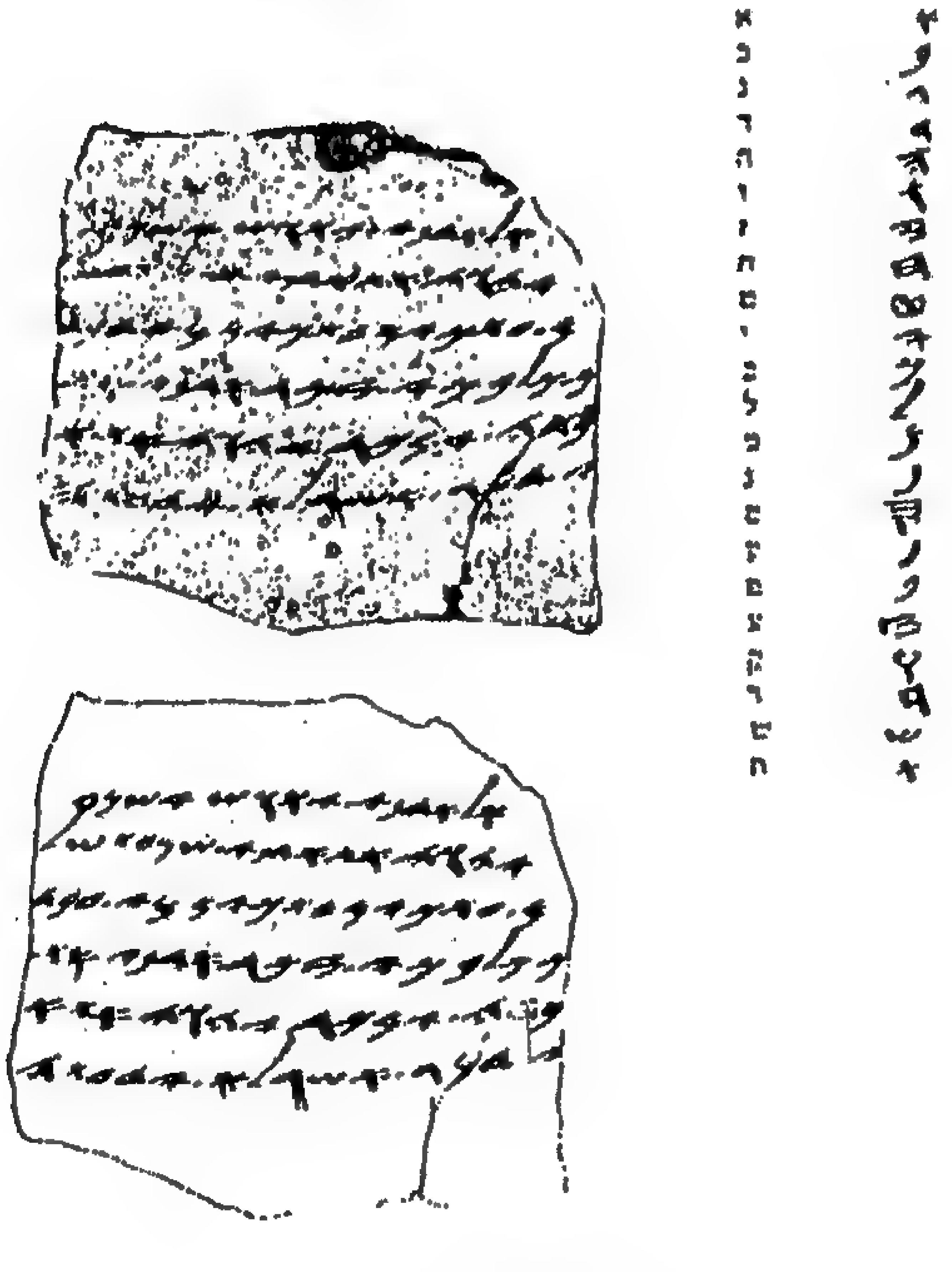

شكل رقم (١٩)

رسالة من لجيش (تل الدوير) وهي كنعانية الأحرف

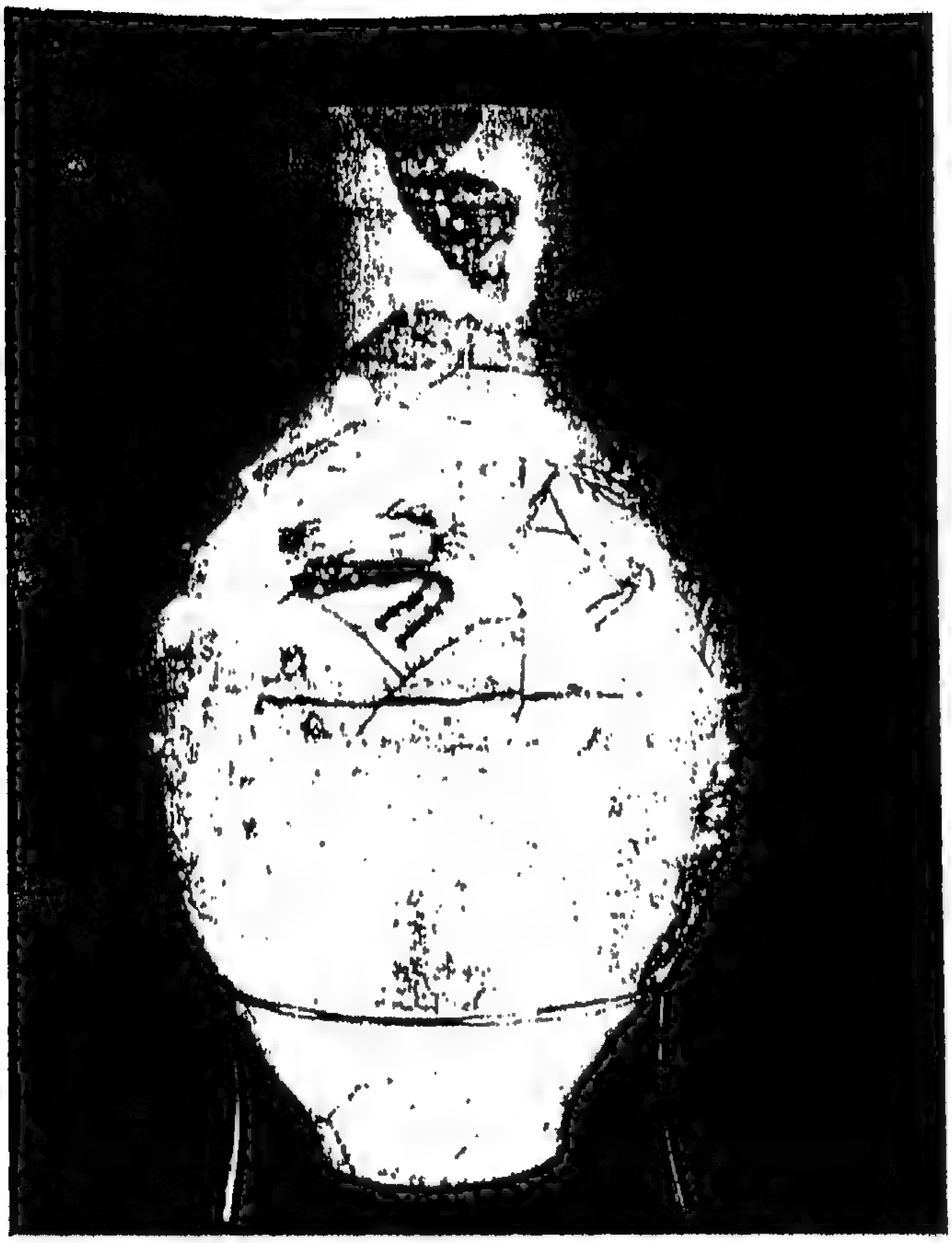

شكل رقم (٢٠)

جرة فخارية من لجيش (تل الدوير) عليها كتابات كنعانية واضحة

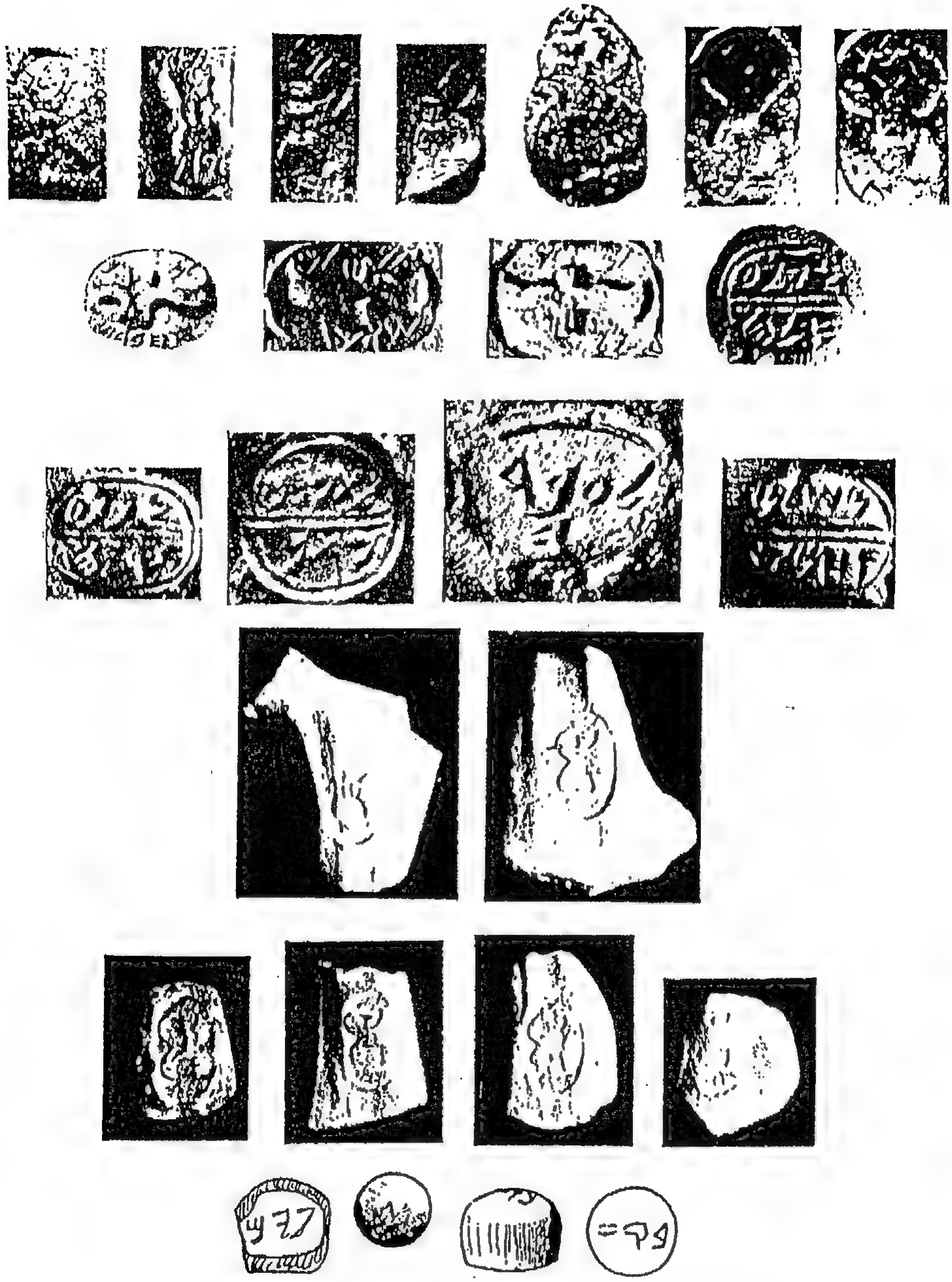

شكل رقم (٢١)

مجموعة من الأختام والأوزان وأيدي جرار عليها كتابات كنعانية واضحة. وهي كغيرها يحاول الباحثون التوراتيون تجييرها لحساب التاريخ اليهودي

شكل رقم (٢٢)

خط كنعاني (فينيقي) قديم

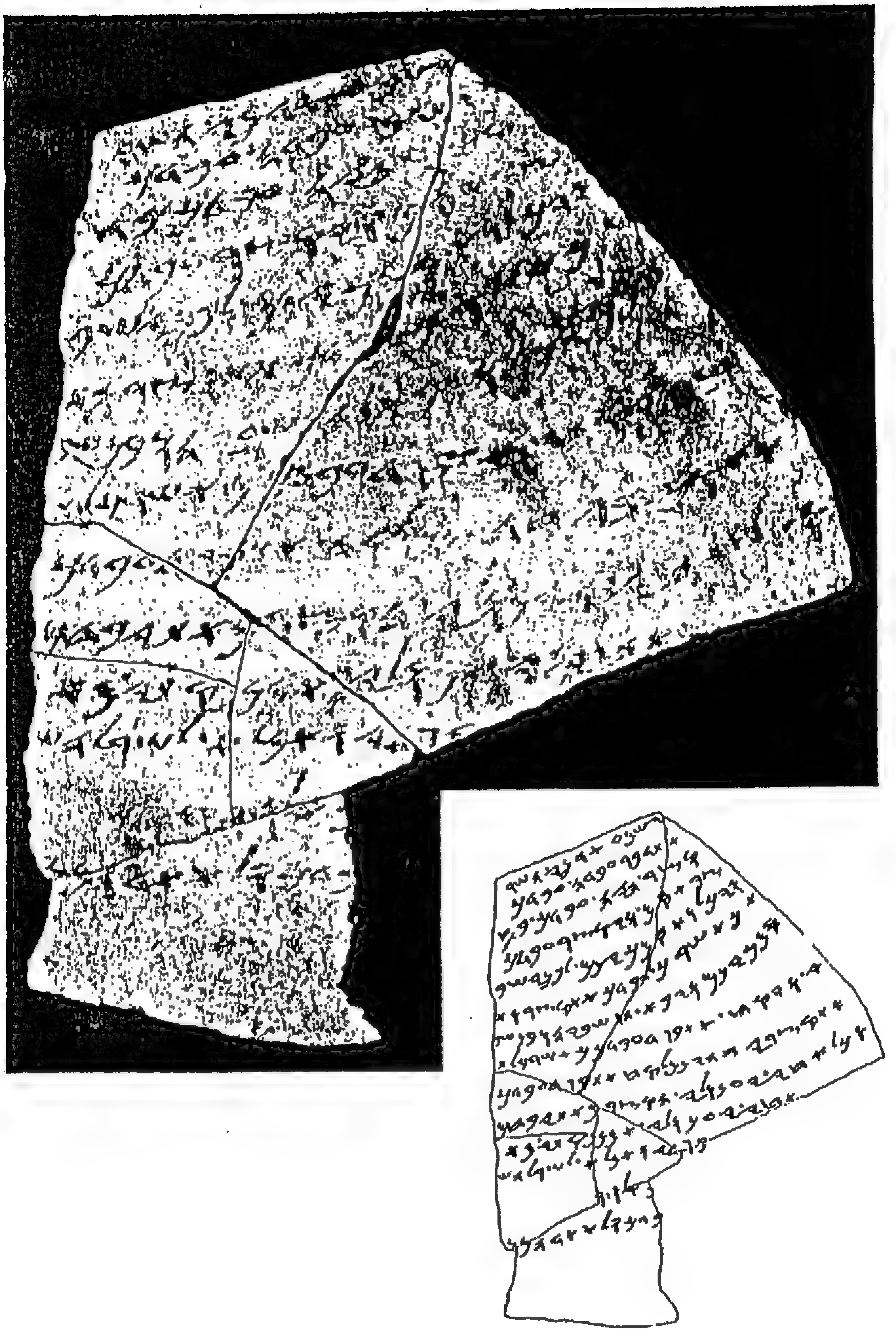

شكل رقم (٢٣)

مخطوط كنعاني آخر يدّعي الباحثون أنه عبري

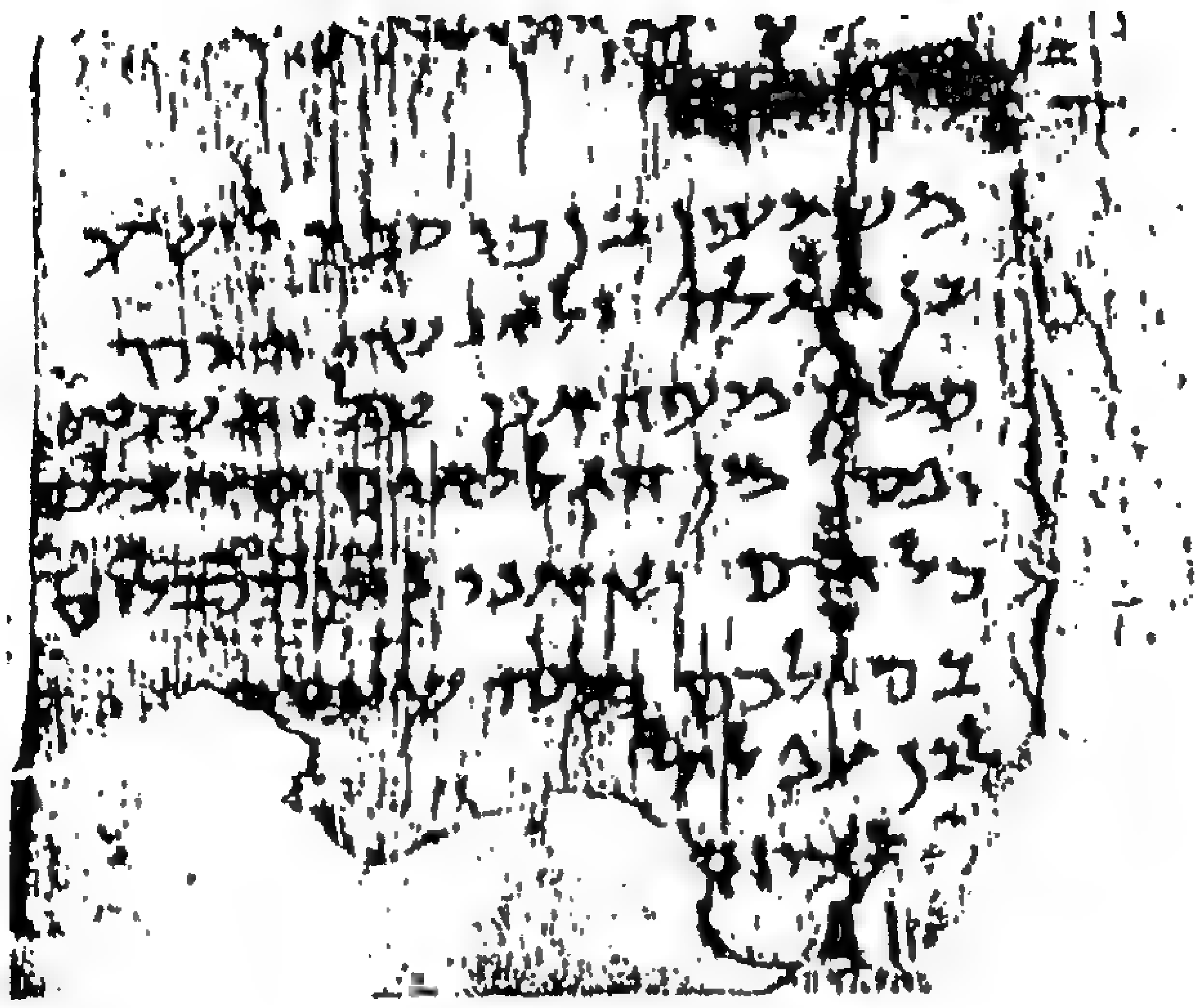

شكل رقم (٢٤)

صورة لرسالة من سيمون بار ـ كوكبا (المكابيين) تعود إلى القرن الثاني ق.م بالخط الآرامي

شكل رقم (٢٥)

ختمان يدّعي كثير من الباحثين أنهما (يهوديان) بينما الأحرف واضحة جداً وهي كنعانية صارخة ويستدل على كنعانيتها بمجرّد مقارنتها مع الأبجدية

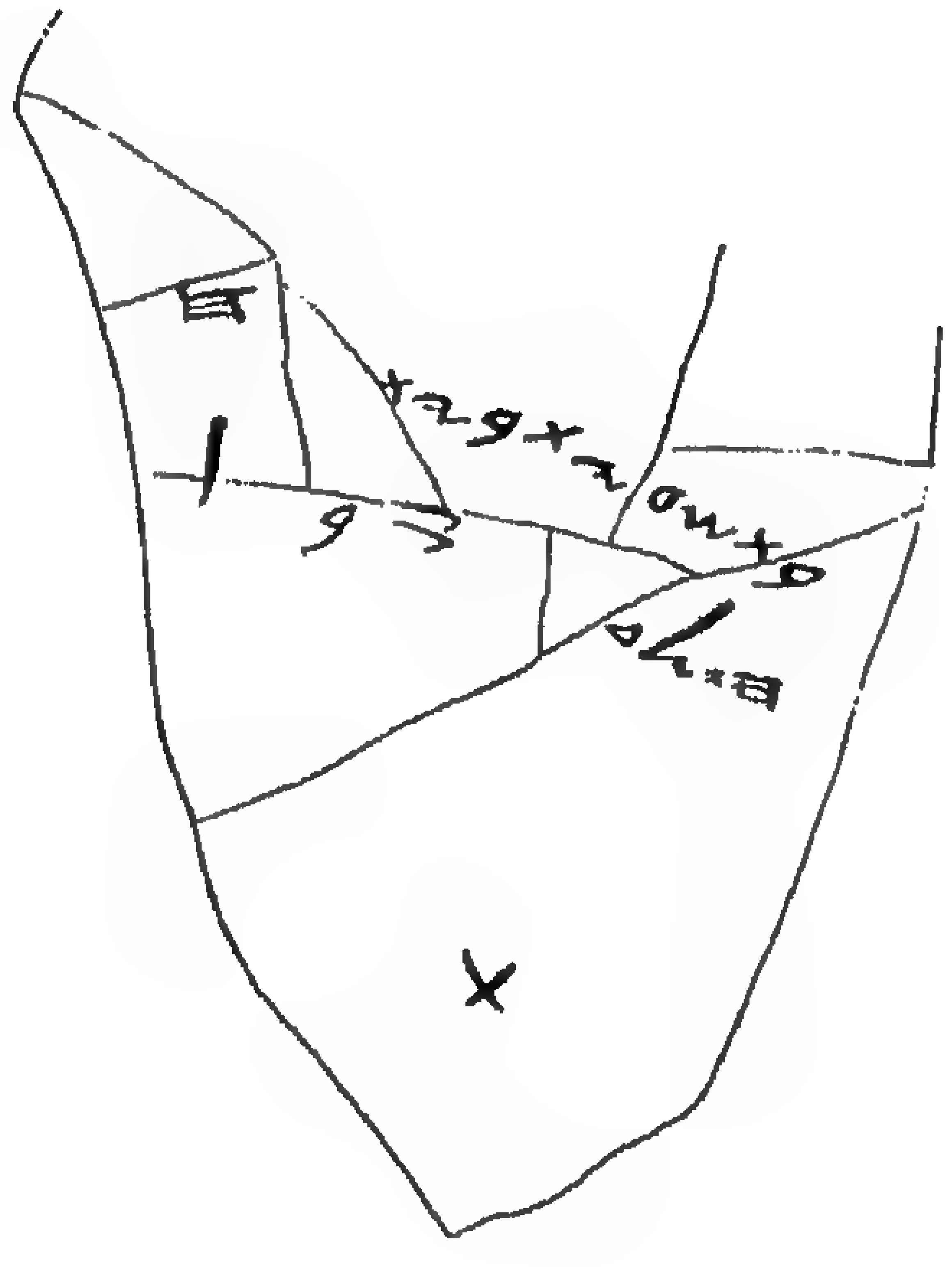

شكل رقم (٢٦)

نقش السامرة Samarian ostraca . ولأن النقش اكتشف في السامرة (نابلس) ادّعى بعض الباحثين أنه عبري في حين الكتابة واضحة وتشير إلى كنعانيتها

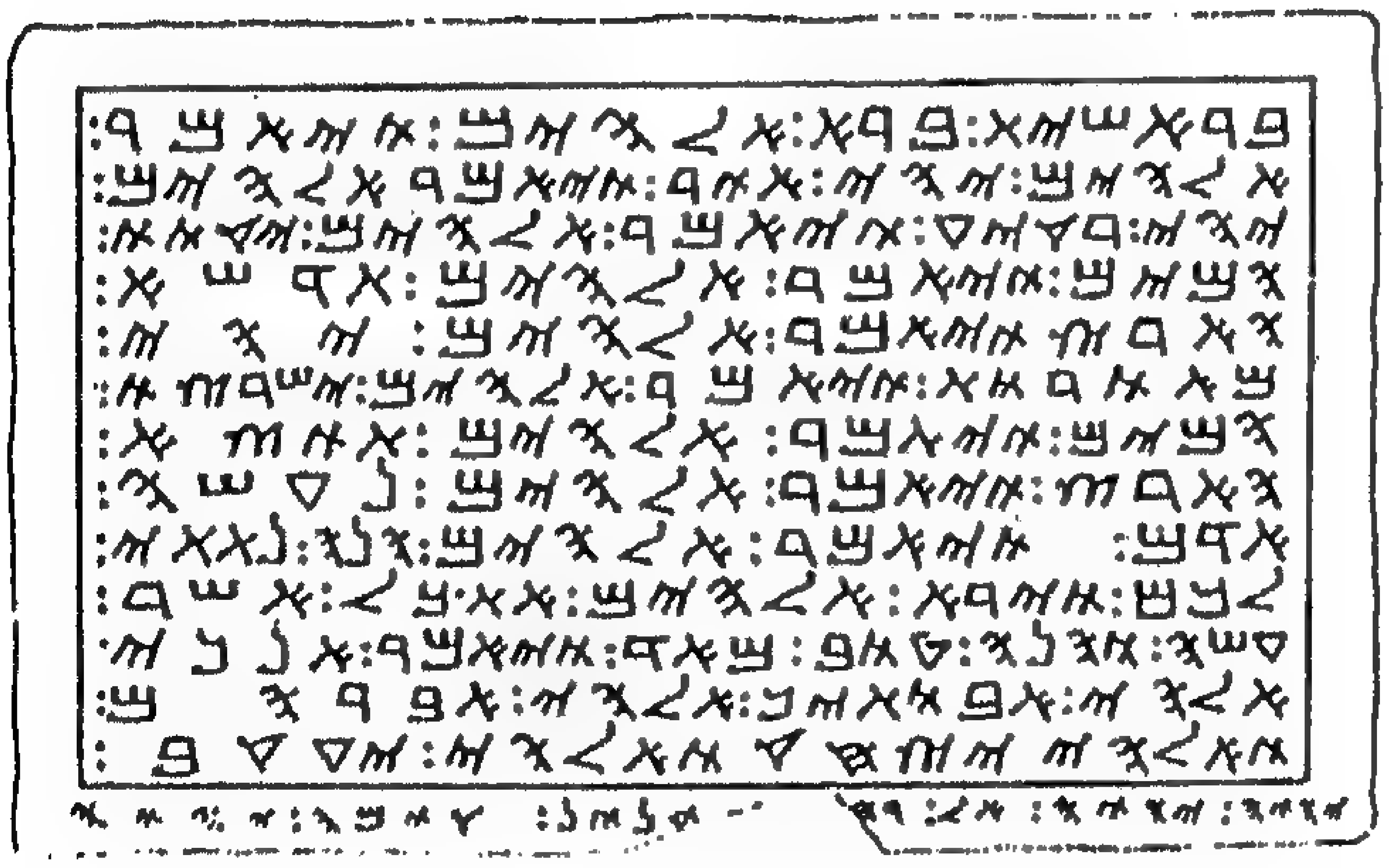

شكل رقم (٢٧)

مخطوطات باللغة الآرامية القديمة ـ القريبة من الكنعانية ـ وجدا في منطقة السامرة (نابلس) وليس لهما علاقة قرابة مع العبرية

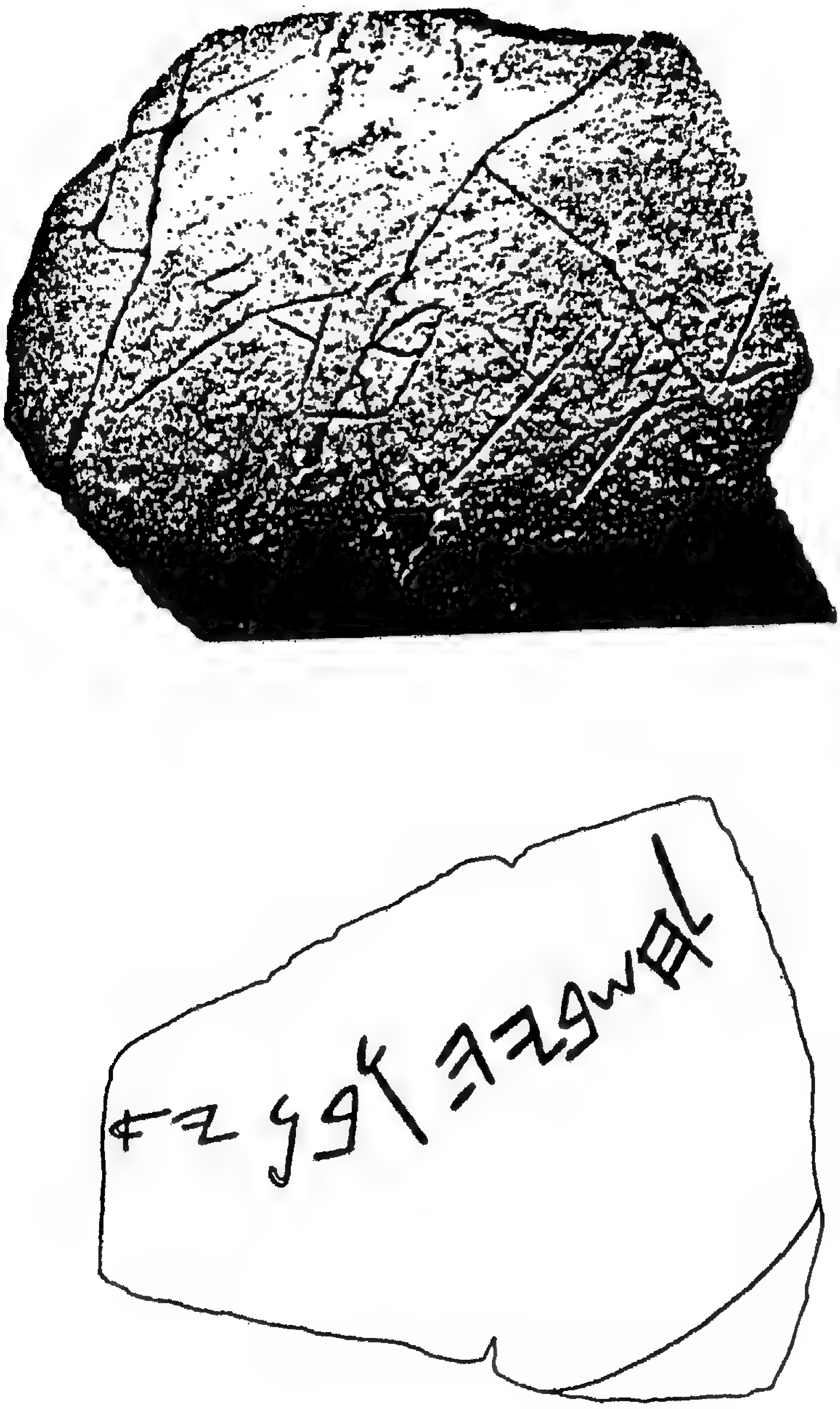

شكل رقم (٢٨)

مخطوط من جازور باللغة الكنعانية

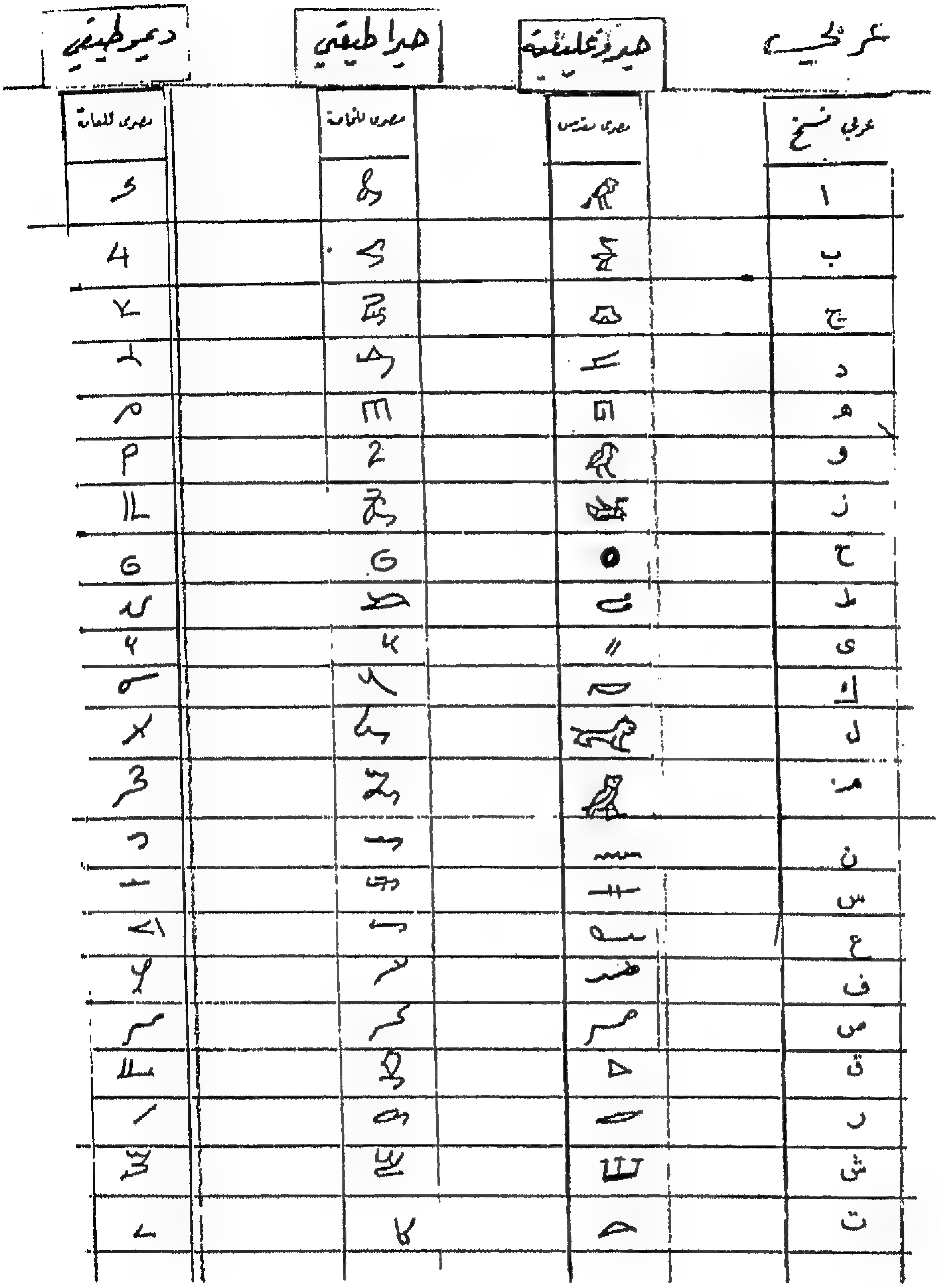
ديموطيقي
هيراطيقي
هيروغليفية
عربي
مصري للعامة
مصري للثقافة
مصري مقدس
عربي نسخ
ا
ب
ج
د
هـ
و
ز
ح
ط
ى
ك
ل
م
ن
س
ع
ف
ص
ق
ر
ش
ت

شكل رقم (٢٩)

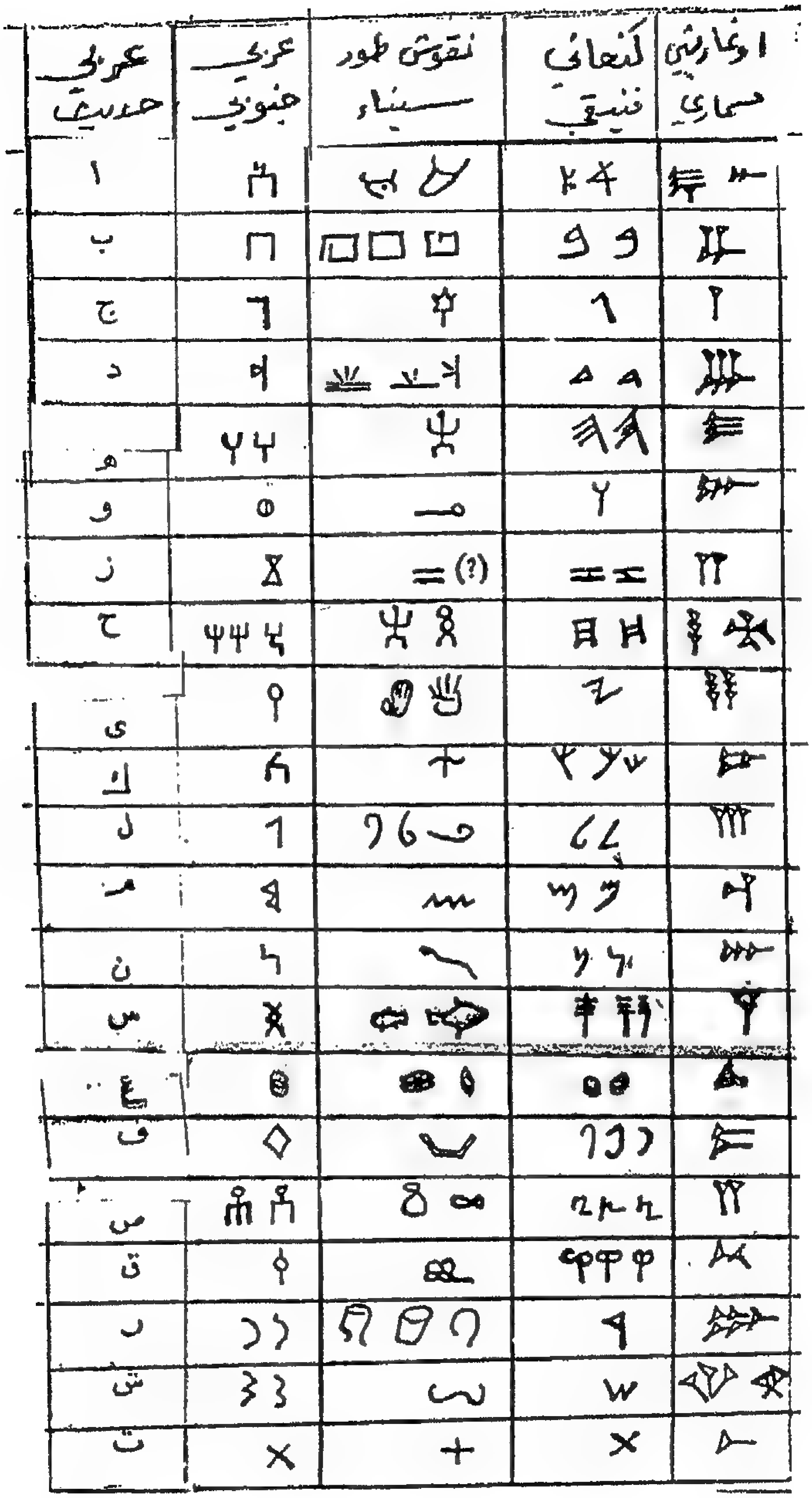
عربي حديث
عربي جنوبي
نقوش طور سيناء
كنعاني فينيقي
أوغاريتي مسماري
ا
ب
ج
د
هـ
و
ز
ح
ي
ك
ل
م
ن
س
ع
ف
ص
ق
ر
ش
ت

شكل رقم (٣٠)

محتويات الكتاب

١. الإهداء ٥

٢. المقدّمة ٧

٣. توطئة ١٥

٣. الفصل الأول

الموجات البشرية والهجرات ٢٧

الأكديون ٣١

الأموريون (العموريون) ٣٥

الأراميون ٣٩

العبرانيون ٤٣

الهكسوس ٤٤

٤. الفصل الثاني

العبيرو ورسائل العمارنة ٥٩

الوضع السياسي في فلسطين وبلاد الشام في هذه الفترة ٦١

رسائل العمارنة ٦٤

من هم العبيرو ٦٥

مميزات رسائل العمارنة ٦٧

محتوى الرسائل ٦٨

٥. الفصل الثالث

دلائل الوجود الفرعوني في فلسطين مجسداً بالآثار ٧٩

ملخص تاريخ الأسرات التي حكمت مصر ٨٦

الخروج الموسوي ٩٠

« دهاتا » يهوذا والسامره ٩٩

٦. الفصل الرابع

حضارة وادي الرافدين وتأثيراتها على بلاد الشام ١٠٥

مظاهر الاحتكاك الحضاري ١٠٧

٧. الفصل الخامس

التنقيبات الآثارية في فلسطين ١١٣

٨. الفصل السادس

الآثار ذات الطابع اليهودي ١٢٩

٩. الفصل السابع

الديانة اليهودية ١٤٣

الديانة اليهودية (التسمية) ١٤٧

أسطورة الخلق ١٥١

الإيمان بالآلهة ١٥٤

الأنبياء ١٧٨

الكهنه ١٨٣

الهيكل ١٨٤

تابوت العهد ١٨٦

يوم السبت ١٨٦

الموت ومصير الروح ١٨٧

الطوفان ١٩١

جنة عدن ١٩٨

آدم وحواء ١٩٩

الفرق الدينية اليهودية ٢٠١

١٠. الفصل الثامن

اللغة العبرية وتطورها ٢٠٥

بدايات الكتابة ٢١٠

الحروف الهجائية : البدايات والتطورات ٢١٥
الكنعانية والهجائية ٢١٨
الكنعانية والعبرية ٢٢٨
الكنعانية والأرامية ٢٣٠
اللغة العبرية ٢٤٢
النصوص العبرية المؤكدة ٢٤٥
تطور الخط العبري ٢٤٦
١١. الفصل التاسع ....
اليهود المعاصرون ٢٥٣
أصلهم ووجودهم ٢٥٥
الجنس و القومية واليهودية ٢٦٠
تساؤل لا بد منه ٢٦٩

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

أوهام التاريخ اليهودي

هذا الكتاب

تغيير المألوف و«التعود» الموروث هو فلسفة هذا الكتاب وهدفه . فالموروثات إيجابيه كانت أم سلبيه ، تشكل حيزاً كبيراً في العقليه الإجتماعيه ومواجهتها أشبه بداخل إلى حقل ألغام مبثوثه عشوائياً فهل يحجم مقاتل عن الخوض فية؟!

البناء الفكري جزء من التاريخ وهو جوهر الحضارة ، والحضارة الإنسانية أصابها التشوه بفعل التزوير اليهودي للتاريخ ذاته .

والكتاب بحث عن الحقيقه بأسلوب علمي يعتمد علم الآثار مرجعاً وحيداً وبمنهج نقدي موضوعي بعيداً عن المؤثرات «الايمائيه» والميتافيزيقيه وبالتالي فالنتائج التي مقدماتها صحيحه .. تكون صحيحه بالضروره .

الأهلية
للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص. ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ ♦ منشورات في العام ١٩٩٨ م
• الغلاف : زهير أبو شايب .

9